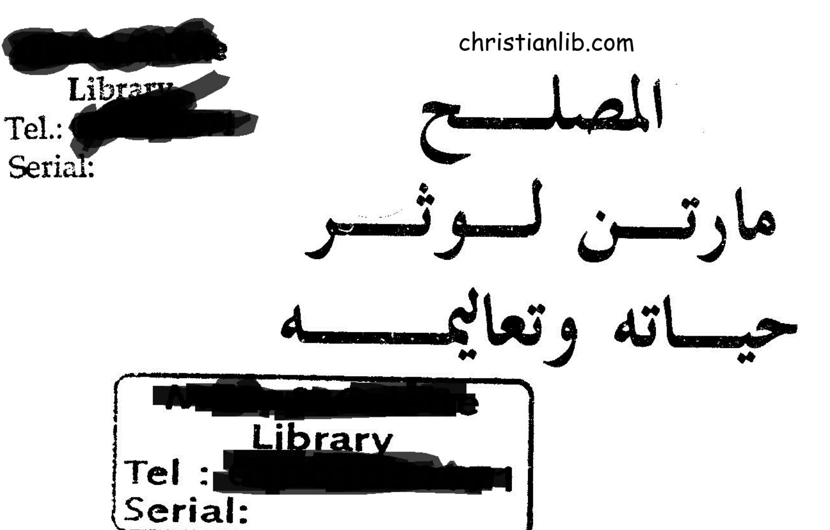
مارتن لوثر

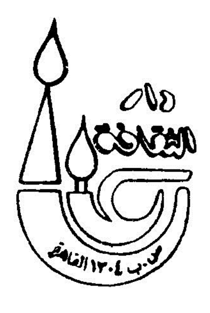


المصلـــح
مارتـــن لـــوثـــر
حيـــاته وتعاليمـــــه

بحث تاريخى عقائدى لاهـوتى

يقـــدمــــه

الدكتور
القس حنا جرجس الخضرى



صدر من دار الثقافة المسيحية ص.ب ١٣٠٤ - القاهرة
 ١٠/٣٨٨ ط ١ (أ)/٨٣ (٥ - ٥)
رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٣٧٠٠ دولى رقم ٩ - ٠٢٠ - ٩٧٧/١٦٦
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة

اهداء

● الى هذين الكنزين العظيمين اللذين منحهما لنا الرب لور (فوزيه) وعمانوئيل (فرح) حنا جرجس الخضرى

أهدى هذا الكتاب

● **A CES DEUX TRÈSORS QUE LE SEIGNEUR NOVS A DONNÈS, LAURE (FAWZIA) ET EMMANUEL (FARAH) HANNA GUIRGUIS EL-KHOUDARY. JE DÈDIE CE LIVRE.**

فهرس الكتـــاب

مقدمة

مارتن لوثر

من هذا الرجل ؟ هل كان محقا فى صراعه ونضاله ضد البابا وضد الامبراطور وضد بعض الامراء والرؤساء الكاثوليك ؟ هل كان مخطئا أو محقاً فى قيامه بحركة الإصلاح ؟ هل كان هرطوقيا أم أرثوذكسيا فى عقائده وتعليمه ؟ هل كان البابا محقا أم مخطئاً فى حرمانه للوثر ؟ هل كان الاصلاح بركة أم نقمة للعالم ؟

سنحاول أن نجيب على هذه الاسئلة وأسئلة أخرى سوف تواجهنا اثناء دراستنا هذا الكتاب . ولنبدأ بالسؤال الأول وهو لماذا كتب هذا الكتاب ؟

١ – سوف يحتفل العالم المسيحى البروتستانتى كله فى شهرى اكتوبر (تشرين الأول) ونوفمبر (تشرين الثانى) بمرور خمسمائة سنة على مولد المصلح الالمانى ، الذى ولد فى ١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٣م . ومع أن كنيستنا الانجيلية فى مصر هى كنيسة انجيلية مشيخية الا انها تدين أولا للرب يسوع المسيح بكل شىء ، وتدين للوثر وللوثرية باشياء كثيرة .

٢ – أن احتفالنا بمناسبة مرور خمسمائة سنة على ميلاد المصلح الانجيلى ، لايعنى بأى حال من الأحوال أن الكنيسة الانجيلية تقدس الاشخاص ، أو تقدم عبادة خاصة لهؤلاء القديسين (٢ كو ١٣ : ١٤ فى ٤ : ٢١ ، اتس ٥ : ٢٧) بل تحاول أن تنظر الى جهادهم واعمالهم ، فتسير فى نفس الطريق الذى سلك فيه هؤلاء (عب ١٣ : ٧) . متجنبة على قدر الإمكان الاخطاء التى سقطوا فيها ، مقدمة المجد والكرامة لشخص الرب يسوع الذى حفظهم بنعمته شهوداً أمناء .

٣ – كما أن الكنيسة فى احتفالها بهذه المناسبة لا تريد أن تجرح الاخوة الاحباء من أى كنيسة أخرى لا توافقها فى الرأى ، أو العقائد ، فليس هذا هدف الكنيسة الانجيلية بل أن هدف كاتب هذا الكتاب هو :

٤ – أن يقدم دراسة ايجابية بقدر المستطاع عن شخصية المصلح الالمانى ، محاولاً فيها أن يبين الظروف التاريخية والسياسية والدينية التى كانت تعيش فيها الكنيسة الكاثوليكية

والمصلح . فكم من المرات قدمنا نحن البروتستانت انتقاداتنا اللاذعة القاسية لموقف البابا ليون وموقف الكنيسة الكاثوليكية عامة فى قضية لوثر دون تفهم للتيارات الخفية السياسية التى لعبت دوراً هاما فى هذه القضية . ولا أريد بهذا أن أبرر البابا فى حرمانه للوثر . لكننى أريد أن أقول فقط ان لوثر قد عاش فى فترة تاريخية معقدة .

٥ - ويتمنى الكاتب من كل قلبه أن يكون هذا الكتاب دافعاً وحافزاً للكثيرين على دراسة حياة لوثر والفترة التى عاش فيها على ان تكون الدراسة علمية مجردة من الخلفيات التى يحتفظ بها كل منا كاثوليكى أو ارثوذكسى أو بروتستانتى ، عن المصلح وعن تعاليمه . ربما وصلت الى بعضنا بطرق غير علمية وغير محايدة .

٦ - لهذا السبب فقد حاولت أن أقدم بعض المراجع سواء على صفحات الكتاب نفسها أو فى قائمة المراجع حتى يستطيع الشخص الذى يريد التعمق فى دراسة حياة وتعاليم لوثر أن يجد بعض المراجع التى تساعده على الألمام بهذا الموضوع .

٧ - ومع أن لوثر قد استعمل فى بعض الأحيان ، ألفاظاً وعبارات قاسية جارحة فى وصفه للبابا ، ونحن نأسف كثيراً جداً لهذا التطرف . إلا أن شخصية لوثر وتعاليمه يمكن ان تكون مادة غنية لاثارة حوار بناء يقود الى وحدة قوية بعد انفصال طويل لأن كثيرين من العلماء الكاثوليك فى الوقت الحاضر يعترفون بان كنيسة وباباوات العصور الوسطى والعصر الذى عاش فيه لوثر يختلفون عن باباوات وكنيسة العصر الحالى ، خاصة بعد مجمع الفاتيكان الثانى .

٨ - كان لوثر يكن للبابا كل حب وتقدير واحترام ولم يغير فكره فى ذلك الا بعد التأكد من أن البابا كان يسعى للقبض عليه ومحاكمته كهرطوقى .

٩ - لم يهاجم لوثر الكنيسة ولم يحاول ان يهجرها لأنه كان يرى فيها أما ، فكان يسعى دائما لاصلاحها من الداخل .

١٠ - ومع ان لوثر قد هاجم سلطة البابا وسلطة المجامع ، إلا أن سلطة المجامع ما زالت موضوع جدل ونقاش بين الكنائس التى تؤمن بهذا السلطان الا أن لوثر كان متمسكا ليس فقط بالكتاب المقدس وحده ، بل قبل أيضا اقوال الآباء التى لا تتعارض والكتاب المقدس . وقد اكتشف أن القديس أغسطينوس قد أدرك موضوع التبرير بالايمان بطريقة تشبه الى حد كبير ادراكه لهذه العقيدة ؟!!! ألم يحث هو نفسه ايضا الرهبان فى مدينة هيدلبرج على دراسة الكتب المقدسة وتعاليم الآباء .؟

١١ - توجد حقيقة أخرى هامة جداً فيما يختص بلوثر والحوار المسكونى : لقد تمسك لوثر بالكتب المقدسة وشدد على دراستها ، كما تمسك بتعاليم الآباء . كما أن الكنائس

التقليدية القديمة كاثوليكية كانت أم ارثوذكسية قد فتحت ايضا الكتاب المقدس وخرج منها أيضا رجال أكفاء فى العلوم التفسيرية والنقدية والتاريخية ..

على هذا الاساس من تمسك المصلح باقوال الآباء التى تتفق والكتاب المقدس ، ثم تمسكه بالكتاب المقدس نفسه ، أمكن للكنائس التقليدية القديمة وكنائس الاصلاح أن تجد أرضا جديدة تقف عليها للتفاهم . ففى الماضى كان ينظر التقليدى الى البروتستانتى على أنه شخص رافض للتقليد والآباء . وليس هذا صحيحا لان آباء الكنيسة الذين قبلوا الكتاب المقدس وعملوا به هم آباء المصلحين ايضا . ويجب علينا ان نحبهم ونحترمهم كما أحبهم واحترمهم رجال الاصلاح ورجعوا الى كتاباتهم ولم يحاول المصلحون قط مهاجمة آباء الكنيسة الذين تمسكوا بالكتاب المقدس وعلموا به ، بل وجدوا فى هؤلاء الآباء سنداً وعوناً لكى يؤيدوا باقوال هؤلاء الآباء وتعاليمهم الجديدة التى نادوا بها . ولهذا السبب نجد أن كتابات المصلحين قد امتلأت باقتباسات من أقوال الآباء ، هذا ماحاول أن يفعله لوثر . وهذا ماحاول أن يفعله ايضا كثير من المصلحين . فعلى سبيل المثال نجد فى كتابات جون كلفن المصلح الفرنسى ثلاثة آلاف اقتباس من كتابات الآباء ، فعلينا نحن ابناء وورثة المصلحين أن نقبل كل تعاليم الآباء التى تتفق والكتاب المقدس ولا تتعارض معه . وما أكثر تعاليم الآباء التى لا تتعارض قط مع الكتاب المقدس بل هى مأخوذة منه .

١٢ - يجب أن نبحث بطريقة علمية وتاريخية صحيحة وواعية الاسباب الحقيقية التى أدت الى ذلك الانقسام المخجل . إذ انه توجد أسباب سياسية كثيرة كانت وراء هذا الانقسام . ومما لا شك فيه انه لا يمكن ان نلقى بالمسئولية كلها على عاتق الظروف السياسية وحدها ، لأنه كانت توجد ايضا اسباب عقائدية وتعليمية وراء هذا الانقسام ولكننا نعتقد بان الباحث والدارس المنقب يمكنه ان يدرك بان الظروف السياسية التى كانت تحيط بالكنيسة فى عصورها الأولى وفى العصور اللاحقة وفى العصور الوسطى كانت سبباً فى كثير من الانقسامات التى حدثت فيها والتى نعانى منها نحن الآن ، بالرغم من أن ظروفنا السياسية تختلف تماماً عن الظروف فى تلك الفترات التى عاشتها هذه الكنائس .

لقد كانت تسيطر على تعاليم بعض المجامع وبعض الآباء والمصلحين ، مفاهيم فلسفية وتعليمية الا أن بعضها تغير ، مما يوجب علينا أن نجلس جميعاً كاثوليك وارثوذكس وبروتستانت ونطرح مشاكلنا على المائدة ونناقشها بصراحة وأمانة .

١٣ - يحتاج العصر الذى تعيشه الكنيسة اليوم شرقاً وغرباً الى وحدة كاملة وترابط قوى وايمان عميق فى شخص الرب يسوع المسيح صخر الدهور ، ويحتاج أيضا الى محبة صادقة بلا رياء لكى تستطيع الكنيسة بنعمته أن تواجه تحديات وتيارات العصر الحاضر من الحاد وكفر ومادية وتعصب أعمى . إن الكنيسة كلها غرباً وشرقاً معرضة لهذه التحديات ، وإن كنا نثق ونؤمن بان وعد الله صادق وامين وأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها فعلينا ألا ننسى أن رغبة الله العظمى وأمره السامى واضحان فى : صلاة الرب يسوع الشفاعية وهى أن نكون واحداً حتى نستطيع أن نحمل المسئولية الموضوعة على عاتقنا ألا وهى أن يؤمن الجميع باسمه .

دار الثقافة

الفصـــل الأول

ميــلاده :

من الغريب أن مرجريت زيكلر ، تتذكر جيداً اليوم والساعة التى ولدت فيها أبنها مارتن ، إلا أنها لا تتذكر جيداً سنة الميلاد . ولقد حاول ملانكتون (Melanchton) الصديق المخلص والرفيق الأمين للوثر فى جهاده ، أن يعرف تاريخ ميلاده ، فسأل أمه مرجريت ، فقالت له أنه قد ولد قبيل منتصف الليل فى العاشر من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) . ولكنها لا تذكر السنة بالتحديد[١] ولهذا السبب فقد اعتقد بعض المؤرخين أن مارتن لوثر ولد فى العاشر من نوفمبر ١٤٨٣[٢] والبعض الآخر يظن أنه ولد فى سنة ١٤٨٤ ، أو ١٤٨٥[٣] . اما مارتن لوثر نفسه ، فكان يعتقد أنه ولد فى العاشر من نوفمبر ١٤٨٢ ، إذ أنه تقدم للامتحان فى كلية (Erfurt) أرفورت فى سنة ١٥٠٥ ولم يكن من الممكن ، بحسب دستور هذه الكلية ، قبول أى طالب لهذا الامتحان قبل أن يبلغ الثانية والعشرين من عمره على أن ملانكتون ، كان متمسكا لوقت ما ولاسباب نجهلها ، بأن مارتن ولد فى العاشر من نوفمبر سنة ١٤٨٤ . وهذا ماقد سجله لنا فى كتابه « حياة لوثر » المؤرخ بتاريخ أول يونيو ١٥٤٦[٤] ، وهى السنة التى انتقل فيها المصلح الى المجد . ولكن يعقوب أخا مارتن لوثر قال إن أخاه قد ولد فى العاشر من نوفمبر ١٤٨٣ . ويعترف ملانكتون بصدق وأمانة يعقوب حتى أنه قبل هذه الشهادة كوثيقة تاريخية ، يرجع اليها معظم العلماء .

وبناء على ذلك ، تحتفل الكنائس اللوثرية فى العالم كله بمرور خمسمائة سنة على ميلاد المصلح الدينى الألمانى مارتن لوثر فى العاشر من نوفمبر سنة ١٩٨٣م .

الوسط الذى نشأ فيه مارتن لوثر

كان يوحنا لوثر ومرجريت زيكلر من عائلة ريفية متواضعة من أعمال أيزناج أو اسناخ «Eisenac» . ولقد اشتدت قسوة الحياة الريفية عليهما ، لأنهما لم يكونا من أصحاب العقارات والاطيان[٥] فى منطقة تورنج (Thurrine) الزراعية والغنية بغاباتها وحقولها . ولهذا السبب فقد اضطر الى النزح من منطقة تورنج (Thurrine) الزراعية الغنية بغاباتها وحقولها الى أيسليبن (Eisleben) سعيا وراء لقمة العيش . ففى هذه المدينة التى تقع حاليا فى المانيا

الشرقية[٦] وفى أحد شوارعها الكبيرة وفى بيت مظلم يخلو من كل وسائل الراحة والرفاهية والتنعم ، ولد المصلح مارتن لوثر[٧] .

من كان يعلم أو حتى يحلم بان هذا الطفل الصغير الفقير المتواضع النسب والحسب ، سوف يغير بحياته وتعاليمه مجرى التاريخ ومصير كثير من دول العالم ؟!!!

عمـــاده :

تمسكت الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك الوقت بفكرة الاسراع فى تعميد الأطفال[٨] وبما أن يوحنا (هانس) ومرجريت كانا كاثوليكيين محافظين على تقاليد الكنيسة وطقوسها فقد طلبا عماد إبنهما فى « يوم الثلاثاء » وهو غد ميلاده فحملاه الى كنيسة القديس بطرس ليعمد هناك ، وسمياه باسم مارتن لانه ولد فى ليلة عيد القديس مارتن[٩] .

ومع أن يوحنا (هانس) لوثر لم يدرس دراسات عالية فى الجامعة ، الا أنه كان على مايبدو واسع الطموح كثير الجهاد ، لايخشى التعب ولا يهاب الصعاب وقد كتب مارتن فيما بعد يقول : « كان والداى فقيرين جداً ، فكانت والدتى تحمل الاخشاب على ظهرها لاعالتنا لقد كانت حياتهما قاسية صارمة » وعندما تكلم لوثر عن أبيه قال : « لقد خلق عرقه منى ما أنا عليه الآن »[١٠] .

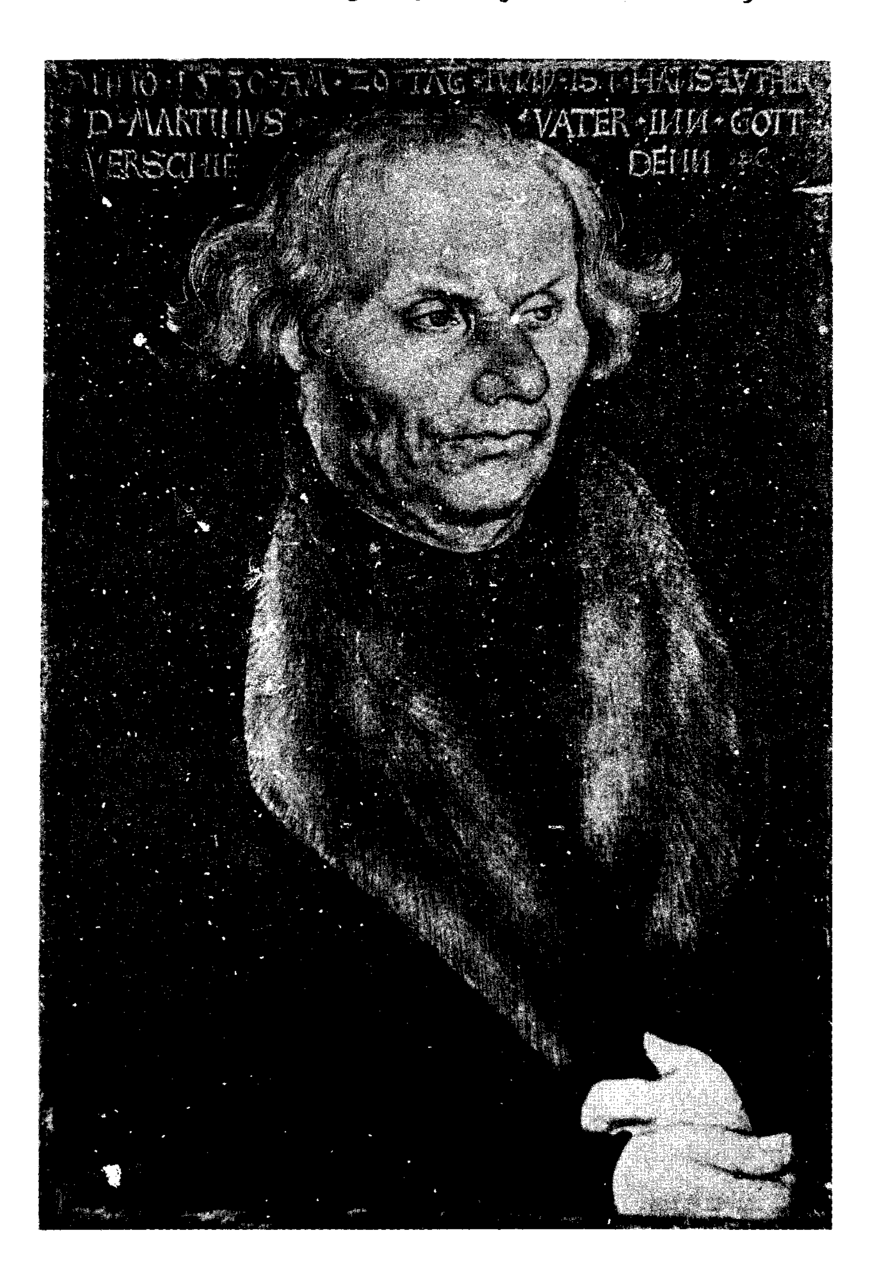
ولم يكن رجل طموح مثل هانس لوثر ليرضى بالفتات الساقط من موائد الفلاحين والعمال . ولذلك فقد دفعه طموحه هذا للسعى وراء مكان أفضل وعمل أجدى . ولهذا السبب فبعد مضى ستة أشهر من ميلاد مارتن ، ترك أيسليبن متجها الى مدينة (Mansfeld) مانسفلد التى تبعد عن أيسليبن بحوالى ستة كيلومترات . وكانت هذه المنطقة غنية بمناجم النحاس والفضة ولم يمر وقت طويل على هذا الرجل المجتهد العامل الطموح ، حتى قفز من درجة عامل الى رئيس لثلاثة مسابك صغيرة[١١] ولم يتوقف نجاحه وصعوده عند باب هذه المسابك الصغيرة ، بل أصبح هو نفسه مالكاً لحوالى اثنى عشر مسبكا[١٢] كما أنه أختير عضواً فى مجلس المدينة الذى كان يتكون من أربعة أعضاء لمساعدة الحاكم والاشتراك معه فى الادارة . وبهذا أصبح يوحنا (هانس) لوثر بورجوازيا فى مدينة مانسفلد[١٣] .

أما مرجريت زيكلر فكانت هى أيضا سيدة مجتهدة عاملة نشيطة . ولقد رسم كراناش (Cranach) الرسام المعاصر لها صورة تعبر عن حيريتها وقوتها ونشاطها ... كما أنها كانت أيضا سيدة فاضلة تقية . ولذلك فإن كثيرات من جيرانها اتخذتها مثالا لهن[١٤] الا أن تقواها قد صبغت وتأثرت تأثراً عميقاً بالخرافات والعقائد التى انتشرت فى عصرها . فكانت تؤمن كما كان يؤمن الكثيرون من أبناء عصرها بالقوات الشيطانية والحسد « وتأثير العين » . كما أنها

كانت تعتقد أن الارواح الشريرة تسكن الاماكن المظلمة والبرك والمستنقعات[١٥] وكانت تخشى من السحر وسلطانه حتى أنها نسبت موت ابنها الثانى الى سحر جارة من جيرانها ؟!!![١٦] .

حياتــه العائليــة :

كانت كثرة الأطفال فى هذا العصر تعتبر بركة من بركات الله ، وعلامة من علامات



رضاه على الناس ولقد منح الرب يوحنا لوثر ومرجريت سبعة أطفال[١٧] فكانوا بلا شك يملأون البيت فرحاً وسروراً . ومع أن يوحنا ومرجريت تركا القرية والزراعة ، الا أنهما احتفظا بالعقلية الريفية بوقت طويل جداً ولوثر نفسه كان يقول « انني فلاح أبا عن جد ، ولقد كان كل أجدادى فلاحين »[١٨] . ومن بين العادات والمفاهيم المنتشرة فى ذلك العصر ، ليس فقط فى القرى وبين الفلاحين ، بل فى المدن أيضا بين المتعلمين . والتى كانت تسيطر بدروها على يوحنا لوثر ومرجريت المفهوم الخاطىء فى تربية الأطفال واستعمال الشدة والقسوة فى تهذيبهم . وهذا الاسلوب التربوى الذى اتبعه أهل ذلك العصر لايدل بأ حال من الاحوال على تجرد الاباء والامهات والمربين من العطف والمحبة والحنان ويذكر المصلح بعض العقوبات التأديبية التى ذاقها فيقول « لقد عاقبنى أبى عقاباً شديداً فى يوم ما لدرجة أنى هربت من امامه وأختفيت ، ولم أستطع أن آنس اليه الا بعد وقت طويل » ثم يقول عن أمه فى يوم من الايام ضربتنى أمى بالسياط حتى انفجر الدم من جسمى بسبب حبة جوز بائسة[١٩] . وبالرغم من هذه التأديبات والعقوبات القاسية التى تألم بها مارتن فأنه كان يدرك تمام الادراك أن الهدف من كل هذه التأديبات كان تهذيبه وتعليمه وكانت كلها لخيره . كما يقول هو نفسه : « فبالرغم من أن عقاب والدى لى كان قد تعدى الحدود الا أنهما لم يريدا إلا خيرى »[٢٠] .

ومما لا شك فيه أن قسوة والديه فى الطريقة التى اتبعاها لتهذيبه وتعليمه تركت انطباعات كثيرة وتأثيرات نفسية عميقة فى شخصية مارتن لوثر مرهف الحس ، ورقيق الشعور . بل دفعت به أيضا الى نوع من الانطوائية . ولاجل هذا كتب فيما بعد يقول : « كان والداى فى غاية القسوة معى ، الامر الذى خلق منى انسانا خجولا ولقد كانت قسوتهما عاملا دفعنى الى الالتجاء الى الدير لاصبح راهباً[٢١] ان قسوة والدي مارتن لوثر فى تربيته . ربما جعلته يفكر فى الرهبنة هرباً منهما الا انها لم تكن العامل الاساسى والوحيد الذى زج به الى الدير وسوف نتعرض لهذه النقطة فيما بعد .



حيـــاتـــه المدرســـية :

التلميذ مارتن فى مدرسة مانسفلد :

كان والدا مارتن فى غاية القسوة فى تهذيبهما له . كما سبقت الاشارة الى ذلك . ولكنهما لم يريدا من هذه القسوة والشدة الا تربيته تربية مسيحية صالحة . وبناء على ذلك فقد سجلا اسمه فى مدرسة المدينة التى كانت تقيم فيها العائلة لكى يحصل على اكبر قسط من التعليم حتى يستطيع فيما بعد أن يصبح رجلا متعلماً مثقفاً ومهذباً .

فعندما بلغ سن السابعة[٢٢] أو قبل ذلك بقليل عرف مارتن طريق المدرسة . وعلى مايبدو كان نظام المدرسة والتدريس فى ذلك العصر جافا قاسياً . ولقد انقسم العلماء هنا الى فريقين . فريق يرى أن نظام التدريس كان فعلا جافا وقاسيا ممتلئاً بالسطحيات والقشور « والحشو » خاليا من الجوهريات والتعمق والتركيز . وبما انه خلا من التعمق والدرس العلمى والبحث الدقيق فقد استعمل المعلمون كوسيلة لتعليم الشدة والقهر والضرب وليس جذب التلاميذ وتشويقهم بطريقة عرض الدروس بوسائل جديدة وباسلوب ممتع جذاب .

والذين يؤيدون هذه النظرية اقتبسوا عدة مراجع وشواهد من كتاب ذلك العصر – على أننا نكتفى هنا بسرد بعض كتابات المصلح فقط فيما يخص هذا الموضوع . ففى سنة ١٥٢٤ أرسل لوثر خطابات الى حكام المدن ليحثهم على العمل على تأسيس مدارس وجامعات فى مدنهم . ولقد ذكر فى خطابه هذا بعض الانتقادات القاسية والمريرة عن التعليم والمناهج لدرجة أنه لصق اسم جهنم والمطهر بهذه المدارس . فهو يقول عن المدرسة « كنا نعذب .. ولم نتعلم شيئاً »[٢٣] وعندما يتعرض لوصف قساوة معلميه وشدتهم فى التعليم يقول « لقد ضربت ١٥ مرة فى يوم واحد »[٢٤] .

الى هذه النصوص والى نصوص أخرى رجع الكثيرون لكى يؤيدوا فكرة أن نظام التعليم كان خاليا من العمق ومصحوباً بالقسوة والعنف .

أما الفريق الثانى فيتفق والفريق الأول على أن نظام التعليم فى ذلك الوقت كان قاسيا بالفصل ولكن ليس بالدرجة التى حاول الكثيرون أن يصفوه بها مبالغين . كما بالغوا أيضا فى كلامهم عن اسلوب الآباء فى تهذيبهم للابناء[٢٥] . وصحيح أن المناهج كانت قليلة ومحدودة وهذا يرجع الى قلة الكتب . إلا أن الذين كانوا يرغبون فى الدرس والبحث ، كانوا يجدون ابواباً مفتوحة امامهم فى ذلك الوقت .

المناهج التى كانت تدرس :

كانت تدرس كل المواد باللغة اللاتينية[٢٦] فلقد درس مارتن فى مدرسة مانسفلد قواعد اللغة اللاتينية ، الوصايا العشره ، قوانين الايمان ، الصلاة الربانية وبعض الترانيم[٢٧] والخطابة والمنطق والتاريخ وبعض العلوم الأخرى .

مارتن فى مدرسة مجد بورج (Magde Bourg)

لقد قرر الاب الطموح يوحنا لوثر أن يواصل ابنه دراساته ، فأرسله لذلك الى مدرسة اشتهرت فى المنطقة بكفاءة معلميها وتقوى الذى يقومون بادارتها : وهى مدرسة الاخوة الفرنسيسكان* فى مجد بورج . الى هذه المدرسة جاء مارتن من مانسفلد مع صديق له ميسور الحال يدعى يوحنا رينيك (Jean Reineke) لكى يواصلا دراستهما الثانوية .

كان مارتن فى الرابعة عشره عندما التحق بهذه المدرسة . ومع أنه لم يمكث فى هذه المدينة الا عدة شهور ، لأنه أصيب بمرض أضطره للعودة الى مانسفلد ، الا أن اقامته فى هذه المدرسة كان لها تأثير عميق جداً على حياته ومستقبله فبالرغم من أنه لم يذكرها الا مرة واحدة فى كتاباته[٢٨] الا أن الاحداث التى وقعت فيها ، لعبت دوراً هاماً جداً فى حياته الروحية ونذكر منها :

١ - كان الامر الأول الذى أثر فى نفس الشاب هذا هو الحياة فى المدرسة نفسها . كان الاخوة الفرنسيسكان يشرفون على ادارتها وعلى التعليم فيها . ولقد اتصفت هذه الجماعة بروح التقشف والزهد والاتضاع والاماتات كما كان القديس فرنسيس الاسيزى . ولذلك فقد حاول بكل الوسائل غرس وتنمية هذه الروح فى التلاميذ . ولكى يدربوهم على ممارسة هذا التمرين العملى الصعب ، فقد طلبوا منهم أن يتسولوا فى الشوارع طالبين صدقة من الناس[٢٩] لذلك فانه من الخطأ إذن أن نقول ان مارتن كان يتسول لفقره ، وسوف نرجع الى هذه النقطة فيما بعد .

٢ - كان الأمر الثانى الذى أثر فى حياة مارتن وتفكيره هو تعاليم مدرسيه الأخوة الفرنسيسكان عن حياة الرهبنة . ولقد انتشرت فى هذه الأيام فكرة أن الرهبنة وسيلة من الوسائل الأكيدة على الحياة الابدية والهروب من غضب الله .

٣ - أما الحدث الثالث الذى ترك فى نفس ذلك الشاب المرهف الاحساس والشعور تأثيراً عميقاً لا يمكن للايام أن تلاشيه هو صورة وليم ، أحد الأمراء والأغنياء من بلدة أنهالت (Anhalt) الذى ترك العالم وكل أمجاده وجاء ليصبح راهباً ويعيش فى الدير . وكان يجول فى شوارع المدينة طالباً احسان المحسنين . ولقد ظهرت عظامه تحت ثيابه لكثرة ماكان يعانى من الاعمال البدنية المتعبة واذلال جسده وقهره . ويقول مارتن فى وصفه لهذا الأمير : « لقد رأيته بعينى يحمل كيسا على ظهره كحمار »[٣٠] ويقال أن هذا الأمير كان يمارس هذه الاعمال التقوية وتعذيب جسده بهذه الطريقة لكى يكفر عن ذنوب أبيه السالفة[٣١] ولكى يحصل هو نفسه على الحياة الأبدية .

٤ - حدث رابع مر به مارتن فى هذه المدرسة : فلقد رأى لأول مرة كما يقال - نسخة من الكتاب المقدس ، وعندما فتحه عن طريق الصدفة ، وجد قصة الصبى صموئيل ،

فألتهمها التهاما ومنذ هذه اللحظة وهو يتوق شوقاً لاقتناء هذا الكتاب العجيب[٣٢] .

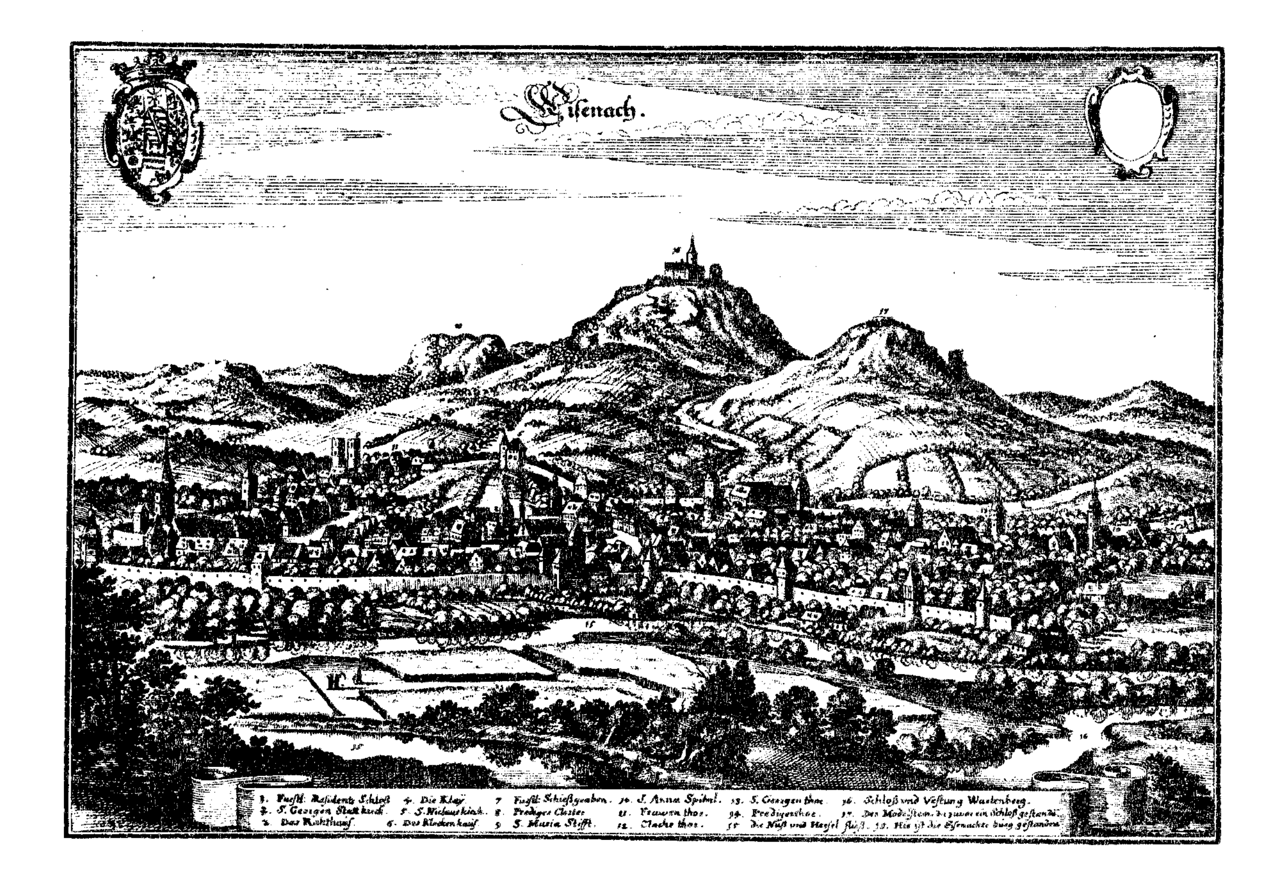
٥ – لقد مر الشاب مارتن بهذه الاختبارات فى فترة قصيرة جداً لا تتعدى سبعة شهور . وقبل أن ينهى السنة الدراسية أصيب بمرض ورجع الى مانسفلد للاستشفاء والعلاج وسط عائلته . وبينما كان على فراش المرض ، أصيب أيضا أكير مانسفلد بمرض خطير جداً وكان يتوقع هو وكل مدينته موته القريب . ولذلك فقد أعلن ندمه على كل خطاياه ، كما أنه كان يقوم باعمال صالحة كثيرة لكى يكفر عن ذنوبه ولكى ينال باعماله الصالحة كما كان يعتقد ، رضا ربه .

لعبت كل هذه الاحداث دوراً هاما وكبير فى حياة مارتن الروحية وفى مستقبله أيضاً . كانت هذه الاحداث أو بعضها سبباً فى مرضه هذا ؟ لانعلم بالضبط ، ولكننا نعتقد أن هذه الاحداث التى حدثت فى فترة قصيرة كانت من الأسباب الهامة جداً التى دفعت مارتن الى التفكير العميق فى حياته الروحية وخاصة فى مشكلة الموت والتبرير .

مارتن فى مدينة أيزناخ أو اسناخ (Eisenach)

بعد مرور بضعة أسابيع على مرض مارتن بدأ يتماثل للشفاء . وعندئذ بدأ يوحنا أيضا فى البحث عن مدرسة أخرى . وأستقر أخيراً الرأى على مدينة ايزناخ . فإن مارتن سوف يجد هناك عمه كونراد هيتر (Conrad Hutter) وهو قندلفت أو سكر ستانى لكنيسة القديس نيكولا فى هذه المدينة[٣٣] وهكذا سجل اسم مارتن فى مدرسة القديس جورج فى أيزناخ وبدأ من جديد عاما دراسياً آخر .

على أن عمه كونراد هيتر لم يعره اهتماما كبيراً . ولهذا السبب فقد انضم هذا الشاب الى جماعة من الشباب فى فرقة الترنيم المحلية . وكان يطوف الشوارع معهم مرنما ومستجديا عطف الناس واحسانهم . ولقد اعتقد عدد كبير من الكتاب بأن مارتن كان يتسول لأنه كان فى حاجة لهذا المال للمدرسة وللاكل والملابس ، لأنه كان فقيراً . والذين يؤيدون هذه النظرية ، يرجعون الى أقوال مارتن نفسه عن أنه كان من عائلة فقيرة ، كانت امه تحمل الحطب أو الخشب على ظهرها لاعالته ... وقد كتب هو نفسه قائلا « لا تستهينوا بالصغار المتسولين لانى كنت مثلهم ، نعم كنت فتى مسكيناً مستجدياً وأرتقيت الى ما أنا عليه بقلمى .. »[٣٤] وكاتب آخر كتب يقول « ونظراً لفقر لوثر لم يدقق معه هؤلاء الآباء فى مسألة المصروفات . ومع ذلك لم يستطع لوثر ان يسد مصاريفه الشخصية من جيبه الخالى .. وكان من عادته اثناء اقامته فى مجدبرج – أن يصحب جماعة من الزملاء الاصدقاء ممن ربطهم الفقر باواصر الصداقة المتينة ويطوفون فى شوارع المدينة يرددون الالحان والترانيم حتى يدبر الله لهم احد الاغنياء الذى يعطف عليهم ويرق لحالهم .. ويقدم لهم شيئاً من الطعام[٣٥] .


Eisenach.
1. Fürstl. Residentz Schloß
2. S. Georgen Stattkirch
3. Das Rahthauß
4. Die Klag
5. S. Nicolaus kirch
7. Fürstl. Schießgraben
8. Prediger Closter
9. S. Maria Stifft
10. S. Annen Spital
11. Frauwen thor
13. S. Georgen thor
14. Prediger thor
16. Schloß und Vestung Wartenberg

أما الفريق الثانى من العلماء والمؤرخين يعتقد أن الفريق الأول الذى قدمنا بعضاً من كتاباته يبالغ قليلاً فى وصف حالة مارتن بالبؤس المحزن والفقر المقنط والحاجة المؤلمة[٣٦] .

ولفهم هذه النقطة يجب أن لا يغيب عن بالنا مرحلتين فى حياة يوحنا لوثر : المرحلة الأولى وهى التى قضاها اثناء صباه فى أيزناخ ثم هجرته منها لضيق الحال وقلة العيش فيها ولانه لم يكن من ذوى الاملاك* حتى فى ايسلبن لم تتحسن حالته الاجتماعية ، ولذلك فقد تركها سريعاً سعياً وراء العيش متجهاً الى مدينة اشتهرت بالمناجم وهى مانسفلد وهناك استقر . ولم تكن الحياة بالنسبة له فى بداية الامر لينة هنية ، بل كان عليه أن يجاهد ويصارع ويناضل فلقد بدأ كعامل بسيط فى منجم وبفضل اجتهاده فى العمل وامانته ودقته أصبح رئيساً لعمال ثلاثة مسابك ، وبعد ذلك نشد الاستقلال فاصبح هو نفسه مالكا اثنى عشر مسبكاً وفى سنة ١٤٩٦ صار عضوا فى مجلس المدينة ومساعداً لحاكمها وبذلك أصبح يوحنا لوثر واحداً من بورجوازى هذه المدينة[٣٧] .

ومما لا شك فيه أن يوحنا لوثر كان من عائلة فقيرة جداً . ومما لا شك فيه أيضا أن مارتن واخوته ذاقوا طعم الحرمان المر المؤلم وعاشوا فيه فترة . ولذلك فهو يتذكره ويذكره فى كتاباته فمن المحتمل أن تكون احوال يوحنا لوثر الاجتماعية والمالية بدأت فى التحسن بعد أن وصل الى مانسفلد بعدة سنوات ، أى منذ سنة ١٤٩٣ أو ١٤٩٤ تقريبا . وكان مارتن فى ذلك الوقت قد تجاوز العاشرة أو الحادية عشرة .

وكيف يمكن إذن أن نشرح كتابات الكتاب وكتابات لوثر نفسه التى تتكلم عنه وعن حرمانه والاماتة النفسية وتسوله فى الشوارع ؟ . ولحل هذه المشكلة توجد عدة اقتراحات :

١ – كان مارتن عضوا فى فرقة الترانيم فى مانسفلد ثم فى مجدبورج وكذلك فى أيزناخ . ومن المعروف بأن أعضاء هذه الفرقة لم يكونوا من الفقراء المعوزين فقط بل كانت تضم أيضاً اطفال بعض العائلات الغنية والمحترمة فى المجتمع[٣٨] وكان الهدف من تكوين هذه الفرق هو الترنيم فى الكنائس وفى الشوارع ايضا . ولقد حاول المسئولون عن هذه الفرق أن يبثوا فى نفوس المشتركين فيها روح التواضع وانكار الذات عن طريق التسول وطلب الاحسان فى الشارع . ولقد استخدم التلاميذ الفقراء هذه الوسيلة لسد حاجاتهم الدراسية وغير الدراسية .

٢ – ان الكتاب الذين صوروا لنا مارتن بائسا فقيراً ومتسولا امام الأبواب ، كان دليلهم على ذلك النصوص التى تتكلم عن يوحنا لوثر فى حالة فقره ونضاله قبل أن يصل الى حالة اليسر .

٣ – لقد تألم مارتن فعلا عندما كان يقاسى الحرمان الحقيقى والفقر المادى الذى كان يعيشه

مع اخوته فى بيت أبيه فى المرحلة الأولى من حياة ابيه يوحنا لوثر ، وحتى بعد أن تغيرت احوال أبيه الاجتماعية وتيسرت ظروفه ظل مارتن يشعر بحالة الفقر والحرمان بطريقة تكاد أن تكون واقعية فى مجد بورج وفى ابزناخ عندما كان يطوف فى الشوارع مع بعض رفاقه الاغنياء والفقراء مرنمين وهم يطلبون احسانات المحسنين . وبما أنه كان يشعر بشعور الآخرين ويتألم لآلامهم . فقد اشترك معهم ليس فقط فى جمع الكسر ، بل كان يشعر بشعور الآخرين ويتألم لآلامهم . فقد اشترك معهم ليس فقط فى جمع الكسر ، بل كان يشعر فى نفسه كما لو كانت هذه الكسر تجمع له شخصياً . ولهذا السبب ، فعندما كتب عن الذين يتسولون قال « وانا ايضا كنت أتسول طالباً بعض الكسر من الخبز لا تحتقروا هؤلاء الصغار فأنى كنت واحد منهم »[٣٩] . فإن كان مارتن قد تألم كثيراً اثناء هذه التمارين الموسيقية والغناء فى الشوارع ، الا أن هذه كانت فرصة ذهبية فعن طريقها تعرف على عائلة كريمة النفس نبيلة الاخلاق ولقد ظل كل حياته مرتبطا بها ومحتفظا ومعتزا بذكرياتها العطرة هذه العائلة هى عائلة كونز كوتا وزوجته أورسول (Kunz Cotta Et Vrsdle) ويبدو أن هذه العائلة سمعته يرنم فى الكنيسة ، فدعته لتناول الطعام ، وعندئذ بدأت روابط المحبة تتعمق ، فأصبح مارتن كواحد من العائلة . ولقد كانت هذه السنوات التى قضاها مارتن تحت سقف هذا المنزل سنوات مشرقة شعر فيها بالسرور والارتياح والسعادة النفسية . كانت العائلة غنية ومثقفة وكان البيت مفتوحاً ، فكم من المواضيع اللاهوتية والدينية والتقوية التاريخية نوقشت اثناء تناول الطعام ... وكم كان الشاب مارتن يصغى الى هذه المناقشات التى درات بين رب وربة البيت والاباء والفرنسيسكان وغيرهم . ولقد كانت هذه الفترة مشرقة فى حياة الشاب مارتن لوثر .

هوامش الباب الأول

1. Henri Strohl, Luther. Jusqu'en 1520. Presses Universitaires De France, P 27
2. Roland H. Bainton's. Here J. Stand, A life of Martin Luther, A. Mentor Book, P. 16
3. Denise Hourticq, Luther Mon Ami. Labor et Fides, P. 12.

وأنظر أيضا ميرل دوبينياه ، ترجم عن الانجليزية بقلم الشيخ ابراهيم الحورانى (تاريخ الاصلاح فى القرن السادس عشر) منشورات مكتبة المشعل فى بيروت باشراف رابطة الكنائس الانجيلية فى الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ص ٣٦ – ٣٧ .

4. H. Strohl, Luther. Sa, Vie Et Sa Pensee, Ed. Oberlin, P. 17.
5. Roland Baintaon, P. 17-19.
6. Albert Greiner, Luther, UN. Passionnè de veritè, P. 8.
7. A Greiner, Luther. Essai, Biographique, Labor Et Fides. P. 19.

٨ – أ . موريسون ، حياة لوثر ، ترجمة القس باقى صدقه ص ٦

٩ – ميل دوبيياه ص ٣٧ .

10. A. Greiner. Essai. 19.

11. A. Greiner. Un Pass.. P. 9.

انظر أيضا ميرل دوبينياه ، ص ٣٧

12. R. Bainton, P. 19.

13. A. Greiner. .... 9-11.

14. G. Casalis, Luther Et L'Eglise Conffssante, Ed. Du. Cerf, 1983. P. 1-9.

15. R. Bainton, 18-23.

16. A. Greiner. Essai P. 20.

17. A. Greiner. Essai P. 19, Hourtieq. P. 12.

18. A. Greiner. Essai P. 19, Hourtieq. P. 12.

19. A. Greiner. P. 19.

20. A. Greiner. 19-20.

21. H. Strohl, Sa Vie ... P. 20.

22. A. Greiner, P. 19.

23. Strohl, Luther Jusqu'en 1520, P. 29-30.

24. .... P. 30.

25. O. Scheel, Martin Luther 2 Voi, Tubingue 1916, 1-4 Et, Strohl P. 29-30.

26. D. Hourtic 9, 13.

٢٧ – ميرل دوبينياه ، ص ٣٨ .

* ان الذى قام بتأسيس جماعة الاخوة الفرنسيسكان هو القديس العظيم والشهير فرنسيس الاسيزى وهو ايطالى الجنسية . ولقد اشتهر بحملاته التبشيرية فى الكنيسة ولهذا السبب فهو يعد من المصلحين إذ أنه حاول القيام بحملة تبشيرية اصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها . كما أنه اشتهر أيضا بمحبته الفياضة للناس وللحيوانات وللطيور وللطبيعة . والجدير بالذكر أن القديس فرنسيس جاء الى مصر فى القرن الثالث عشرة سنة ١٢١٩ وتقابل مع السلطان الحاكم فى ذلك العصر . فلقد جاء اثناء الحرب الصليبية لكى يقدم صورة أخرى حقيقية عن المسيحية التى شوهها بعض الجنود والقادة الصليبيون بتصرفاتهم ووحشيتهم .

(٢٨) فى خطابه المرسل الى عمدة مجد بورج والمؤرخ بتاريخ ١٥ يونيو ١٥٢٢ .

Christian Egypt: Ancient and Modern. By. Ottor A. Meinardus. PH. D, P. 40-4 Sch. 1. P. 70.

29. D. Hourtic q, P. 14.
30. R.H. Bainton P. 25, Greiner P. 20-21.
31 D. Hourticq R. P. 14.
32. Strohl, Luther Jusqu'en 1520. P.P. 3-32.
33. Strohl 24-Strohl, Luther Jsuqu'en 1520 P. 32.

(٣٤) ميرل دوبنياه ٣٩ – ٤٠
(٣٥) أ . موريسون ، ترجمة القس باقى صدقه ، ص ١٤ .

* انظر ماجاء فى هذا الكتاب بشأن ذلك .

36. Strohl. Jusqu'en 1520. P. 29-32.

(٣٧) انظر ماجاء فى هذا الكتاب .

38. Strohl P. 24-25.
39. Strohl, P. 32.

الفصل الثانى

مارتن الطالب فى جامعة ارفورت (Erfurt)

أنهى مارتن دراساته الثانوية فى مدرسة القديس جورج بمدينة ايزناخ عندما كان فى الثامنة عشره من عمره ومع أن أباه يوحنا لوثر لم يكن مثقفا ثقافة جامعية ، الا انه كان طموحاً ، واسع الرؤى فيما يتعلق بمستقبل ابنه . وخاصة لأن أحواله المالية تحسنت ، بل إنه احتل مكانة اجتماعية مرموقة فى مدينة مانسفلد . لهذه الاسباب قرر يوحنا لوثر أن يلحق ابنه بالجامعة لاتمام دراسته الجامعية فسجل اسمه فى جامعة (Erfurt) فى مايو عام ١٥٠١ .[١] وهى أقرب مدينة جامعية لمانسفلد .

وعندما رأى يوحنا ابنه طالبا جامعيا بدأت الاحلام التي غزاها طموحه الواسع تستولى على افكاره وقلبه فقد كان يحلم بأن يرى إبنه محاميا مشهوراً عظيماً يشغل مركزاً مرموقاً فى خدمة أمراء مدينة مانسفلد[٢] . ولكن لكى يصل مارتن الى هذا المقام المرغوب فيه كان عليه ان يقطع مرحلة طويلة من الدراسات فى هذه الجامعة . وهنا فى هذه المدينة بدأ المصلح دراساته الجامعية .

درس الطالب مارتن الفلسفة على يد استاذ بارز الشخصية ، وهو العلامة بودوكوس الذى لقب بعلامة أيزناخ (ميرل دوبينياه ص ٤٠) كما أنه درس أيضا على يد عدد كبير من أساتذة هذه الجامعة الذين اعتبروا من صفوة الاساتذة وافضلهم : امثال يوحنا جرفينستاين (Jean Grevenstein) ثم على يد (Gerard Hecker) وجرار هكر الذى صار فيما بعد راهبا فى دير القديس اغسطينوس وهو نفس الدير الذى اختاره مارتن فيما بعد – وهو واحد من الذين قبلوا الاصلاح فى آخر حياته .

ولقد استطاع الطالب مارتن فى فترة الدراسة الجامعية ان يكون روابط صداقة قوية وعميقة مع بعض زملائه الطلبة . ولقد استمرت بعض هذه الروابط الودية طول حياته . بل أن بعضهم وقف وقفة مشرفة بجانبه للدفاع عنه وعن الاصلاح . ومن بين الذين تعرف عليهم أيضا ، يوحنا لانج (Jeanlange) الذى ظهرت مواهبه الفذة فى اللغة اليونانية ولقد كانا على

صلة مستمرة بالمراسلة الى أن فرق الموت بينهما . كما أن روابط الصداقة جمعته بالطالب جورج بوركاردت (Georges Burckardt) المسمى سبالاتين (Spalatin) والذى أصبح فيما بعد سنداً[٣] قويا له فى صراعه ونضاله ضد البابا والامبراطور والأمراء .

كان منهج الجامعة يحتوى على دراسات للقواعد والمنطق والفلك والهندسة وعلوم ما وراء الطبيعة والموسيقى والتاريخ والفلسفة وكانت فلسفة أرسطو تسيطر على هذه العلوم ، كما كانت تسيطر أيضا على العلوم اللاهوتية الدينية بطريقة ملحوظة[٤] ولهذا السبب كان مارتن مضطراً لأن يدرس فلسفات وتعاليم القرون الوسطى . فاطلع على كتابات أوكام (Occame) وسكوتس وتوما الاكوينى وبونا فنتيرا وعلى كتابات بعض الكتاب الآخرين .

ويعتقد البعض أن مارتن قد رأى الكتاب المقدس لأول مرة فى جامعة أرفورت حيث اطلع على قصة صموئيل وحنة . على أننا نتفق مع بعض العلماء الذين يعتقدون أنه تقابل لأول مرة مع الكتاب المقدس فى مجد بورج اثناء دراساته الثانوية وليس فى أرفورت اثناء دراسته الجامعية[٥] .

وقد بالغ بعض المؤرخين وخاصة البروتستانت فى سرد قصة مقابلة مارتن لوثر مع الكتاب المقدس ومما لا شك منه أن اطلاعه لأول مرة على قصة صموئيل الشاب وحنة ترك فى نفس مارتن تأثيراً عميقاً جداً . لذلك فقد غنى من كل قلبه لو استطاع اقتناء هذا الكتاب العجيب الفريد . وهنا أود أن ألفت نظر القارىء الكريم الى بعض المبالغات التى استخدمت ومازالت تستخدم (عن حسن قصد) فى الكنائس الانجيلية عندما تتعرض لشرح هذه الفكرة الخاصة باكتشاف لوثر للكتاب المقدس . فإن البعض يعتقد أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تمنع وتحرم دراسة الكتاب المقدس للعامة[٦] كما رأى البعض الآخر فى نسختى الكتاب المقدس المربوطتين بسلاسل فى كل من جامعة أرفورت والدير الذى التحق فيه لوثر ، رأوا رمزا على ان الكتاب كان مسلسلا ومقيدا ومغلقا امام الجميع . ومما لا شك فيه ان الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك العصر لم تشجع بأى حال من الأحوال العلمانيين على دراسة الكتاب المقدس ، أو الاطلاع عليه بل احتفظت بحق تفسيره لاكليروسها ، ولكنها لم تحرم الذين كانوا يريدون الاطلاع عيه من ذلك والدليل على ذلك أن الكنيسة لم تصدر أى قرار (بحسب مانعرف) ضد أول طبعة من الكتاب المقدس التى ظهرت باللغة الالمانية فى سنة ١٤٦٦ فى مدينة ستزاسبورج ، أى قبل أن يولد مارتن لوثر نفسه[٧] .

أما فيما يخص الكتاب المقدس المربوط بسلاسل فهذا لا يعنى ان الأطلاع كان ممنوعا بل لكى لا تمتد اليه الايدى غير الأمينة ، خاصة أن الكتب فى ذلك الوقت ، كانت تعتبر كنوزاً نادرة لقلتها . وكانت هذه العادة متبعة فى بعض المكتبات خوفا من ضياع الكتب .

على أى حال فإن مارتن الذى بدأ بالتعرف على الكتاب المقدس فى مدرسة مجد بورج ، استمر فى دراسة هذا الكتاب العجيب الفريد دون أن يهمل دراساته العلمية والفلسفية فقد كان مارتن طالباً ناجحا مجتهداً فى دراساته ، عميقاً فى تفكيره وابحاثه . ولذلك فقد سماه أصدقاؤه بمارتن الفيلسوف (A. Gre 23) . وكان يلتهم الكتب التهاما وخاصة الكتب الدينية على أن موقفه من الدين كان موقفا غريبا مزدوجاً فقد كان مشدوداً الى الدين بقوة غريبة وعجيبة وبميول داخلية عميقة ، كما أنه كان فى الوقت نفسه يخاف كل الخوف ويرتعب كما من الموت . ويصفر وجهه ذعراً عندما كانت تثار مشكلة الدين أو عندما كان يذكر اسم الله أو اسم يسوع . فإن اسم الله واسم يسوع كانا يذكرانه دائماً بغضب الله وقضائه وبالدينونة الاخيرة وعندئذ كان يستولى عليه خوف رهيب لدرجة الموت . إنه لم يستطع ولم يجرأ على أن يقترب من الله العادل القدوس الذى يبالغ فى طلب القداسة والبر من الانسان الخاطىء . لم يستطع أن يقترب من يسوع القدوس الذى صورته الكنيسة كقاض عادل جالس على عرش مرتفع عظيم وقد قبض بيديه على ميزان دقيق لكى يزن أعمال الناس من خير ومن شر لانه هو الذى يدين وسيدين الاحياء والاموات .

ان اختباراته فى مدينة مجد بورج فى الماضى (انظر هذا الكتاب ٣٤ - ٣٦) أثارت فى نفسه تسأولات كثيرة وعديدة فيما يختص بالموت وموقفه منه . لقد لاحقته فكرة الموت اينما حل وسيطرت على شعوره وضميره أينما وجد . والذى زاد الأمر سوءاً أن مارتن قد مر أيضا فى اثناء دراساته فى جامعة ارفورت ببعض الاحداث المؤلمة المحزنة . وكان أولها موت واحد من أصدقائه بمرض خطير ، ثم اغتيال صديق آخر يدعى ألكسيس فى ظروف غامضة . لقد ترك هذان الحادثان فى نفس مارتن تأثيراً عميقاً مما دفعه الى أن يتساءل من جديد قائلاً : ما مصيرى امام الله لو كنت واحداً من هذين الصديقين اللذين طواهما الردى ؟ .. أما الحادث الثانى فقد لمسه بطريقة مباشرة وشخصية . ففى يوم الثلاثاء التالى لعيد القيامة سنة ١٥٠٣ كان فى طريقه مع صديق له الى بيت والديه فى مانسفلد وظهرت فجأة على الطريق امامه حفرة حاول أن يتخطاها ، ولكنه سقط على صخرة وجرح جرحاً عميقاً جداً فى فخذه . وأسرع صديقه للبحث عن أقرب قرية لطلب المساعدة . وبينما كان مارتن مضرجاً فى دمائه رفع صلاة حارة للعذراء مريم ثم جاء الصديق ، وحمل مارتن ورجع به الى أرفورت . وفى نفس الليلة أصيب بنزف فقد فيه كمية كبيرة من الدم . فى هذه اللحظة المخيفة المرعبة رفع مارتن مرة أخرى صلاة حارة الى العذراء مريم لانه كان يفضل أن يصلى لها لانها لم تكن تثير فى نفسه الخوف والرعب اللذين يشعر بهما امام الله أو امام يسوع[8] ولقد قال عن هذه الحادثة « شعرت بانى ساموت متوكئا على مريم » .

فإن كان مارتن قد تأثر بكل الاحداث التى مر بها سابقا والتى تحدثنا عنها وهى : مقابلته

مع الكتاب المقدس ، ورؤيته للامير المتسول ، موت بعض اصدقائه فى ظروف مؤلمة ، وباء الطاعون الذى كان يحصد الناس حصداً .. الخ .. فكل هذه الخطوب القاسية تركت تأثيرها العميق فى نفس مارتن . ولكن على مايبدو فإن حادثة الخنجر كانت أقوى وأشد الاحداث فى تأثيرها على نفس الشاب الجامعى لأنها اخترقت جسده وروحه . ولذلك فإن من المحتمل أن يكون قد اعتبرها نداء مباشراً له من الله[٩] .

أما الحادثة الثالثة فقد وقعت فى ٢ يوليو ١٥٠٥ وهو فى طريقه فى مدينة مانسفلد الى أرفورت بينما كان يعبر غابة ستوترنهايم (Stotternheim) حيث إشتدت الزوابع وقصفت العواصف بشدة . وانتشر البرق والرعد فى جلد السماء الملبدة بالغيوم السوداء . وفى وسط هذا الجو المظلم المخيف وفى وسط الغابة إذا بصاعقة هائلة تقتلع شجرة وتلقى بها عند قدميه ، وعندئذ ارتمى على الأرض وشعر أنه فى لحظاته الأخيرة وأن الموت ليس عنه ببعيد[١٠] وعندئذ صرخ بدون تفكير طالباً النجدة والخلاص من القديسة حنه قائلاً : « ياقديسة حنه إذا انقذتنى سأكون راهباً بقية حياتى »*

ويبدو أن مارتن شعر فى هذه المرة أيضا أن صوت الله كان يدعوه . لقد عاش مارتن طفولته فى جو يسيطر عليه الخوف والاضطراب والقلق : فكان والداه قاسيان فى معاملتهما له وانتشار وباء الطاعون قد زاد خوفه وقلقه واضطرابه من الموت وكذلك أيضا كل الاحداث التى مر بها هذا الشاب الرقيق الاحساس رسمت أمام عينيه صورتين لم يستطع الفرار منهما : صورة الله القاضى المخيف المرعب ، ثم مصيره بعد الموت .

ومع أن مارتن كان أسير هذه الافكار الخاصة بالموت الا انه لم ييأس من الحياة ، ولم تستطع هذه الافكار ان تقوده الى أى نوع من الأمراض النفسية كما إدعى البعض ذلك على غير حق والدليل على ذلك أنه انهى دراسته الثانوية والجامعية بتفوق عظيم[١١] وبعد أن انهى دراسته للحصول على درجة البكالوريوس ، قبلته الجامعة فى احتفال رسمى عظيم مشرف لدراسة الحقوق إذ كان ترتيبه الثانى على سبعة عشر طالباً وقد كلف بالتدريس اثناء دراسته للحقوق .

وهنا تفتح ابواب المجد والعظمة على مصراعيها امام الاستاذ الشاب مارتن لوثر . الابواب التى كان يحلم بها كل طالب متفوق : انها ابواب العظمة والمجد التى كان يحلم بها يوحنا لوثر الذى ذهل واعجب كل الاعجاب بابنه وبصعوده للمجد الاجتماعى ، فقرر فى ذلك اليوم الا يخاطبه فيما بعد « بأنت » ضمير المفرد المخاطب : بل أن يخاطبه قائلا « انتم » علامة على الاحترام والتقدير « وهذا ماكان يحلم به يوحنا لوثر ، انه ابنه يرتقى فى دراسته لكى يحتل مركزاً مرموقاً فى المجتمع . فهل سيحقق الاستاذ الجامعى مارتن لوثر امال ابيه الكبيرة ويواصل صعوده للمجد الاجتماعى فى مدينة مانسفلد ؟؟!!!! .

هوامش الفصل الثانى

(١) أ . موريسون ص ١٨ .

2. A. Greiner. P. 22.
3. D. Hourticq P. 17-18.
4. A. Greiner P. 22.

(٥) دكتور عزت زكى تاريخ المسيحية (حـ٣) : المسيحية فى عصر الاصلاح ، ص ٣٩ ، (ميرل دوينياه ص ٤١) .

6. Sch. P. 89-92, H. Strohl, Luther Jusqu'en 1520, P. 30-32.
7. H. Strohl, P. 31.
8. D. Houtricq, P. 17-18.
9. A. Greiner P. 24.
10. D. Houtricq, P. 18.
11. A. Greiner, P. 22.

★ طلب القديسة حنة لأنها كانت تعتبر شفيعة العمال الذين يعملون فى المناجم فى مانسفلد .

الفصل الثالث

الاستاذ مارتن لوثر يترك الجامعة وينزوى فى الدير

بدأ الأستاذ مارتن لوثر فى القاء محاضراته فى جامعة أرفورت ، وكان فى نفس الوقت يتابع دراسته أيضا فى كلية الحقوق نزولا على رغبة أبيه وتحقيقا لها . ولم تمض على هذه الحالة عدة أسابيع حتى وقعت له حادثة الصاعقة التى كادت أن تقضى على حياته وهو فى طريق عودته من بيت والديه الى أرفورت فى ٢ يوليو ١٥٠٥ .

ورجع مارتن بذاكرته الى الماضى وحاول أن يرى الاخطار التى تعرضت لها حياته وكيف أنقذ منها . ألم يصب بمرض خطير فى سن الرابعة عشره وهو يدرس فى المدرسة الثانوية فى مجد بورج ؟ ألم يعتريه المرض مرة ثانية اثناء دراسته فى أرفورت ؟ ألم تتعرض حياته مرة أخرى للموت عندما سقط على خنجر ؟ ألم تكن حياته مهددة بالوباء الذى انتشر فى المنطقة وراح ضحيته عدد كبير من الناس ؟!! فماذا ينتظر إذن ؟!!! لقد حصل على درجة علمية رفيعة وهو يتمتع باحترام أصدقائه وبمحبة وفخر والديه . لقد كان الناس يشيرون اليه بالبنان . وابواب المجد الأرضي فتحت امامه على مصراعيها . فماذا يريد بعد ذلك ؟ .. كان يريد ويبحث عن الحياة الأبدية ؟ « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (مز ٨ : ٣٦) ولكن كيف يستطيع الانسان ان يربح نفسه ؟ كيف يستطيع الانسان الخاطىء أن ينال الحياة الأبدية ؟ أى أن ينال رضا الله البار العادل القدوس ، ألم يصرخ لوثر نفسه قائلاً : « آه لو كان فى استطاعتى ان أكون رجلا تقيا وارضى الله »[1] ولقد ظن أن افضل طريق لارضاء الله والحصول على بره هو الهروب من العالم والالتجاء للدير وعمل الاماتات ففى الدير سيكون بعيدا عن العالم وشواغله ومشاكله وتجاربه . هنالك سوف يكرس وقته وحياته لله . سوف يقوم بعمل عدد كبير وهائل من أعمال الخير والاماتات التى ستكون كافية لخلاصه وربما لخلاص آخرين وأيضا وهنا يقرر مارتن أن ينطلق الى هذا المكان الهادىء المريح ، لكي يستريح قلبه ويهدأ ضميره . انه يريد الحصول على السماء باعماله وسوف يعمل ويعمل الى أن يحصل على حق الدخول الى السماء . ولكن قبل أن يذهب الى الدير ، وفى ليلة ١٧ يوليو ١٥٠٥ أى بعد حادث العاصفة بأسبوعين دعا جماعة من أصدقائه وزملائه فى


AETHERNA IPSE SVAE MENTIS SIMVLACHRA LVTHERVS
EXPRIMIT AT VVLTVS CERA LVCAE OCCIDVOS
M·D·XX

الدراسة والتدريس لقضاء سهرة ممتعة معا . وأكلوا وشربوا وانشدوا الاناشيد ورنموا وضحكوا ثم تبادلوا الأخبار السارة وغير السارة . وفى نهاية هذه السهرة وقف مارتن لكى يلقى كلمة . وربما توقع البعض أنه سيعلن لهم خبراً ساراً من أخباره ، ولاجل هذه المناسبة قد دعا بعضا من الذين ارتبطوا بروابط المحبة والصداقة لكى يشتركوا معه ويشاركوه فى افراحه وعندما بدأ خطابه قال لهم بلهجة اختلط فيها المزاح بالجد : « الأن أنتم تروننى وغدا سوف لا تروننى ، ولهذا فقد دعوتكم لأودعكم »[٢] فنظروا إليه مندهشين وظن البعض أنه يمزح والبعض الآخر لم يفهم ماذا قصد مارتن بذلك ... وعندئذ قام بتوزيع بعض امتعته القليلة من ملابس وأشياء أخرى وعندئذ فهموا إلا أن الأمر لم يكن بالسهل تصديقه[٣] .

وفى يوم ١٨ يوليو ١٥٠٥ كتب مارتن خطابا لوالديه ليعلن لهما خبر دخوله الدير . وفى نفس اليوم قدم استقالته للجامعة مع الخاتم الذى أعطى له كاستاذ واخيراً انطلق الى دير القديس اغسطينوس للناسكين لينزوى فيه هناك باحثاً عن الطريقة التى يستطيع بها أن يرضى الله وأن يحصل بأعماله وحسناته واماتاته الجسدية على البر فهل استطاع بها أن يحصل على بر الله وهل هدأ ضميره ...

كان وقع خطاب مارتن على أبيه يوحنا كوقع الصاعقة على مارتن فى الغابة . فعندما قرأ يوحنا لوثر الخطاب الذى أرسله له ابنه معلنا فيه خبر دخوله الدير حزن حزنا عميقا جداً ، وكيف لا يحزن ويتألم وهو قد بنى آماله وفخره على نجاح وتقدم مارتن فى دراسته . ففى لحظة واحدة انهار أمام عينيه القصر الفخم الضخم الذى بدأ فى بنائه منذ اثنين وعشرون عاما . ضاعت الآمال يامارتن !! وفى غيظه وغضبه ضد ابنه بدأ يخاطبه من جديد قائلا : « انت » بضمير المفرد بدل « انتم للاحترام » كان يوحنا لوثر ثائراً وغاضبا على ابنه ولم يرد أن يغفر له هذا الخطأ ولكن امام مرض الطاعون الذى طوى اثنين من أولاده فى هذه الفترة وامام الاشاعات التى انتشرت بان يوحنا لوثر نفسه مريض رق قلبه وترأف على ابنه مارتن . فمع أنه لم يغفر له كل المغفرة الا انه كف على الاقل عن مهاجمته .

هوامش الباب الثالث

1. A. Greiner P. 25.
2. D. Hourticq P. 19.
3. Greiner P. 24.

و أ . موريسون ص ٢٤ ، ميرل دوبينياه ص ٤٢ ، ٤٣ .

الفصل الرابع

الاستاذ لوثر يصبح راهباً أوغسطينياً

لماذ دخل مارتن لوثر الدير ؟ حاول المتخصصون فى الدراسات اللوثرية (Les Lutheroques) أن يجدوا جوابا لهذا السؤال . فقدموا نظريات كثيرة ومعقدة . ولتبسيط الأمر سوف لا نتعرض إلا لنظريتين من هذه النظريات .

١ – يعتقد البعض أن قرار لوثر دخول الدير لم يكن ابن يوم وليلة ، بل كان نتيجة تفكير طويل وصلاة مستمرة وعميقة .

ألم يتأثر الشاب مارتن بحياة مدرسة مجد بورج ؟ ألم يترك أيضا الراهب الأمير انطباعات عميقة فى تأثيرها قوية فى فاعليتها على نفس الشاب المرهف الاحساس عندما كان يراه يجول متسولا فى ثياب رثة وجسم نحيل ذلك كله لكى ينال الحياة الأبدية عن طريق الرهبنة ؟ فلم يدخل الدير إذن الا بعد أن فكر تفكيراً جدياً عمقياً .

٢ – النظرية الثانية : يعتقد اصحاب هذه النظرية أن لوثر اتخذ هذا القرار بطريقة فجائية وبدون ترو أو دراسة أو تفكير . ففى اللحظة التى سقطت فيها الشجرة امام قدميه ، وكادت أن تقضى على حياته ، فى هذه اللحظة عينها رأى أن حياته بلا قيمة وفى نفس الوقت رأى أنه معرض للموت فصرخ مدفوعا بهذا التأثير الوقتى قائلا : « ياقديسة حنة إذا انقذتنى ساكون راهبا بقية حياتى » . فإن هذا النذر الذى نطق به مارتن لم يكن نذراً مدروسا بطريقة واعية مدركة بل كان نذراً اضطرارياً فى ظرف يناسب بأى حال من الأحوال اتخاذ هذا القرار الذى كان يجب أن يتخذ فى ظرف هادىء وعلى غير عجلة هذا ما يقوله أصحاب هذه النظرية . ولتأييد فكرتهم هذه يقولون إن لوثر كان مضطراً ، رغما عنه تحت ضغط الخوف من الموت لان ينطق بهذا النذر ولترجع الى كتابات لوثر نفسه للاستنارة بها فى هذه المشكلة ففى كتاب كتبه سنة ١٥٢١ وقد أهداه الى أبيه حاول لوثر أن يشرح فى مقدمته ا لسبب الذى من أجله نطق بهذا النذر فى غابة ستوترنهايم فقال : « اتذكر .. أنى قلت لك أن دعوة مخيفة من السماء قد وجهت إلىّ ، فلم أصر راهبا رغبة منى أو مسرة فى الرهبنة بل دفعت بطريقة لا تقاوم للنطق بهذا النذر »[1]. ويقول مولر (Muller) ان هذا النص يوضح لنا الأسباب الحقيقية

التى من أجلها دخل لوثر الدير « لقد كان مدفوعا بطريقة لا تقاوم »[٢] .

وقد رجع الذين يتمسكون بهذه النظرية الى لوثر والى ماكتبه فى سنة ١٥٣٩ عن حادث الصاعقة حيث قال انه ندم على هذا النذر كما أننا نجد فى خطاب Crotus) Rubiduns) المؤرخ بتاريخ ١٦ اكتوبر سنة ١٥١٩ قول لوثر بان البرق هو الذى قرر مستقبله .

من هذه الشواهد السابقة يعتقد البعض أن لوثر اتخذ هذا القرار تحت تأثير الخوف من الموت الذى أثارته الصاعقة فى نفسه . وبناء على ذلك كان يعتقد أنه مضطر أن يوفى هذا النذر بلا رغبة ولا اقتناع .

فأمانة منه نحو هذا النذر وتمسكا بوعده دخل الدير . والسؤال الذى يجب أن نسأله هنا هو هل كان لوثر فعلا ملتزما بأن ينفذ ما قد وعد به فى ظروف إضطرارية ؟ ان العارفين بالقوانين الكنسية الكاثوليكية يؤكدون لنا بان النذر يصبح فعليا عندما يصرح به علانية وبطريقة رسمية . بل يمكن للناذر أن يتراجع فى نذره اثناء فترة الاختبار[٣] ومن المعروف والمسلم به أن مارتن لوثر لم يكن رجلا أميا جاهلا لا يعرف القوانين الكنسية بل كان رجلا متعلماً ومثقفاً . ولقد مر أولاً بفترة الاختبار بعد دخوله الدير ، وكان يمكن له خلال هذه الفترة أن يتراجع فى قراره هذا لو كان فعلا قد اخذه بطريقة عشوائية وتحت تأثير الخوف فقط .

ونحن نعتقد أن لوثر لم يأخذ هذا القرار بطريقة عشوائية وبدون تفكير . هذا صحيح بأنه نطق بنذر الترهب أمام الصاعقة التى كانت تهدد حياته . ولكن لو كان لوثر لم يفكر قط قبل ذلك فى حياة الترهب ، ولو كان فعلا ندم على نذره الذى نذره تحت تأثير الخوف من الموت ، لكان فى استطاعته قانونياً ان يسحب هذا الوعد الذى وعد به ، لأن فترة الاختبار التى كانت تسبق الاحتفال الرسمى برهبنته خصصت لهذا الأمر .

كان لوثر ابن عصره ، ولقد اعتقد أهل ذلك العصر أن أسلم وأضمن طريقة للحصول على الخلاص هى الترهب . وكان الناس فى القرون الوسطى ينظرون الى الرهبان بكثير من الاحترام والتقدير ، وخاصة الرهبان الذين اختاروا نظماً قاسية للرهبنة . وبما أن لوثر كان يبحث عن الخلاص والهروب من غضب الله فلابد وأنه فكر مراراً فى موضوع الرهبنة قبل حادث الصاعقة ، وهذه الأخيرة لم تكن هى السبب الأول والاساسى الذى دفعه لاتخاذ هذا القرار ، بل كانت العامل الذى ساعده على أن يقرر قراراً لم يستطع حتى الآن أن يخرجه الى حيز الوجود فلقد رأى فى حادث الصاعقة كما لو كان الله يدعوه ، وشعر أيضا أنه مرغم على أن يلبى هذه الدعوة ولاجل هذا يقول فى خطابه لأبيه : « .. إن دعوة مخيفة من السماء قد وجهت الىّ فلم أصر راهباً رغبة منى أو مسرة فيها .. » .

وكما يبدو لى انه أراد أن يقول إنه لم يصر راهبا حبا فى الرهبنة فى حد ذاتها ، بل لأنه شعر بأن الرهبنة تقوده الى ماكان يبحث عنه من فترة طويلة ألا وهو الخلاص . ان لحظة الصاعقة لم تكن هى اللحظة المصيرية كما يقول كروتوس روبيانوس (Crotus Rubianus) بل أن حادث الصاعقة لم يكن الا حلقة فى سلسلة . والدليل على ذلك هو أنه كان فى امكانه – كما سبقت الاشارة الى ذلك – ان يتراجع فى نذره هذا قبل ان ينطق به مرة ثانية عندما صرح به بطريقة رسمية علانية فى سبتمبر ١٥٠٦ ولكننا نرى العكس ، فلقد استمر مارتن مدة طويلة يلتمس رضا أبيه وموافقته على نذره . وحتى ٤ ابريل سنة ١٥٠٧ يوم الاحتفال بسيامته كاهنا حاول مارتن ان يشرح لابيه مزايا الرهبنة حتى ينال موافقته .

وفى فترة الرهبنة كان مارتن راهبا مثاليا ، لأنه كان يبحث عن خلاص نفسه واعتقد ان الطريق الأسلم كان الدير . وملانكتون الذى يعرف لوثر اكثر من أى شخص آخر يقول فيما يخص دخوله للدير ان الدافع الدينى والخوف من الغضب الإلهى هما اللذان قادا لوثر الى الدير لكى يكرس حياته بجملتها للحصول على الخلاص .

واننا نعتقد أن هذا هو الهدف الاساسى الذى دفع لوثر لاتخاذ هذا القرار . لقد أراد أن يتحرر من العالم ومن مشاكله وشواغله . وكان مدفوعا برغبة قوية عميقة فى الحصول على الخلاص . فأين يجد هذا الخلاص ؟ ان المكان المثالى للحصول على هذا الخلاص المنشود والهروب من غضب الله هو الدير . لقد فكر فى هذا الامر مدة طويلة ، وهنا امام الصاعقة استطاع أن ينفذ مافكر فيه طويلا .

كانت مشكلة لوثر مشكلة دينية لازمته لمدة طويلة جداً فى حياته ، ولم يتحرر منها الا بعد أن قاده الروح القدس الى الاختبار العظيم وهو اكتشاف عقيدة التبرير بالايمان . على ان بعض كتاب السير (Biographes) الكاثوليك قد احتجوا فى العصور البائدة واستمر هذا الاحتجاج الى عصر ليس ببعيد على حقيقة أن لوثر كان يمر بأزمة روحية دينية حقيقة . فقد حاول دانيفل (Denifle) عبثا أن يشرح أهم الوثائق التى تتحدث عن أزمة لوثر يرجع تاريخها الى سنة ١٥٣٠ . وبناء على ذلك لا توجد أى أزمة روحية حقيقية فى حياة لوثر ، وبحسب مايعتقد دانيفل أن لوثر قد اخترع قصة بدون أساس ، يهدف منها تشويه سمعة الكنيسة وتبرير عجزه وعدم مقدرته على حياة المثل الرهبانية العليا[٤] .

ولا ينكر جرزار (Grisar) وجود الأزمة بل يعترف بوجود لحظات صراع وحزن وغم فى حياة لوثر . ويرجع كل هذا الى أن لوثر كان يعانى من مرض نفسى يحتاج الى العلاج . وعلى أى حال فان الاغلبية الساحقة من العلماء الكاثوليك المتخصصين فى دراسة لوثر وتعاليمه ، يرفضون حاليا كتابات دانيفل وجرزار[٥]* وسوف نناقش هذا الأمر فيما بعد .

حيـــاته فى الـديـــر :

لقد أخطأ دانيفل خطأً كبيراً عندما قال ان لوثر اخترع هذه الأزمة الروحية لكى يشنع بالكنيسة ولكى يبرر نفسه الفاشلة . فى عدم مقدرته على تحمل الحياة الرهبانية . ومايمكننا أن نقوله رداً على ذلك هو أن لوثر لم يرد قط أن يشنع بالكنيسة بل كان يكن لها كل حب وتقدير واحترام . وكل ماحاول أن يعمله فيما بعد ماهو الا اصلاح هذه الكنيسة التى يحبها . كما أنه لم يكن عاجزاً عن القيام بكل الواجبات المطلوبة من الرهبان ، كما يدعى ذلك دانيفل ، بل كان راهباً مثالياً . لا يقوم فقط بما تتطلبه قوانين ونظم الرهبنة ، بل كان يفعل اكثر من ذلك . الم يكتب فيما بعد قائلا : « لا ريب فى أنى كنت راهبا تقيا ، فعشت حسب قوانين الرهبنة خير حياة فلو كان للراهب ان ينال السماء باعماله الرهبانية لكنت أول نائليها ويشهد بذلك كل من عرفنى من الرهبان ولو طال علىّ ذلك لقتلت به نفسى »[٦] .

ولربما يقول معترض ان الذى كتب هذه السطور هو لوثر نفسه . فهناك شهادة أخرى تؤيد تماما هذا القول : فان فلاسيوس (Flacius) قص قصة حدثت له فى سنة ١٥٤٩ فقد تقابل مع راهب فى سنة ١٩٤٣ ، وكان هذا الراهب مع لوثر فى نفس الدير لمدة ثمانى سنوات . ويشهد هذا الراهب بأن لوثر كان يحافظ على قوانين الدير بدقة شديدة كما أنه كان يحيا حياة التقوى ممارسا أعماله باجتهاد[٧] والجدير بالذكر أن هذا الراهب لم ينضم ابد للاصلاح . وهذا مايعطى لهذه الشهادة قوتها .

وقد كان لوثر راهبا تقيا ، بدافع التقوى ورغبة فى الحصول على السماء وعلى بر الله باعماله المحسنة ، اختار ديراً قاسيا فى نظامه ، وهو دير الاغسطينيين فى مدينة أرفورت . ولقد كانت قوانين هذا الدير شديدة صارمة جداً ومنها :

الصلاة سبع مرات يومياً ، والاستيقاظ فى الساعة الواحدة صباحاً فعندما كان يقرع الجرس الأول كان على الراهب أن يرسم علامة الصليب ويستعد لارتداد ثيابه ، وعند سماعه صوت الجرس الثاني كان عليه ان يترك قلايته مسرعا الى الكنيسة ثم يسجد امام الهيكل ويصلى صلاة تعبدية للمخلص ، الى أن يحضر الجميع وعندئذ كانوا يصلون معا لمدة حوالى ٤٠ دقيقة . كان على الرهبان أيضا ألا يتناولوا الا وجبة واحدة فى الساعة الثانية بعد الظهر . لمدة تصل الى نصف ايام السنة . وفى هذه الفترة كانوا لا يأكلون لحما ولا زبدة ولا جبنا ولا بيضا . كانت قلايات الشباب بدون تدفئة فى الشتاء وكما يقول ستروهل « كان السهر والصيام والبرد حقائق تاريخية وليست اساطير وقد مارسها فعلا الرهبان » . وبالرغم من الصيام والسهر والاشغال اليدوية الأخرى ، التى كان على كل راهب مبتدىء أن يقوم بها . فقد كلف كل راهب بان يقوم بجولات تسولية فى المدينة . وكان الغرض من هذا التسول أولا : أن يتعود الراهب على التواضع والطاعة . ثانياً : لكى يمد الدير بالاشياء التى يحتاج اليها . ولقد اعتقد البعض أن

هذه العملية كانت اهانة لشاب مثقف أو جامعي ، ولهذا السبب طلبت الجامعة من الدير اعفاء لوثر من هذه المهمة[١٠] وفى حقيقة الأمر كان هذا القانون يطبق على جميع الذين التحقوا جامعيين كانوا أو أميين ، ألم يطبق هذا القانون على الأمير الانهالت ؟ (انظر هذا الكتاب ص ٣٥) ولوثر نفسه قال بطريقة تخلو تماما من لوم رئاسة الدير : أن اخوة الدير لا يقبلون الاستثناءات لاى شخص جديد أى كان[١١] . أما فيما يخص موضوع تدخل رئيس الجامعة فليس لكى يعفوا مارتن من أى عمل من هذه الأعمال ، بل لكى يسمح له بأن يواصل دراساته وتدريسه وكان قانون الدير يسمح بذلك .

ومن الواضح أن لوثر لم يتذمر أو يتبرم من كثرة العمل أو دناءته ، ولا من السهر والصيام والصلاة إذ أن هدفه من دخوله الدير كان ا لحصول على رضا الله . وكان يريد أن يخلص نفسه من الهلاك الأبدى ومن غضب الله . فكيف يمكنه إذن — حسب ما اعتقد آنذاك — أن يحصل على الخلاص الا بالسهر والصلاة والصوم وتعذيب الجسد واستعباده ؟!!! .

اعتقد لوثر كما كان يعتقد الكثيرون فى هذه الفترة أن الخلاص أو ارضاء الله أمر متوقف على مايقوم به الانسان من اعمال صالحة وصوم وصلاة وعمل اماتات الجسد . فعن طريق هذه الاعمال يمنح الله نعمته ولهذا السبب لم يكف جهداً عن القيام بهذه الأعمال ، كما أنه كان يقوم بأعمال وضيعة من غسل وكنس ورش وتسول فى المدينة . لقد كان يقوم بما كلف به وما لم يكلف به من هذه الاعمال الوضيعة الشأن وكان يصلى ايضا اوقات وساعات طويلة ، ألم يقض عدة أيام فى صومعته وهو يصلى حتى فقد الوعى تماما واضطر الاخوة أن يكسروا الباب لكى يقوموا بالاجراءات اللازمة لانعاشه ؟!!!! ويقول هو نفسه « كانت حياتى عبارة عن صوم وسهر وصلاة وعرق ، فقد كدت أن اقتل نفسى بالسهر وبالدراسة وبالصلاة وبالاعمال الكثيرة الاخرى »[١٣] كان يريد أن يجمع ما أمكنه من الاستحقاقات والاعمال الصالحة . ولذلك قال : « لقد رأى الاخرون فى حياتى مظهراً عظيماً للقداسة على انها لم تكن واضحة فى عينى فقد كنت محطماً وحزينا »[١٤] ورغم الاماتات والتضحيات والاعمال الصالحة التى كان يقوم بها لوثر لم يكن على يقين من خلاصه ، وهذا هو السبب وراء شعوره بالحزن . كان يشعر دائماً أن الله فى ثورة ضده . وهذا ماقاله له ستوبيتر معارضاً أنه ثائراً ضد الله .

لقد مضى الآن أكثر من عام على لوثر فى الدير وهكذا اجتاز فترة الاختبار . ولا لوم ولا « غبار » عليه . وجاء اليوم الموعود الذى فيه استطاع مارتن لوثر أن يصرح بحرية تامة وبدون أى ضغط خارجى أو داخلى بنذره للرهبنة . فبدون تردد ولكى يواصل العمل فى الحصول على خلاصه بنفسه ، أعلن مارتن لوثر فى سبتمبر ١٥٠٦ نذره النهائى للرهبنة ودعى باسم الراهب اغسطينوس[١٥] .

سيامته كاهنا

بعد أن صرح الاخ مارتن أغسطينوس بنذره لحياة الرهبنة فى سبتمبر ١٥٠٦ قرر الدير سيامته كاهنا فى الرابع من ا بريل سنة ١٥٠٧ فى كاتدرائية أرفورت . وفى يوم ٢ مايو من نفس السنة أقام الدير حفلاً عظيماً بمناسبة أول قداس يقوم به الكاهن لوثر . ولقد اجتاز فى هذا اليوم ا ختباراً مريراً قاسياً فقد قال : « عندما قمت بخدمة أول قداس لى شعرت أنى على حافة الموت »(١٦) . والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هنا هو : لماذا وصل لوثر الى هذه الحالة يوم قيامه بأول قداس له ؟ لماذا هذا الخوف والاضطراب والانزعاج ، لدرجة أن رئيسه الذى كان واقفا بجانبه اضطر أن يسنده ؟

لقد أصبح مارتن الآن كاهنا : أى الشخص الذى يقوم بعمل معجزة تحول الخبز والخمر الى جسد الرب . هذه المعجزة التى لا يستطيع أى علمانى مهما كانت درجته أو مكانته أو عظمته فى الدنيا . إن يعملها أن الله بجلاله وعظمته سيكون بين يديه بعد فترة قليلة عندما ينطق بالكلمات الجوهرية . قائلاً هذا هو جسدى وهذا هو دمى . سوف يختفى هذا الخبز الذى يمسكه الآن بين يديه كذلك الخمر أيضا ويحل محلهما كلية وجزئية المسيح* فهل يمكن لى أنا الانسان الخاطىء أن أمسك بين يدى الله البار القدوس الذى أضطرب اضطراباً عظيماً من الوجود فى حضرته ؟!!!

هذا هو السبب الذى جعل مارتن يضطرب ويخاف وينزعج فى نفسه بل شعر أن قواه تدهورت وأن ساقيه لا تقويان على حمل جسده . كان هذا الاختبار بالنسبة للكاهن الجديد قاسيا ومريراً . على أى حال انتهى القداس وجاء المدعوون ليقدموا تهانئهم المعتادة للكاهن الجديد . وكان عليه أن يلقى كلمة فى حفل الطعام . وفى هذه الكلمة وصف الحياة الرهبانية بانها « الحياة السعيدة الإلهية » هل كان يقصد بذلك النتيجة التى تؤدى اليها حياة الرهبنة ؟... وفى هذه الحفلة رفع أبوه يوحنا لوثر بالقول : « هل من العدل أن يمدحوا هكذا رجلا لم يقم أى وزن لارادة أبيه مكسراً وصية من أقدس وصايا الله ؟ » كان يقصد الوصية الرابعة الخاصة باكرام الوالدين – فعلى أى حال إن دلت هذه الكلمات على شىء تدل على أن يوحنا لوثر لم يكن حتى الآن راضياً كل الرضا عن ابنه(١٧) . انتهى الحفل ورجع كل واحد الى أعماله ، كذلك مارتن الى قلايته وابتدأ من جديد دراساته وتأملاته وصراعه . كان مارتن فى صراع مستمر لأنه كان يرى الله دائماً كما لو كان قاضيا مخيفا ويسوع المسيح ديانا للاحياء والأموات .

لقد اعتقد البعض أن الخطية هى السبب الأول والدائم الذى كان يثير الخوف والرعب والاضطراب فى نفسية لوثر ومما لا شك فيه أن الخطية كانت سببا من أسباب اضطراب لوثر ، على أنها لم تكن السبب الأول والاساسى ، لأن السبب الأول والاساسى فى اضطراب

وخوف لوثر كان مفهومه الخاطىء عن شخص الله . فقد تصور الله قاضيا مرعبا مخيفا كما تصور يسوع المسيح ديانا مهيبا ولم يحاول أن يرى الله كأب محب ولم يحاول ان يرى يسوع المسيح مصلوبا على الصليب بدافع الحب ، لكنه كان يرى دائماً يسوع المسيح الجالس على العرش ليدين الأحياء والأموات ، فهو الذى يأمر بأن يلقى الأشرار فى العذاب الأبدى . فحسب مفهومه هذا يكون يسوع قد جاء لكى يهلك لا لكى يخلص الهالكين .

شعاع من نور فى ليل حالك الظلام

مقابلة الشاب لوثر مع ستوبيز (Staupitz)

لقد هرب لوثر من العالم والقى بنفسه فى أحضان الدير ، ظانا أنه سيجد داخل جدرانه الشامخة المرتفعة وفى الصلوات التى يرفعها الرهبان ليل نهار سيجد الملجأ والسلام اللذين يبحث عنهما . ولقد مرت الأيام والشهور ، بل سنتان ، ومازال فى شكوكه وصراعه وخوفه من الله القاضى الذى يعاقب الخطاة ويطاردهم أينما وجدوا .

وفى أحد الأيام أصيب مارتن بمرض خطير وأشرف على الموت . وعندئذ بدأت اضطراباته من جديد أمام مشكلة الموت والخوف من الله تثار من جديد وجاء إليه راهب شيخ وتحدث معه طويلا . ولقد وثق الراهب الشاب فيه واطمأن اليه . فقص عليه بعضا من مشاكله الروحية ، ومخاوفه من عقاب الله الديان العادل . وعندئذ ذكر الراهب الشيخ راهبنا الشاب بما يقول قانون الايمان « أؤمن بغفران الخطايا » ثم أردف قائلا أنا أومن بمغفرة الخطايا[١٨] كان لهذه الكلمات البسيطة التى كان يرددها لوثر كل يوم فى قانون الايمان وقعاً جديداً وتأثيراً عميقا جدا فى نفسه وهكذا بدأ يفكر أن الله لا يدين فقط بل يغفر الخطايا أيضا .

ولانعلم بالضبط من الناحية التاريخية فيما إذا كانت مقابلة هذا الراهب الشيخ مع لوثر تمت قبل أو بعد أول مقابلة له مع النائب العام للاديرة الاغسطينية فى المانيا . ولكننا نعلم أن ستوبيتز لعب دورا هاماً فى حياة لوثر .

كان ستوبيتز نائبا عاما لكل الأديرة الاغسطينية فى المانيا . ولقد تميز بنبل أخلاقه ودقة سلوكه وسمو حياته الروحية والتواضع وكان مثاليا فى حياته ووداعته ومحبته . وبما أنه كان مسئولاً عن كل الاديرة الاغسطينية فى المانيا فقد كان كثير الترحال . ومن المحتمل أن يكون قد تقابل مع الراهب الاغسطينى (مارتن) لأول مرة فى أرفورت أو فيتمبرج (Wittemberg) وربما فى سنة ١٥٠٧ أو ١٥٠٨ لكن الأهم من هذا كله هو المقابلة التى حدثت بين هذين الرجلين : بين رجل تقى عميق الايمان مستنير ، ومطلع ليس فقط على اقوال الاباء ، وخاصة كتابات القديس أغسطينوس بل على الكتب المقدسة أيضاً . وشاب

قلق مضطرب يبحث بجد وامانة عن طريق الخلاص وهنا يتقابل هذا الشاب المضطرب الخائف من الله مع هذا الرجل الواثق من الله والمحب له .

وبدون شك فإن الرئيس العام يوحنا ستوبيتز شجع هذا الشاب الراهب على أن يفضى اليه باسراره وان يعترف بخطاياه وان يشاركه همومه ومشاكله الروحية . ومما لا شك فيه أيضا أن لوثر انتهز هذه الفرصة فرصة القلب المفتوح لكى يعترف له بكل شيء . يعترف له بشكوكه واضطراباته وخوفه من الله . وتوجد بعض الوثائق التى سجلت لنا بعض من المناقشات والمحادثات والرسائل التى تمت بين لوثر وستوبيتز وبين لوثر وآخرين . فما هى المشاكل التى كانت تقلق لوثر والتى حاول ستوبيتز مساعدته فى حلها ؟

١ - مشكلة الخوف من الله ومن الخطية :

من المشاكل التى ناقشها لوثر مع ستوبيتز (Staupitz) مشكلة الخوف من الله ، ثم الخوف من ارتكابه خطية مميتة . ولابد أن ستوبيتز فى شرحه للوثر جروح المسيح قد ابرز له موضوع محبة الله . « الله محبة » فلا خوف فى المحبة بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى الخارج (١ يو ٤ ، ٨ ، ١٩) فإذا كنا ننظر الى الله كأب محب لانجد مكاناً للخوف . وفى أحد الأيام لاحظ المرشد وجه لوثر عابسا فسأله عن سبب عبوسه وكان الجواب هو خوفه من الخطية وغضب الله . فقال له ليس الله هو الغاضب عليك أو الثائر ضدك بل أنت الغاضب والثائر ضد الله[١٩] ثم قال له ستوبيتز انى مرة أخرى « لقد تعاهدت مع الله أكثر من الف مرة بان اكون قديسا وحنثت بوعدى ولم استطع ، فإن لم يرحمنى الله فى المسيح فانى هالك »[٢٠] .

٢ - مشكلة الاختيار (Predestination) :

ومن المشاكل الأخرى التى سببت للوثر القلق والاضطراب مشكلة الاختيار . فكان يتساءل، عمن يضمن له أنه واحد من المختارين ؟ وهل الله هو الذى يختار الانسان أم الانسان هو الذى يختار الله ؟ فإن كان الاختيار مبنيا على الاعمال الصالحة والاماتات ، فهل أعمالى الصالحة واماتاتى كافية بأن تجعلنى واحداً من المختارين ؟ وان كان الاختيار متوقفا على قصد الله وحده فهل أنا واحد من هؤلاء الذين سبق الله فعينهم للحياة الأبدية ؟ (رو ٩) وكيف يمكننى أن اعرف ذلك ؟ وهل استطاع مرشد لوثر الروحى ان يطمئن قلبه المضطرب وروحه المنزعجة . فلقد كتب لوثر خطابا فى سنة ١٥٤٢ الى كونت مانسفلد الذى كان يمر بنفس المشكلة ، وقال فى خطابه انه شديد الأسف لسبب اضطرابه وقلقه امام مشكلة الاختيار . ثم أردف قائلاً : « لقد كنت أنا أيضا غارقا فى هذه الافكار . ولو لم ينتشلنى الدكتور ستوبيتز أو بالحرى لو لم يستخدم الله الدكتور ستوبيتز لانتشالى لفقدت حياتى وصرت من مدة طويلة فى الجحيم »[٢١] .



من هذا النص يمكننا أن نرى أن لوثر كان مشغولا وقلقا على مستقبله الأبدى . كما يتضح أيضا أن مرشده الروحى استطاع أن يدخل السلام الى قلبه ، ولو جزئياً . يقول لوثر إنه تحدث ذات يوم مع ستوبيتز عن مشكلة الاختيار التى كانت تقلقه ، فقال له أن جروح المسيح هى التى تقدم للعالم المعنى الحقيقى للاختيار لاشىء آخر ثم قال له أيضا ، ان الذين يريدون أن يناقشوا مشكلة الاختيار عليهم أن يثبتوا أنظارهم على جروح المسيح فإن الله بذل ابنه لكى يتألم بدل الخطاة[٢٣] ومن يؤمن بهذا فهو فى الطريق المستقيم . كان ستوبيتز عميقا فى الروحيات وفى الفكر أيضا . فقد فتح عينى الراهب الشاب على حقيقة أن الله ليس هو القاضى المخيف الذى يطارد الانسان ، بل بالعكس هو الآب المحب ومحبته لا حدود لها فهل يمكن للوثر أن يخاف من هذا الإله ؟!!!

لقد لعب رئيس أديرة الاغسطينيين دوراً هاماً جداً فى حياة لوثر ، وهذا الأخير لم ينس فضله ففى خطاب قد كتبه فى سنة ١٥٤٥ يدعو فيه ستوبيتز « أباه » بين لوثر كيف أنه مدين له بالعقيدة الانجيلية وبميلاده الثانى فى المسيح[٢٤] كما أنه مدين له أيضا بنور الانجيل الذى انار حياته .. وفى خطاب آخر كتبه الى أبيه الروحى يذكره بحديث بينهما على المائدة بخصوص موضوع التوبة فقال : « ان الكلمات التى قلتها لى بدت لى كما لو كانت آتية من السماء ، وعندما قلت ان التوبة الحقيقية تبدأ بمحبة البر ومحبة الله » .

لقد كان تأثير ستوبيتز على لوثر عميقاً . فقد كانت زياراته لهذا الشاب الراهب ومناقشاته معه عبارة عن شعاع من نور فى ليل حالك الظلام فأنار طريقه وهدى خطواته فقد استطاع هذا الرجل بنعمة الله وبصلاته الحارة وبمحبته العميقة وبمعرفته للكتاب المقدس استطاع ان يقود هذا الشاب الى الحق الإلهى ولو جزئياً ! فإن كان لوثر يدعى أبا للاصلاح الالمانى ، فإن ستوبيتز كان الاب الروحى للوثر .

هوامش الفصل الرابع

1. H. Strohl, Luther Jusqu'en 1520 P. 37.
2. A.V. Muller Cite' Par Strohl, P. 37.
3. H. Grisar S J, Luther 3 Vol, Fribourg 1911. P. 12.
4. H. Strohl. Savie ... P. 39.
5. R. Stauffer, Le Catholicisme à la d'čouverte de Luther, Delachaux & Niestle, P.P. 11-24.

★ Denife كاتب لاهوتى كاثوليكى دومنيكانى كتب أربعة مجلدات سنة ١٩٠٤ تحتوى على هجوم عنيف ضد المصلح بعنوان « لوثر واللوثرية » وترجمت هذه الكتب الى الفرنسية فى سنة ١٩١٠ - ١٩١٣ ولقد اشتهر هذا الكاتب فى العالم كله بكتاباته عن القرون الوسطى . أما الاستاذ جرزار (كرزار) فهو كاثوليكى أيضاً ، استاذ ، كاهن يسوعى كتب ثلاثة مجلدات حولى فى ٢٦٠٠ صفحة تحت عنوان لوثر . لم يستعمل نفس الاسلوب القاسى الذى استعمله دانفيل فى هجومه ، غير أن أسلوبه المعسول كان يخفى سما أشد فتكا من الاسلوب الجاف القاسى الذى استخدمه دانيفل .

6. R. H. Bainton. P. 34, H. Strohl. Savie P. 36, Greiner. P. 29. دوبينياه ٥ ، ص ٤٦
7. Grisar. 3. Vol. P. 692.
8. R. Baintoh P. 27-28.
9. H. Strohl, P. 45-46.

١٠ - د . عزت زكى ، ص ٤١

11. Strohl, P. 46.
13. Greiner P. 25.
14. ....
15. D. Hourticq. P. 21-22.
16. A. Greiner P. 28-30.

★ وهو اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية فى عقيدة الافخارستيا وسوف نرجع الى هذا الموضوع فى الحديث عن مفهوم لوثر والكنيسة الكاثوليكية فى الافخارستيا .

17. D. Hourticq P. 22-23.

١٨ - ميرل دوبينياه ص ٤٩ - ٥٢

19. Greiner, P. 37.

20. Luther. Comm. Gal (1531), D. Hourticq 23. ميرل دوبينياه ض ٤٨

21. WBR 9,3716, P. 627, 1.215.

22. .... TI 2, 1940.

23. W. TI 2, 1820 (D 262)

24. Kostlin 1,71.

الفصل الخامس

عودة لوثر للتدريس

كان ستوبيتز (Stauptiz) عميداً لكلية اللاهوت فى فيتمبرج[1] وعندما قابل ستوبيتز الراهب لوثر رأى فيه الشخص القلق المضطرب لكنه وجد فيه ذكاءاً ملحوظاً ، وتقوى صادقة بلا رياء وجدية فى العمل ورغبة فى البحث والدراسة . كما شعر بما يجول فى خاطره من مشاكل روحية .

ويبدو أن ستوبيتز وضع فى قلبه أن يساعد هذا الراهب الشاب لكنه كان يفكر فى الطريقة المناسبة لمساعدته سيما وانه لا يسكن معه فى نفس المدينة كما أنه كان كثير التنقل وأخيراً وجد هذا الرجل طريقة لمساعدته . فقد فكر أن يخرج هذا الشاب من الوسط الذى كان يعيش فيه وأن يحضره الى جامعة فيتمبرج .

ويعتقد البعض أن ارسال لوثر الى فيتمبرج تم بناء على قرار اتخذته جمعيته وكان لستوبيتز دور كبير فى هذا القرار الذى صدر بعد اجتماع فى ميونخ فى ١٨ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥٠٨ .

وفى خريف سنة ١٥٠٨ ترك الراهب اغسطينوس وستة من اخوة الدير أرفورت وانطلقوا الى المدينة الجامعية الصغيرة فى فيتمبرج وأقاموا فى دير القديس اغسطينوس . وقد كلف لوثر بالقاء محاضرات فى الجامعة عن فلسفة أرسطو .[2] وفى الوقت نفسه كان يتابع دراساته فى كلية اللاهوت[3] .

وبعد انتهاء العام الدراسى وبعد أن تقدم أيضا لبعض الامتحانات فى فيتمبرج للحصول على درجة البكالوريس فى العلوم اللاهوتية ، طلب منه أن يرجع الى أرفورت . رجع فعلا الى هذه المدينة قبل أن ينهى الامتحانات التى بدأها فى فيتمبرج واضطر أن يتقدم من جديد لاجتياز الامتحانات التى كانت تجريها كلية أرفورت إذ انها كانت لا تقبل بسهولة الدرجة التى كانت تمنحها جامعة فيتمبرج[4] .

نجح لوثر فى كل هذه الامتحانات وعين أستاذاً فى هذه الكلية التى درس فيها لمدة قصيرة جداً قبل دخوله الدير فى سنة ١٥٠٥ . وهكذا بدأ لوثر من جديد التدريس فى جامعة أرفورت فى سنة ١٥٠٩ وسنة ١٥١٠[5] .

كانت الفترة التى قضاها الأستاذ الطالب مارتن لوثر فى التدريس والدرس فى جامعة فيتمبرج فترة عظيمة جداً ، فقد استطاع خلالها أن يغير الجو الذى كان يعيش فيه وأن يجد له نخبة جديدة من الأخوة والاصدقاء . كما أنه استطاع ايضا أن يدرس فى كلية اللاهوت . وبالرغم من هذا كله كانت المشاكل الخاصة بموضوع خلاصه الأبدى والخوف من الله القاضى القاسى ترافقه فى كل مكان . ان هذه الفترة تعتبر من أهم الفترات فى حياة لوثر إذ اشتد فيها القلق الروحى .

ولم تبدأ صداقته القوية العميقة مع رئيس الاديرة غالبا الا بعد سنة ١٥١١ . وحتى هذا الرجل لم يستطع أن يحل الا جزءاً من مشاكله .

لوثر فى رومـــا :

فى اثناء هذا الصراع النفسى العنيف ، وبينما كان لوثر يجتاز فترة البحث عن طريقة يستطيع أن يهدأ بها غضب الله القاضى القاسى ، لاحت له الفرصة الذهبية فجأة بحسب اعتقاده . فقد كانت توجد بعض الخلافات بين الأديرة الأغسطينية فى المانيا فيما يخص موضوع تجمع هذه الاديرة فى جمعية واحدة . ولقد ذهب ستوبيتز نفسه عدة مرات الى روما لمقابلة الرئيس العام لعرض هذه القضية عليه . لكن المشكلة لم تحل واختار دير أرفورت لوثر لكى يذهب للدفاع عن هذه القضية لدى الرئيس العام لجماعة الاغسطينيين وليس لدى البابا*(٦) .

وعندما سمع لوثر بأن الاختيار قد وقع عليه للذهاب الى روما للدفاع عن هذه القضية . فاض قلبه بالفرح وامتلأت نفسه بالسعادة والاطمئنان . وكيف لا يشعر بالسعادة والفرح لذهابه الى روما !! المدينة التى يقيم فيها البابا نفسه وكيل المسيح على الأرض وخليفة الرسول بطرس . المدينة التى استشهد فيها بطرس وبولس . روما التى شاهدت صراع ونضال المسيحيين الأولين الأبطال ، الذين استطاعوا ان يحصلوا على خلاص أرواحهم من العذاب الأبدى بصبرهم وعذابهم وآلامهم وتضحياتهم حتى الموت . روما التى أمتلأت بالكنائس وبذخائر** القديسين وعن طريق زيارة بعض هذه الكنائس وبعض ذخائر القديسين يستطيع الانسان التائب أن يحصل على غفرانات كثيرة ولسنين عديدة . أليس هذا ماكان يبحث عنه من سنين عديدة ؟ ألم يكن هذا ما تتوق اليه نفسه من مدة طويلة ؟ بل ألم يدخل الدير لأجل هذا السبب عينه ؟

نعم كانت هذه الفرصة من السماء ، لأنها فتحت عينى لوثر فيما بعد ، وبعد عدة سنوات على حقيقة عظيمة .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يزور فيها روما ، (اورشليم المقدسة) غادر لوثر أرفورت مع صديقه الذى أرسل معه فى هذه المهمة فى خريف سنة ١٥١٠ كانت الرحلة طويلة مرهقة : فقد استغرقت مايقرب من ٣٥ يوما ذهابا ومثلها للعودة كما مكثا شهراً فى روما وكانا يسيران بسرعة ٤٠ كيلو متر تقريبا فى اليوم[٧] .

مما لاشك فيه بان لوثر قد أهتم بموضوع الدفاع عن القضية التى حضر من أجلها وهى موضوع النزاع الخاص بالاديرة الاغسطينية ، ولم يوفق فى هذا الأمر . وبقيت القضية معلقة . على أن الذى كان يهم لوثر اكثر من ذلك والذى كان يشغل باله نهاراً وليلاً ويثقل قلبه ، هو موضوع خلاصه ولهذا فقد بدأ حال وصوله الى روما يطوف شوارعها ويزور كنائسها ويسجد طويلا مصليا ومتعبداً امام هياكلها . فلقد عزم أن يعترف اعترافا شاملا كاملا لكى يحصل على اكبر عدد من النعم التى وعد بها الله عن طريق ذخائر القديسين الموجودة فى تلك المدينة . هذا ماكان ينتظره لوثر من المدينة المقدسة . ولكنه بدأ يتعثر لا بل يتأثر شديداً جدا عندما رأى حالة الرهبان الذين نزل عليهم ضيفا وحالة الكنائس والاكليروس عامة . كان بعضهم يعيش عيشة البذخ والرفاهية ، كأمراء وحكام لا خدام معلمين ومبشرين وخادمين .[٨] .

وبالرغم من هذا فقد واصل بجد واجتهاد زياراته للكنائس والمقابر والأمكنة المقدسة التى يمتع من يزورها تائبا بالغفران . فقد كان ينتهز هذه الفرصة القصيرة لكى يحصل على اكبر عدد من الغفرانات .

وفى يوم من الأيام وجد نفسه أمام كنيسة القديس يوحنا . وعندما دخل تلك الكنيسة الصغيرة شعر بالأسى إذ كانت امه ما زالت على قيد الحياة . فمن المتعارف عليه انه إذا اقام كاهن قداسا مساء الاحد فى هذه الكنيسة فان روح أم الكاهن الذى يقيم القداس تخرج من المطهر ولاجل هذا السبب فإنه تأسف شديداً لأنه لم يستطع ان ينتهز هذه الفرصة لخلاص امه من المطهر[٩] . ولقد راودته نفس الفكرة عندما عرف بأن صعوده على السلم المقدس يمكن أن يخلص والديه من المطهر . وبما أنه كان يريد أن يحصل على اكبر عدد من الغفرانات الممكنة له وللعائلة . وبما أن والديه كانا على قيد الحياة ولا فائدة من عمل هذه التضحية التى لا تفيدهما فقد قام بصعود السلم المقدس لكى يخلص جده الذى كان يحبه كثير من المطهر .

لكن ماهذا السلم المقدس ؟ (Scala Santa)[١٠] كان أمام كنيسة روما سلم مكون من ثمان وعشرين درجة يقال ان المسيح صعد عليه للمثول أمام بيلاطس عند محاكمته . وكان المعروف أن من يصعد هذا السلم على ركبتيه مصليا على كل درجة الصلاة الربانية يحصل على غفران خطايا الشخص الذى يهمه فى المطهر . وعندما وصل لوثر الى آخر درجة ناجى جده

قائلاً : « هل خرجت الآن من المطهر أيها الجد العزيز ؟ وهل أنت سعيد الآن ؟ » وبعد هذه المناجاة شعر بسؤال يدور فى ذهنه وهو : هل خرج جدى فعلا من المطهر ؟ وهل هذا صحيح ؟ من يدرى ؟ ولقد تضاربت الآراء حول هذه القصة الخاصة بصعود لوثر على هذا السلم .

فقد اعتقد البعض ان لوثر سمع وهو يصعد هذا السلم صوتا يقول له : « اما البار فبالايمان يحيا » فانسحب من بين الزاحفين ، (دكتور عزت زكى) ص ٤٤ ثم أ . موريسون ترجمة القس باقى صدقة ص ٣١ ، (Bainton) ص ٣٨ على أن بعض العلماء يرى بأن لوثر لم يكتشف حقيقة البر بالايمان التى تكلم عنها الرسول بولس (رو ١ : ١٦ ، ١٦) مقتبسا اياها من سفر حبقوق ٢ : ٤ عند صعوده على هذا السلم بل أن هذه القصة ماهى الا اسطورة من الأساطير التى أضافها التقليد البروتستانتى (Strohl 86) ويقول هؤلاء العلماء بأن الذين يعتقدون بأن لوثر قد اكتشف عقيدة التبرير بالايمان عند صعوده هذا السلم يرجعون الى قصة قد كتبها بولس لوثر – ابن لوثر وهو طبيب – ويقول بانه سمع هذه القصة من فم أبيه وهو فى سن الحادية عشرة من عمره* على أن العالم (Kostlin) لايشك فى صحة هذه الرواية الا أنه يرى بأن البعض بالغ كثيراً فى استعمالها . أما (Buchwald) فقد اكتشف فى مكتبه زويكاو (Zwickav) مخطوطة تحل لنا هذه المشكلة ففى عظة القاها لوثر فى يوم ١٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٥٤٥ قال فيها « لقد أردت وانا فى روما أن أخلص جدى من المطهر وصعدت سلم بيلاطس وكنت أتلو على كل درجة الصلاة الربانية . لانه قيل بان الذى يفعل هكذا يستطيع ان يخلص نفسا . ولكن عند وصوله الى النهاية تساءلت : من يعرف إذا كان هذا الامر حقيقة » ؟

ويحتمل أن ابن لوثر – بولس – الذى سمع هذه القصة وهو فى سن الحادية عشر من عمره حاول ربطها بعبارات أخرى لابيه كان قد شرح بها اهمية رسالة رومية بالنسبة له بعد عودته من مدينة روما .

ونحن نعتقد أن لوثر لم يكتشف عقيدة التبرير بالايمان الا بعد عدة سنوات من زيارته لروما ويحتمل بأن فكرة التبرير بالايمان لمعت أمامه وهو يصعد هذا السلم الامر مع أن هذا غير مؤكد كما أن موضوع التبرير بالايمان لم يظهر فى تعاليمه قبل سنة ١٥١٣ . وهذا واضح من هذه الناحية . لأن لوثر ذهب الى روما سنة ١٥١٠ وبعد أن رجع بدأ التدريس فى فيمتبرج سنة ١٥١١ ولم تتغير عقيدته ولم تتحسن حالته فى صراعه وشكوكه فيما يخص مفهومه عن الله القاضى القاسى . لقد ذهب الى روما يملؤه الأمل فى الحصول على السلام الداخلى ولكنه رجع منها مثقلا وحزينا وبائسا ولهذا فقد بدأ من جديد الصراع فى الحصول على الخلاص وعلى ارضاء الله القاضى ...

وعندما رجع من روما أرسل اليه ستوبيتز يطلب منه بان يعد نفسه للتدريس إذ انه يريد بأن يحل محله فى تدريس الكتاب المقدس . لكن لوثر رفض هذا العرض رفضا باتا بدون تصنع أو تواضع ظاهرى ولكن ستوبيتز عرفه بان هذا أمر وبما أنه راهب يجب عليه ان يطيع أوامر رئيسه وتحت هذا الضغط قبل لوثر هذا المركز . ولقد وصل الى فيتمبرج فى صيف ١٥١١ واقترح ستوبيتز ان يعين لوثر نائبا لرئيس دير الاغسطينيين فعلا نائبا للرئيس ، وفى ٤ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥١٢ تقدم للامتحان حتى يسمح له بالتدريس فى الجامعة بدرجة استاذ كرسى ، وفى ١٩ اكتوبر (تشرين الأول) من نفس السنة حصل على دكتوراه فى العلوم اللاهوتية ، وهكذا صار لوثر استاذا وواعظا فى جامعة ودير فيتمبرج ولكنه ظل يبحث عن الخلاص وكيفية ارضاء الله ...

هوامش الفصل الخامس

(١) أنشئت جامعة فيتمبرج سنة ١٥٠٢ عندما حث أسقف مجدبورج اخاه فردريك الحكيم ملك سكونيا على تأسيس جامعة فى إمارته . واستقر الرأى على تأسيس الجامعة فى المدينة الصغيرة « فيتمبرج » التى لم يكن عدد سكانها فى ذلك الوقت يتجاوز ٢٥٠٠ شخصا (Bainton P, 39) وقد ضحك الملك عندما عرف بأنه قد وقع اختيار المجلس على هذه المدينة وقال أحد أعضاء المجلس : من يدرى فربما تصبح هذه المدينة موضوع أحاديث الناس اكثر من أى جامعة أخرى (Hourticq P. 23) .

2. Strohl P. 70. ميرل دوبينياه ص ٥٣
3. Greiner P. 36.
4. Hourticq P. 23-24, Strohl P. 38.
5. ....

* لم يذهب لوثر الى روما لمقابلة البابا لعرض هذه المشكلة عليه ، كما يعتقد البعض ، بل لمقابلة الرئيس العام لهذه الرهبنة .

** ذخائر القديسين هى بعض البقايا من الأنبياء القديسين أو من أمتعتهم : مثل عظمة من عظام القديس يوحنا أو النبى اليشع ، أو شعرة من رأس العذراء أو قطعة من ثوب الرب يسوع .... الخ .

6. Hourticq P. 24.
7. strohl P. 84.

8. Strohl, P. 86. ميرل دوبينياه ص ٥٥ ، د . عزت زكى ص ٤٣ - ٤٤
9. Hourticq, 25.
10. Baintoh, 38.

* لقد وجدت هذه القصة فى مكتبة ر . ستادت Rudolf Stadt ومؤرخة بتاريخ ٧ اغسطس (آب) سنة ١٥٨٢ ، D 539 .

الفصل السادس

الاكتشاف العظيم

عندما اقترح ستوبيتز اسم مارتن لوثر لكى يكون استاذا فى جامعة فيتمبرج لتدريس الكتب المقدسة بدلا منه ، هل كان يعرف بأنه قد وضعه على الطريق السليم الذى سيؤدى به الى اكتشاف الحقيقة العظمى : حقيقة التبرير بالايمان ؟ وهل كان يعلم عندما حاول أن يرغمه باعتباره رئيسه بان يقبل باسم الطاعة كراهب هذا العمل ، انه يدفع أمامه عملاقا كبيرا سوف يستخدمه الرب لتغيير أوضاع كثيرة دينية وسياسية واجتماعية ليس فقط فى المانيا بل فى كثير من بلاد العالم ؟

كان ستوبيتز نبيا عندما أمر الراهب الشاب قائلا : « ....ان للرب الهنا عملا عظيما فى الكنيسة يحتاج الى نشاط شاب مثلك .. أن لله عملا فى السماء وعلى الأرض وهو فى حاجة اليك حييت أم مت فاعمل مايطلبه منك ديرك وما آمرك أنا به » (ميرل دوبينياه ص ٥٩) .

عين لوثر استاذا لتدريس الكتب المقدسة . فى جامعة فيتمبرج كما سبقت الاشارة الى ذلك فى سنة ١٥١١ . وهنا بدأت العناية الإلهية تهيء له الطريق من كل ناحية فهو يتمتع برعاية صديقه وابيه الروحى ستوبيتز ، كما أنه أصبح استاذا لتدريس الكتب المقدسة . وفى دراسته لهذه الكتب المقدسة بالذات بدأ يبحث ويتعمق ويفتش . وفى اثناء بحثه ودراساته وصل الى تلك الحقيقة العظيمة والتى كانت تعد بالنسبة له اكتشافا محرراً : وهى عقيدة التبرير بالايمان .

متى اكتشف لوثر هذه ا لعقيدة ؟ لم يكتشفها اثناء صعوده سلم بيلاطس فى روما فى سنة ١٥١١ ولكننا نتفق مع بعض العلماء الذين يعتقدون بأن الراهب الأوغسطينى قد توصل الى هذه الحقيقة العظيمة ربما فى سنة ١٥١٢ أو سنة ١٥١٣ أو سنة ١٥١٤ .

يقول جرينر (Greiner) إنه من الصعب تحديد تاريخ هذا الاكتشاف ، وسيظل تحديد هذا التاريخ بطريقة دقيقة غير معروف ، لكن العلماء حاولوا دراسة الظروف التى مر بها الراهب ، لكى يتمكنوا من أن يجدوا تاريخا ولو نسبيا فمن المعروف أنه قام بالتدريس فى أرفورت من سنة ١٥٠٩ – ١٥١٠ .

وفى سنة ١٥١١ عين استاذا فى جامعة فيتمبرج . وكان يلقى محاضراته هناك عن الكتب

المقدسة . ولقد اتفق معظم العلماء على ان المحاضرات التى كان يقوم بالقائها الراهب الاستاذ كانت كالاتى :

من سنة ١٥١٣ - ١٥١٥ محاضرات عن سفر المزامير .

من سنة ١٥١٥ - ١٥١٦ محاضرات عن رسالة رومية .

من سنة ١٥١٦ - ١٥١٧ رسالة غلاطية .

من سنة ١٥١٧ - ١٥١٨ الرسالة الى العبرانيين[٢] .

فمن المحتمل أن يكون لوثر قد توصل الى هذا الاكتشاف العجيب فى الفترة التى كان يلقى فيها محاضراته عن سفرالمزامير (١٥١٣ - ١٥١٥) . ويعتقد الكثيرون من المتخصصين فى الدراسات اللوثرية ان المزامير التى كانت تتكلم عن بر الله ، أو عن طلب بر الله ، وقداسة الله ، أو عن رحمة الله ومحبته هى المزاميز التى قادته أن يسأل اسئلة كثيرة ، مثل أيمكن لله أن يكون باراً ؟ وهل يمكن ان يكون عادلاً وفى نفس الوقت رحيماً ؟ فإن كان الله يحب البر والعدل ويبغض الشر والاثم فكيف يمكن أن يكون رحيماً مع الانسان الخاطىء الأثيم ؟ ألم يكن هذا مصدر خوفه واضطرابه وانزعاجه من الله ؟ ..

وفى دراساته للبر الذى يتكلم عنه سفر المزامير ربما رجع الى بعض الكلمات فى رسالة بولس الرسول الى اهل رومية والتى كانت بعض عباراتها بالنسبة له مثل باب مغلق وسفر مختوم مثل : « لأن فيه معلن بر الله بإيمان لايمان كما هو مكتوب اما البار فبالايمان يحيا » (رو ١ : ١٧ ، حب ٢ : ١٤) .

ان بعض أساتذة لوثر علموا بان بر الله هو عطية من الله ولكن هذه العطية تمنح للذين يتعاونون مع النعمة ، أى أنه يوجد تعاون بين الله المانح هذه النعمة وبين الانسان الذى يتقبل هذه النعمة ولكى يحصل الانسان على الخلاص يجب عليه أن يعمل اعمالا صالحة يستطيع بها وعن طريقها أن يحصل على بر الله . وكان لوثر يعمل ليل نهار هذه الاعمال الصالحة لكى يحصل على الخلاص[٣] وكان رفقاؤه يشهدون بذلك . أما هو فكان يشعر دائماً بالرغم من هذه الاعمال الصالحة . بأنه خاطىء وأن الله القاضى القاسى يطالبه ببر أعظم وبأعمال اكثر .

أما مطاليب هذا الإله المغالى فى طلبه للبر أصبحت كلمة بر فى عينى لوثر كلمة تشمئز منها نفسه ويقشعر لها بدنه لدرجة أنه قال « لقد كرهت هذه الكلمة » ، ولماذا كرهها ؟ يواصل لوثر شرحه بالقول « لقد فهمت عبارة « بر الله » بمعنى أن الله بار ، وبما أنه بار فهو يعاقب الخطاة والاثمة . ولهذا نرى لوثر وقد ذهب ابعد من ذلك حينما قال « لم استطع أن احب هذا الإله البار المنتقم ، بل كرهته ... وكنت أقول لنفسى ألم يكتف الله بان يحكم علينا بالموت بسبب خطية ابائنا ؟ ألم يعذبنا بناموسه القاسى علينا حتى يضيف الى آلامنا آلاما

اخرى بانجيله الذى يعلن لنا فيه بره وغضبه وثورته »[٤] وتذكرنا هذه الكلمات ا لاخيرة بما قاله له ستوبيتز مرة « أنت الثائر ضد الله وليس الله هو الثائر ضدك » . ويواصل لوثر فيقول : « كنت أبحث بدون هوادة لفهم هذا النص القائل : لأنه فيه معلن بر الله بايمان لايمان كما هو مكتوب أما البار فبالايمان يحيا » (رو ١ : ١٧) كانت رغبتى عارمة لفهم هذا الاصطلاح الذى استعمله الرسول فى هذه الرسالة . ماذا يقصد بهذه العبارة « بر الله » .. ؟ كنت أتامل ليل نهار فاحصا هذه الكلمات « بر الله » معلن فى الانجيل ... اما البار فبالايمان يحيا .. ؟

وبدأ لوثر يفكر ويصلى ويتأمل ، « واخيرا اشفق الله علىّ وعندئذ بدأت أفهم أن عبارة « بر الله » تعنى أن الانسان الذى يؤمن يحيا بالبر الذى يمنحه له الله . فإن معنى هذه الجملة أن الانجيل يعلن بر الله . على أن هذا البر الذى يبررنا به الله . هو رحمة منه ننالها عن طريق الايمان . كما هو مكتوب وأما البار فبالايمان يحيا وحالا شعرت باننى أولد من جديد وأن أبواب السماء قد فتحت على مصراعيها أمامى ومن هذه اللحظة بدأ الكتاب كله يظهر امام عينى بمظهر آخر وبقدر ماكنت أكره عبارة بر الله . صرت أحبها وصارت لها معزة خاصة عندى .. وهكذا أصبح هذا النص بالنسبة لى باب السماء ... وقد بدأت فى قراءة كتابات القديس اوغسطينوس عن الروح والحرف وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدته يشرح هذه المشكلة بطريقة مشابهة تماما لطريقتى[٥] .

هنا بدأ المصلح يفهم حقيقة ومصدر عقيدة التبرير بالايمان . كان يعتقد قبلا بأن مصدر البر وأساسه الاعمال الصالحةوالتضحيات واماتة الجسد والفقر والجوع والصيام وانكار الذات ... الخ وكان يظن أنه مطالب بالقيام بهذه الاعمال التى تؤدى للبر لذلك كان يثبت نظره على نفسه : على مارتن لوثر ، الذى يستطيع بأعماله الصالحة وتضحياته وبصيامه وانكار ذاته أن يخلص مارتن لوثر من يد القاضى القاسى الذى يزن اعماله بميزان دقيق . ولكن عندما ادركته نعمة الله كما يقول نفسه « واخيرا أشفق الله علىّ ... انفتحت عيناه وأبصر النور بنور الله نفسه » بنورك نرى نور (مز ٣٦ : ٩) عندئذ فقط فهم بر الله بطريقة تختلف تماما عن الطريقة التى علم بها كثير من أساتذته* فبر الله بحسب مفهوم لوثر هو هبة الله للانسان وبه يصبح الانسان مبررا فى عينى الله . فان التبرير (أو الخلاص من الخطية) لا يتوقف على أعمال الانسان الصالحة ، كثيرة كانت أم قليلة لكنه بايمان الانسان الخاطىء المعترف بخطاياه والنادم عليها من قلبه امام الإله البار وحتى هذا الايمان هو عطية الله « لانكم بالنعمة مخلصون بالايمان وذلك ليس منكم هو عطية الله » (أف ٢ : ٨ - ١٠) ولكن على الانسان أن يفتح قلبه لقبول عطية الله الذى ينير له الطريق ويكشف له حالته على حقيقتها .

ولقد استعمل لوثر عبارتين لكى يشرح بهما فكرة عن بر الله : عبارة « البر الفعال » (La

Justice Active) ثم عبارة : « البر السلبى » (La Justice Passive) فماذا يقصد لوثر بهذين الاصطلاحين ؟ .

ان البر الفعال هو البر الذى يمنحه الله للانسان : فهوه عمل الله ويسمى بر الله العامل أو النشيط أو الايجابى ، لأن الله هو الذى يمنح أو يخلق فينا هذا البر . أما البر السلبى فهو عبارة عن موقف الانسان امام الله ازاء عملية التبرير . فالانسان لا يأتى الى الله بأعماله الصالحة النشيطة التى تبرره امام الله ، بل تأتى سلبيا (بلا عمل) والله يبرر هذا الانسان : فالانسان هنا متقبل فى هذه الحالة أى أن الله هو الذى يقوم بعملية التبرير المجانى . والانسان ماعليه الا أن يمد يده لكى يقبل هذا التبرير من الله الفاعل والعامل والمقدم لهذا البر[٦] .

كانت تعاليم أوكام تنادى بأن الله قاض عادل ويحكم على الانسان بحسب أفعاله وتصرفاته أما لوثر فقد تغير مفهومه الكتابى وبدأ يعتبر الله أبا محبا ينظر الى الانسان كابن له فيمنحه البر . ففى الحالة الأولى الانسان فاعل للبر وفى الحالة الثانية الله فاعل للبر : فهو الذى يمنح هذا البر مجانا للانسان والرجوع الى قول القديس اغسطينوس « ان السبب الذى من أجله يسمى بر الله ، لأنه هو الذى يمنحنا هذا البر ويبررنا به » . وهذا على عكس ماعلم به أرسطو الذى يعتقد بأن البر يتبع اعمالنا وهو نتيجته . واما لوثر فهو يعتبر بان بر الله يسبق أعمالنا وأن أعمالنا هى ثمار[٧] .

ومن هنا يتضح أن لوثر لا يرفض الاعمال الصالحة ولا يقلل من شأنها إذا كانت اثمارا لبر الله لكنه يريد أن يبرر أولا عمل الله فى التبرير . فالله وحده هو الذى يبرر الانسان الخاطىء . فبعد أن يحصل الانسان على بر الله (ومن الله وحده) بعمل أعمالا صالحة ، لا لكى يخلص بها أو لكى ينال عن طريقها ثوابا بل لانه صار خليقة جديدة بالنعمة وتجدد قلبه وتغيرت حياته ، فانه يريد بدوره أن يكون عاملا صالحا فى المجتمع الذى يحيا فيه . ويرى لوثر فكرة أخرى فى بر الله . فإن بر الله يظهر أيضا فى حكمنا على انفسنا . فعندما نعترف بخطايانا فاننا نعترف فى نفس الوقت ببر الله . أى أننا نعترف بأن الله هو المحق فى حكمه واننا مخطئون فى احكامنا وتصرفاتنا[٨] (١ يو ١ : ٨ - ١٠) .

ولكن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نسأل هذا السؤال : كيف واين اكتشف لوثر هذه العقيدة : عقيدة التبرير بالايمان ؟

أما كيف فقد انقسم الدارسون فى الرد على الكيفية الى قسمين :

١ - اعتقد البعض أن هذا الاكتشاف لم يكن ابن يوم وليلة بل كان وليد البحث الطويل والصلاة الحارة والاضطراب والخوف ....[٩] .

٢ - والبعض الآخر رأى أن هذه الفكرة طرأت على ذهنه بطريقة فجائية وسريعة كاختبار بولس وهو فى طريقه الى دمشق . وقد رجع هؤلاء الى قول لوثر نفسه الذى يشعر القارىء عندما يقرأه كما لو كان هذا الحدث قد حدث بطريقة فجائية وسريعة . وهذا واضح من المقدمة التى كتبها فى سنة ١٥٤٥ بالاجابة فيما يختص بأين أو مكان حدوث الاختبار فيحتمل أن لوثر قد اجتاز فى هذا الاختبار العظيم عندما كان يقوم باعداد محاضراته فى برج الدير فى جامعة فيتمبرج[١٠] .

هوامش الفصل السادس

1. G. Casalis P. 32, Strohl. P. 97.
2. G. Casalis P. 25, Strohl. P. 93-99, Strohl Savie P. 70, Bainton P. 45-46.
3. Greiner P. 36.
4. H. Strohl P. 94.
5. H. Strohl, P. 94.

* أقول هنا كثير من اساتذته – وليس كل اساتذته -- لأنه من الظلم بل من الاجحاف أن توصم الكنيسة الكاثوليكية كلها بعدم فهم النصوص الكتابية . فبالرغم من الحالة الروحية الضعيفة التى وصلت اليها الكنيسة فى هذا العصر فقد احتفظ الرب لنفسه بشهود أمناء فى الكنيسة ومن ابناء الكنيسة الكاثوليكية مثل ستوبيتز الذى كان واحدا من هؤلاء الشهود .. « لأنه لم يترك نفسه بلا شاهد ... » (اع ١٤ : ١٧) .

6. W4, 241, 25, W3, 199, 18
7. Strohl, P. 126.
8. W3, 29, 9-16, W3, 31, 3-7 D 595.
9. Str., P. 93.
10. Bainton, P. 46, Greiner, P. 39.

الفصل السابع

صكوك الغفران

يعتقد البعض ان المصلح الالمانى قد قام بثورة عنيفة وحرب شعواء ضد الكنيسة الكاثوليكية بعد أن اكتشف حقيقة التبرير بالايمان ، ولم يستطع أن يبقى بعد ذلك داخل هذه الكنيسة لذا فقد ترك الكنيسة وبدأ كنيسة جديدة لوثرية أو بروتسانتية لكن الحقيقة التاريخية تدل على عكس ذلك تماما فبعد أن اكتشف لوثر هذه العقيدة العظيمة وهى حقيقة التبرير بالايمان أو بعد أن افتقدته نعمة الله بمعنى أصح وبعد أن انفتحت عيناه ، لم يترك لوثر الكنيسة الكاثوليكية أبدا ولم يفكر قط ولا لحظة واحدة أن يهجر الكنيسة المحبوبة التى كان ينظر اليها فى ذلك الوقت بكثير من الحب والاحترام والتقدير[١] .

فمع أن لوثر قد فهم موضوع التبرير بالايمان فى سنة ١٥١٣ أو فى سنة ١٥١٣ أو فى سنة ١٥١٤ لكنه لم يترك الكنيسة بعد هذا الاختبار العجيب . بل ظل فيها كابن وخادم أمين لها . نعم لقد تغير سلوكه تغيرا كليا بعد هذا الاختبار . كما تحول هذا الراهب الخائف المضطرب الذى يقضى وقتا طويلا امام كرسى الاعتراف الى شخص جديد بعد أن زالت مخاوفه واضطرابه . كل هذا صحيح ، ولكن غير الصحيح هو أن لوثر ثار ضد الكنيسة الكاثوليكية بعد اكتشافه لعقيدة التبرير بالايمان مباشرة . بل على العكس فإن لوثر واصل دراساته وابحاثه ومحاضراته فى الجامعة ، وخدماته فى الكنائس والدير الذى كان مسئولا عنه . كان يمارس نفس الاعمال والخدمات التى كان يقوم بها من قبل لكن بدل أن يقوم بهذه الاعمال مرغما حزينا متألما لانه كان يريد ان يحصل عن طريقها وبها على بر الله والمصالحة مع القاضى القاسى . فإنه يقوم بها وقلبه قد امتلأ بالفرح والسلام والاطمئنان . هكذا ظل لوثر راهبا وكاهنا واستاذا فى الكنيسة الكاثوليكية بعد اختباره العظيم فى سنة ١٥١٣ أو ١٥١٥ . حتى سنة ١٥١٧ وبالتحديد فى يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) عندما علق على كاتدرائية جامعة فيتمبرج ٩٥ احتجاجا ضد مايدعى بصكوك الغفرانات .

صكوك الغفران :

ماهى صكوك الغفران ؟ ان فكرة صكوك الغفران لم تكن جديدة فى ذلك الوقت ، بل يرجع تاريخها الى زمن الحروب الصليبية ، فقد منح بعض الباباوات هذه الامتيازات الى الذين

كانوا يذهبون الى الحرب مخاطرين بحياتهم . وبعد ذلك كانت تمنح ايضا للذين كانوا يذهبون الى الأماكن المقدسة . كما أنها منحت أيضا للذين كانوا يساهمون فى اعمال « البر » والاحسان كبناء الكنائس والمستشفيات .... الخ[٢] .

ولكى نفهم هذه المشكلة على حقيقتها يجدر بنا ان نذكر القارىء ببعض الحقائق والظروف الدينية والتاريخية والسياسية والاجتماعية . وهنا يجب أن نسأل هذا السؤال على أى اساس كانت تبيع الكنيسة الكاثوليكية فى هذا الوقت صكوك الغفران ؟

لقد علمت الكنيسة فى ذلك الوقت بان الحصول على الخلاص يتم عن طريق التعاون بين الله والبشر ، أى أن نعمة الله تتعاون مع الانسان وتساعده على أن ينال خلاصه عن طريق عملية الفداء التى قام بها المسيح وعن طريق اعماله الصالحة . ولهذا السبب نرى لوثر الكاثوليكى المدقق يحاول ليل نهار الحصول على الخلاص بأعماله الحسنة .

وكان الرأى السائد ان بعض القديسين قاموا بأعمال صالحة كافية لخلاصهم فقط . بينما قام البعض الآخر باعمال حسنة كثيرة زادت عن حاجاتهم : مثل السيد المسيح الذى لم يكن فى حاجة أبداً الى اعمال حسنة ، ولكنه عمل كثيراً جدا . كذلك قامت السيدة العذراء مريم والرسل وعدد كبير من الأنبياء والقديسين فى تاريخ الكنيسة على مر العصور باعمال صالحة كثيرة جدا زادت عما كانوا فى حاجة اليه لخلاصهم . وهذا ماكانت تسميه الكنيسة بحسنات القديسين الزائدة . وهذه الحسنات الزائدة مودعة فى بنك الكنيسة وهى ملك لها وللكنيسة الحق فى التصرف فيها كما تشاء ومتى تشاء . فمن حق الكنيسة أن توزع هذه الحسنات المودعة تحت تصرفها على النفوس التى لم تستطع ان تعمل اعمالا حسنة كافية لخلاصها اثناء حياتها على الأرض .

لقد نادى بهذه ا لنظرية الكسندر هالس فى القرن الثالث عشر وكذلك القديس توما الاكوينى القديس بونافانتير[٣] وبما أن الكنيسة كانت هى المسئولة عن الاعمال الحسنة الزائدة . والتى تدعى كنز الكنيسة . لذلك كان يمكنها ان تبيع أيضا بعضا من هذه الاعمال الحسنة لمن هم فى حاجة اليها ولم يستطيعوا فى حياتهم التكفير عن ذنوبهم وخطاياهم .

وفى بداية الأمر أحاطت الكنيسة هذه العقيدة بعدة احتياطات وشروط . فكان الحاصل على صك الغفران لايخلص الا من المطهر فقط وليس من الجحيم . ومن يريد أن يحصل على هذا الصك كان عليه أن يعترف وأن يتوب عن خطاياه . كما كان يمنح هذا الصك مجانا للفقراء .

على أن هذه الشروط سرعان ماتغيرت مع مرور الوقت ، بل أصبحت صكوك الغفران

تجارة رابحة شائعة لجأت اليها الكنيسة – للأسف الشديد – فى ظروف كثيرة كلما احتاجت الى المال . بل تطورت الفكرة حتى أن بعض الدول والأمراء استعملوها لابتزاز المال .(٤)

وبما أننا نتكلم عن صكوك الغفران فيجب ان نشرح أيضا فكرة ذخائر القديسين لانها متصلة اتصالا وثيقا بهذا الموضوع .

ذخائر القديسين :

عبارة عن بقايا من القديسين أو بقايا من أمتعتهم . ولقد منح بعض الباباوات غفرانات عديدة لمن يزور هذه البقايا . وكان المقصود بهذه الغفرانات تقصير المدة التى يجب على الانسان ان يقضيها فى المطهر . فمثلا كانت توجد غفرانات لاعفاء الانسان من العذاب فى المطهر لمدة مائة سنة أو خمسين سنة أو عشرين سنة ... الخ يتوقف هذا على نوع الغفران والثمن الذى دفع فيه أو التضحية التى بذلت لأجله .

كما منحت بعض الغفرانات لمن قاموا بزيارة الأماكن المقدسة ، بعيدة كانت أو قريبة ، مثل أورشليم أو روما .

لهذا السبب نرى الملك فردريك الثالث ملك ساكس يحاول جمع اكبر عدد من ذخائر القديسين . ففى المرحلة التى قام بها الى أورشليم سنة ١٤٩٣ أحضر معه كمية كبيرة منها وكانت ذات أهمية عظيمة . ويقال انه أحضر معه احدى اسنان القديس جيروم ، وأربعة أجزاء من جسد يوحنا فم الذهب ، وأربع خصل من شعر العذراء مريم ، وقطعة من لفائف يسوع . وأشياء أخرى كثيرة .

وفى سنة ١٥٠٩ وصلت ذخائر القديسين المعروضة فى كاتدرائية فيمتبرج الى خمسين ألف وخمس قطع . وفى سنة ١٥١٨ وصل عدد هذه الذخائر فى نفس المدينة الى ١٧٤٤٣ قطعة وهذه الكمية تعطى اعفاء من المطهر لمدة ١٢٧٧٩٩ سنة ، ١١٦ يوم(٥) .
وكما قلنا فقد أستخدمت الكنيسة فى مرات كثيرة هذه الوسيلة كلما احتاجت الى المال . ولذلك لجأ كل من البابا ليون العاشر والبرت رئيس اساقفة احدى الامارات الألمانية الى استغلال هذه الوسيلة لجمع المال الذى كانا فى حاجة اليه .

جلس البابا ليون العاشر على كرسى القديس بطرس فى سنة ١٥١٣م ونظراً لأنه كان من عائلة آل يتشى العريقة فقد تمسك ليون بحياة الرفاهية والبذخ وتعظم المعيشة والاسراف كما أنه كان شغوفا أيضا بالفن والعمارة ولذلك فقد عزم على إجراء بعض المبانى والاصلاحات فى كنيسة القديس بطرس . ولتمويل هذا المشروع الضخم فقد أصدر قراراً فى ٣١ مارس (آذار) سنة ١٥١٥ ببيع صكوك غفران كاملة . ولما رفضت بعض الولايات الألمانية هذا

المشروع ، فقد عرضه البابا على البرت (Albrecht) رئيس اساقفةماينس (Mayence) ووعده بنصف ثمن الصكوك . وكان البرت يمر فى هذا الوقت بأزمة مالية شديدة لكثرة الديون التى تراكمت عليه . فقد كان طموحا يحاول الوصول الى المناصب الدينية والدنيوية فى آن واحد . ولقد استطاع فعلا أن يكون رئيس اساقفة لثلاثة أبراشيات ومنتخبا لمقاطعة ماينس (Mayence) وقد وصل الى بعض هذه المناصب بطرق غير قانونية وبدون حق[٦] ووصل الى البعض الآخر عن طريق الرشوة . ودفع المبالغ الكبيرة من المال ولذلك فقد لجأ الى بنك (Fugger) الذى أقرضه المال الذى كان فى حاجة اليه ولكن بفائدة تبلغ ٢٠٪[٧] .

لذلك قبل البرت عقد الصفقة مع البابا ليون العاشر فى الرابع والعشرين من ابريل (نيسان) سنة ١٥١٦ .

وقد اتفقا على أن توزع الأموال المجموعة من بيع صكوك الغفران بالطريقة الآتية : النصف للبابا فى ايطاليا لبناء كنيسة القديس بطرس والنصف الباقى يدفع مباشرة لبنك (Fugger) لتسديد القرض وفوائده .

وكان هذا حلا مثاليا ومريحا مرضيا للطرفين فهل كان مرضيا أيضا لله ؟!!! كان الحل مرضيا للبابا الذى شرع فى اصلاح وبناء كنيسة القديس بطرس كما كان حلا مريحا ومرضيا أيضا لألبرت رئيس الأساقفة لسد ديونه وكان مريحا ايضا للبنك الذى سوف يسترد أمواله وكان مفيدا ومرضيا للذين يقومون ببيع الصكوك إذ كانوا يتقاضون عمولة عن عملهم وكان اخيراً مريحا ومرضيا ومطمئناً للذين يشترون هذه الصكوك لكى تستريح ضمائرهم وتطمئن قلوبهم على المستقبل .

كل هذه الأمور كانت حقيقية واكيدة أما الأمر غير الحقيقى فهو مدى فاعلية هذه الصكوك فى نظر الله هذا هو نفس السؤال الذى سأله لوثر عندما تسلق السلم المقدس فى روما : عندما قال : « من يعرف إذا كان هذا صحيحاً ؟!!! » ولهذا السبب عينه قام لوثر فى يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) بتعليق ٩٥ احتجاجاً على صكوك الغفران . ويعتبر هذا التاريخ فعلا بداية تاريخ الأصلاح .

لم تكن هذه المرة الأولى التى اظهر فيها لوثر عدم موافقته على عقيدة الغفران . فالدارس المدقق لتعاليم وعظات لوثر يلاحظ أن استاذ فيتمبرج وعظ عدة مرات ضد صكوك الغفران[٨] فقد وعظ ضد صكوك الغفران وشرح طريقة التوبة الحقيقية والرجوع لله فى يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥١٦ ؟ قبل أن يعلق هذه الاعتراضات على باب الكاتدرائية بسنة كاملة ولقد نشرت هذه العظة[٩] كما أنه ألقى أيضا عظة من المزامير فى ربيع عام ١٥١٧ مبينا فيها أن التوبة الحقيقية هى رفض الصكوك لأنه طريق سهل .[١٠] وقد سبق له أن كتب تصريحا



من ٩٧ نقطة شرح فيه أفكاره الدينية وعرضها للمناقشة كما أنه انتقد افكار اصحاب المدارس الفكرية[١١]

وبعد أن تعاملت نعمة الله مع هذا الرجل ، لم يكف أبداً عن توصيل وتسليم ما قد تسلمه من الرب يسوع الى الذين كانوا يعيشون بعيدين عن نور انجيل المسيح المحرر . ولهذا فقد دعى الجامعة واساتذتها لمناقشة موضوع صكوك الغفران . ولكى يسهل أمر المناقشة فقد كتب الخمسة والتسعين احتجاجا على صكوك الغفران التى كانت تباع فى بعض الامارات الألمانية . وعلق هذه الاحتجاجات على باب كاتدرائية فيتمبرج فى المكان الذى كانت تعلق فيه عادة الاعلانات الخاصة بالكاتدرائية والجامعة .

كان المسئول عن الحملة الدعائية لصكوك الغفران فى بعض الولايات الألمانية لألبرت رئيس اساقفةماينس ، هو الكاهن الدومنيكانى يوحنا تتزل . ولقد نظم حملات واسعة النطاق للدعاية والوعظ فكان يصل الى المدن التى كان يريد أن يبيع فيها الصكوك فى موكب ضخم عظيم يتقدمه مناد يدعو الجماهير بصوت عال للتجمع ، وعندما كانت تتجمع الجماهير كان يقف ليخطب فيهم خصوصا وقد كان خطيبا جيداً وكانت عظاته مركزة على صكوك الغفران وفوائدها . فمن الفوائد التى وعظ عنها الدومنيكانى انها تحرر النفوس من عذابات المطهر الأليمة . وكان معروفا أن كل نفوس البشر تمر بالمطهر الا نفوس القديسين لأن الأغلبية الساحقة - إن لم تكن النفوس كلها الا العدد القليل جدا من القديسين لابد وأن تذوق عذابات المطهر التى قد تضارع فى بعض الأحيان عذابات الجحيم . وما أقسى عذابات الجحيم !!! وما أقسى عذابات المطهر !!! .

وبعد إثارة مشاعر سامعيه بعظات من هذا النوع كان يختم عظته بجملة أصبحت جملة شهيرة فى التاريخ « فى نفس اللحظة التى ترن فيها دراهمكم فى الصندوق تخرج النفس المطهرية حرة منطلقة الى السماء »[١٢] .

لقد أساء تتزل (Tetzel) اساءة عظيمة الى الكنيسة الكاثوليكية فى طريقة وعظه عن صكوك الغفران . على أى حال فإن هذه البدعة لم تكن جديدة فى الكنيسة بل أن الكنيسة مارستها فى ظروف كثيرة . ولكننا نريد أن نلفت نظر القارىء هنا الى نوعين من صكوك الغفران .

١ - صكوك الغفران للأحياء . وكان على كل من يريد الحصول على هذا الصك أن يندم على خطاياه وان يعترف بها أمام الكاهن ثم ينفذ العقوبات التى يفرضها عليه الكاهن بعد الاعتراف لكى يكفر عن ذنوبه المرتكبة .

٢ - النوع الثانى الصكوك للأموات : وهو الحصول على صك لتحرير نفس مطهريه من

المطهر وكان يمكن الحصول على هذا الصك كتابة وينص الصك على عدد السنين التى يريد الطالب ان يعفى منها النفس المطهرية فى المطهر . وكان لكل صك ثمن معين سواء فى التضحيات الشخصية أو الآلام أو دفع مبلغ من المال .. ولكن ماكان يهم تتزل ، هو أن ترن النقود فى صندوق الجمع ...

لقد كلف تتزل بأن يعظ عن صكوك الغفران فى الولايات الألمانية التابعة لرئيس الأساقفة ألبرت وحدها دون غيرها لأن بعض الأمارات الأخرى لم تقبل الاتفاق الذى تم بين البرت والبابا ليون العاشر . وبناء على ذلك منعت الصكوك فيها ، مثل مدينة فيتمبرج* . وبما ان الملك فردريك قد منع بيع هذه الصكوك فى ولايته ساكس** فلقد ذهب الكثيرون عبر الحدود لشرائها من المناطق التى كانت تباع فيها . وهنا وجد لوثر نفسه أمام مشكلة عقائدية خطيرة .

ويبدو أنه تقابل مع عدد لابأس به من الذين كانوا يعترفون له فى كرسى الاعتراف ، وعندما كان يطلب منهم التوبة الحقيقية والندم الصادق ، كانوا يخرجون من جيوبهم صكوك الغفران ضاحكين مستهزئين قائلين نحن لا نحتاج الآن الى هذه النصائح ، ويلوحون بها فى وجهه . ماذا يعمل لوثر ؟!!! .

لابد وان لوثر – رجل الصلاة – قضى أوقاتا طويلة جدا امام عرش الله فى الصلاة والتأمل قبل ان يقوم بكتابة هذه الاحتجاجات . لقد عاش هذا الأمر قبل ذلك ، وعلم عنه عدة مرات ، فلماذا لا يلخص عظاته وتأملاته وافكاره فى عدة جمل قصيرة ضد بيع صكوك الغفران ؟!!!! وفعلا جلس لوثر وبدأ يكتب عدة نقاط احتجاج على هذه التعاليم الخاصة بصكوك الغفران ، ووصلت هذه النقاط التى كان يسجلها بقلمه الى خمس وتسعين نقطة . وكانت هذه النقاط مكتوبة بأسلوب سريع وهادىء . ثم علقها على باب كاتدرائية فيتمبرج فى يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٥١٧ .

وتوجد عدة حقائق جديرة بالذكر فيما يخص هذه البنود .

١ – تاريخ تعليق هذه الاحتجاجات : علق لوثر احتجاجاته هذه فى يوم ٣١ اكتوبر سنة ١٥١٧ ، وهو عشية عيد جميع القديسين ولقد اعتاد الشعب أن يأتى من كل حدب وصوب من ولايات ساكسونيا للاحتفال بهذا العيد فى أول نوفمبر (تشرين الثانى) للحصول على الغفران الذى يحصل عليه الزائرون لهذه الكاتدرائية المليئة بذخائر القديسين الغنية بالغفران والجدير بالملاحظة أن الهجوم ضد صكوك الغفران ، لم يكن موجها ضد تتزل وحده ، بائع الصكوك ، بل أن لوثر بجسارته هذه هاجم أيضا فى نفس الوقت كل من يحميه أو يناصره أى الملك فردريك نفسه[١٥] وخاصة لأن هذا


JOHANNES TECELIUS PIRNENSIS
Dominicanus, Nundinator Romani-Pontificis, anno
1517. LUTHERO territus & in fugam versus,
uti talis ejus effigies visitur in templo Pirnensi.
O ihr Deutschen mercket mich recht,
Des heiligen Vaters Bapstes Knecht
Bin ich, und bring euch itzt allein
Zehn tausent und neun hundert carten,
Gnad und Ablaß von einer Sünd,
Vor euch, ewr Eltern, Weib und Kind,
Sol ein jeder gewehret sein,
So viel ihr legt ins Kästelein,
So bald der Gülden im Becken klingt,
Im hun die Seel in Himmel springt.

∴ الملك كان قد أعد مجموعة ضخمة من ذخائر القديسين وصلت الى مايقرب من ١٧٠٠٠ ذخيرة يمكنها أن تمنح مايقرب من ١٢٧,٠٠٠ سنة اعفاء من عذابات المطهر[١٦] .

٢ – الامر الثانى هو أن تكون اللغة التى كتب بها لوثر هذه الاحتجاجات . هى الالمانية لغة الشعب ، لكنه كتبها باللغة اللاتينية لغة المثقفين والمتعلمين . وكأنه يدعو أولا وقبل كل شيء الاكليروس كله والعلماء والمثقفين لمناقشة هذا الأمر العقائدى الخطير بهدوء وبطريقة علمية مدروسة وصحيحة . لقد كان يدعو أولا العلماء والمعلمين (اللاهوتيين) لدراسة هذا الموضوع وتحميلهم المسئولية الثقيلة .

٣ – الأمر الثالث ، المكان : لقد وضع لوثر هذه الاحتجاجات على باب الكاتدرائية فى فيتمبرج . ومع أنه علقها فى المكان الذى كانت تعلق فيه عادة اعلانات الكنيسة والجامعة ألا أن هذا المكان بالذات كان يخص الكنيسة اكثر من الجامعة .

فقد أراد لوثر بهذه الحركة أن يعلن للكنيسة عامة بانه فى الكنيسة ، بل ومن أجلها يقوم بهذا العمل . ولم يسمح لنفسه بأن يهاجم الكنيسة . ولم يخطر على باله حتى تلك اللحظة أو فى أى لحظة أن يترك الكنيسة أو يهاجمها أو أن يندد بتعاليمها . بل كان يحبها ويحترمها . ولهذا السبب فقد كتب فى هذه الاحتجاجات يقول : « ونحن لا نريد ان نقول أى شيء أو نعتقد بأى شيء – لايتفق وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية[١٧] وبما أن لوثر لم يفكر قط فى الانفصال عن الكنيسة ولم يكن يريد الا اصلاحها من الداخل فقد قام بكتابة هذه النقاط كما أنه قام أيضا فى نفس اليوم الذى علق فيه هذه الاحتجاجات بكتابة خطاب فى غاية الأدب والرقة والاحترام والخضوع الكامل وأرسله الى رئيس اساقفةماينس يشرح فيه سوء استعمال صكوك الغفران ويتوسل اليه ان يتدخل سريعا ويأمر بايقاف هذه العملية[١٨]* .

كان لوثر يجهل الاتفاق الذى تم بين ليون العاشر والبرت وبنك فيكر . بل كن يعتقد بان رئيس الأساقفة لايعلم بهذه الاتفاقية . لذلك فقد رأى انه من الواجب عليه أن يلتمس منه باسم الرب يسوع أن يتدخل سريعا لحسم الأمور ، وابعاد هؤلاء الوعاظ ومنعهم من الوعظ . ولقد أرسل مع خطابه هذا نسخة من الاحتجاجات .

وكان ينتظر لوثر رد على هذا الخطاب ، ولكن للأسف طال الانتظار . لأن البرت أرسل خطابه وصورة من الاحتجاجات الى روما .

وقد سبق أن أشرنا الى ان المصلح قد كتب هذه الاعتراضات باللغة اللاتينية داعيا بذلك



العلماء والاساقفة والكهنة لأن يناقشوا معه هذه البنود . ولم يتحرك أحد من المسئولين . بل بالعكس قام بعض الطلاب - رغم رغبة لوثر - بترجمة هذه الاحتجاجات الخمس والتسعين الى اللغة الألمانية[٢٠] وحالا تناولتها المطابع وقامت بطبعها ثم ترجمت الى لغات أخرى ، وفى خلال اسبوعين انتشرت داخل المانيا وخارجها . بفضل الذين جاءوا لكى يحتفلوا بعيد جميع القديسين .

فلقد جاء هؤلاء للحصول على صكوك الغفران فرجعوا الى بلادهم حاملين معهم احتجاجات المصلح المدعمة من الكتابات المقدسة ضد هذه الصكوك .

ماهى محتويات هذه الصكوك :

بما أن بائعى هذه الصكوك إدعوا أنها تمنح الحياة الأبدية للتائبين وتخرج النفوس المطهرية من المطهر ، فإن لوثر قدم فى أول احتجاج الطريقة السليمة التى يستطيع بها الانسان الخاطىء التائب أن يحصل على الحياة الأبدية ، وهى التوبة الحقيقية وانسحاق القلب (مز ٥١ : ١٧) ، وليست بشراء صك الغفران ثم الانغماس فى الحياة الشريرة .

وبما أنه ليس من السهل لضيق المكان هنا ذكر وتحليل كل هذه الاحتجاجات الخمس والتسعين . لذلك نكتفى باشارة الى بعضها أو ماقصد لوثر أن يعلمه عن طريقها :

الاعتراض الأول : « عندما قال ربنا وسيدنا يسوع المسيح « توبوا » أراد بذلك أن تكون حياة المؤمن كلها توبة مستمرة وقد قال لوثر فى مكان آخر : «المؤمن هو البار الخاطىء »[٢١] .

الاعتراض الخامس : « لا يستطيع البابا - حتى لو أراد - أن ينقذ الانسان من عقوبة قانون الا ما سنه هو نفسه بمحض ارادته .

الاعتراض السادس : « ليس فى سلطان البابا أن يزيح أو يلاشى عن الانسان عقاب خطيئته أو يغفرها له ، وانما يعلن للخاطىء ان خطاياه قد غفرت » .

الاعتراض الحادى والعشرون : « يضل الذين يقولون بأن صكوك البابا تخلص الانسان من كل عقاب » .

الاعتراض السابع والعشرون : « ضل الذين يقولون بأنه متى رنت النقود فى صندوق الجمع تخلص النفس من المطهر منطلقة نحو السماء » .

الاعتراض الثانى والثلاثون : « ضل الذين يتوهمون بأنهم فى أمان بسبب الغفران ، فانهم مع تعاليمهم هالكون » .

الاعتراض السادس والثلاثون : « ان المسيحى الحقيقى ، الذى يترك خطاياه بقلب منسحق

نادم ، تغفر خطاياه ولا حاجة له الى صكوك الغفران » .

الاعتراض الثالث والأربعون : « على المسيحى ان يفهم حقيقة أن الذى يحسن الى مسكين أو يقرض محتاجا يقوم بعمل أفضل من شراء صك غفران » .

الاعتراض الثانى والستون : « ان كنز الكنيسة الثمين هو انجيل نعمة الله ومجده المقدس » .

ولابد أن لوثر يشير بهذا الاعتراض الأخير الى ماقد ادعته الكنيسة فى استخدام بيع استحقاقات القديسين لكنز لها وتحت تصرفها . ان الكنز هو انجيل المسيح يسوع المحرر وهو قوة الله للخلاص لكل من يؤمن (رو ١ : ١٦ - ١٧) .

ويمكننا أن نلخص محتويات هذه الاحتجاجات فى الآتى :

الاحتجاجات من (١ - ٢٩) : مجموعة من الاحتجاجات ضد صكوك الغفران للنفوس المطهرية ، وحاول لوثر أن يبين أن سلطان البابا لا يمتد لابعد من الأرض وليس له سلطان على الأرواح فى المطهر ، ثم يرجع الى متى ١٦ : ١٩ ليبين أن سلطان الحل والربط نافذ المفعول هنا على الأرض فقط وليس فى السماء .

الاحتجاجات من (٣٠ - ٦٨) : مجموعة أخرى يتكلم فيها عن الصكوك الخاصة بالأحياء . ويشرح لوثر أن الشرط الأساسى للحصول على الغفران هو التوبة الحقيقية .

الاحتجاجات من (٦٩ - ٩٠) : فى هذه المجموعة من الاعتراضات يحذر المصلح الذين يرتكبون الخطايا والموبقات بدعوى أنهم حصلوا على صكوك غفران . كما أنه يتكلم عن المبالغة فى سلطان البابا .

الاحتجاجات من (٩١ - ٩٥) : ويختم المصلح الألمانى هذه الاحتجاجات بتحذير الشعب من الأنبياء الكذبة الذين ينادون للشعب بالسلام ، ولا سلام حقيقى (خر ١٣ : ١٠ - ١٦) ويعلن للشعب ان دخول السماء أو الحصول على الخلاص ليس طريقا سهلا هينا لينا ، يشترى ويباع بالمال ، بل كما هو مكتوب « انه بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت السموات (أع ١٤ : ٢٢) ان دخول ملكوت السموات لا يتم بالوعود الكاذبة وغير الحقيقية ، بل بالتوبة الحقيقية وانسحاق القلب وقبول الرب يسوع المسيح كمخلص .
ويمكننا أن نقول ان الاصلاح قد بدأ فعلا فى المانيا يوم ٣١ اكتوبر اليوم الذى تحتفل به كل الكنائس القديمة وبعض الكنائس الانجيلية المصلحة حتى الآن . كنقطة انطلاق للاصلاح وبدايته .

هوامش الفصل السابع

1. Strohl, P. 214., Greiner P. 49-50.
2. R. Bainton, P.54.
3. H. Strohl. SA. Vie 122-123.
4. A. Greiner, P. 52-53.
5. H. Strol, P. 245; Greiner un Passiome, P. 27.
6. Elsie Singmaster, The Story of his life., P. 44-45., Greiner. un pass. P. 29-32.
7. Daneil Oliver, Le Proces Luther, 1517-1521. Faxard. P. 21-23, Strohl, 244-245, casalis 49; R. Bainton, P. 56-57.
8. R. Bainton, P. 54.
9. W1 65 ss.
10. Strohl Sa vie 116.
11. E. Singmaster, 46, Strohl Sa vie 118.

12. A. Greiner, P. 53, R. Bainton 54. د. عزت زكى ، ص ٤٨
13. Daniel Oliver, P. 14.

* ان تتزل لم يصل الى فيتمبرج ولم يكن مسموحا له ببيع صوك فيها .

** لم يمنع فردريك بيع هذه الصكوك لانه رأى فيها منافسا خطيراً لذخائر القديسين التى جمعها وعرضها فى كاتدرائية فيتمبرج ، واضعافا لدخل هذه الذخائر .

14. A. greiner, Un Passionnè P. 30-32.
15. G. Casalis. P. 52;
16. Greiner Bio. P. 54.
17. G. Casalis, P. 53.
18. WBr1, 48.
19. E. Sing Master P. 46-49.

* يوجد نص هذا الخطاب مترجما باللغة العربية فى أ . موريسون . ترجمة القس باقى .

20. E. Singmaster, 49, WBr 62, P. 152, 1, 10. Luther à Scheurl
21. H. Strohl, P. 253.

الفصل الثامن
ماذا عملت يالوثر ؟!!!

بدء القضية :

كان لوثر أول المندهشين من رد الفعل الذى أحدثته هذه الاعتراضات الخمس والتسعين . ألم يذكر ذلك فى خطابه للبابا ؟ ان انتشار هذه الاعتراضات بهذه السرعة وهذه الكيفية يعد معجزة . وكل ماكان يقصده من كتابتها هو أن تناقش أولا فى الجامعة وعلى المستوى الجامعى فقط . ولكن بعد أن ترجم الطلبة هذه الاحتجاجات انتشرت ليس فقط فى المانيا بل فى كثير من البلاد المجاورة . وبدأ الجامعيون والعاميون ، التجار واصحاب الحرف فى دراستها بل أصبحت موضوع أحاديث جميع الناس . أما منافسو لوثر فقد رأوا أن نهايته قد اقتربت ، وان مصيره سيكون الحرق على خشبة مثل الذين سبقوه فى هذه الجرأة وقد سبق أن قلنا بأن لوثر أرسل فى نفس اليوم الذى علق فيه هذه الاعتراضات نسخة منها مع خطاب خاص الى رئيس الاساقفة . وعندما استلم البرت هذا الخطاب انشغل انشغالا عظيماً . ولم يكن سبب انشغاله هو الناحية التعليمية أو العقائدية أو الروحية بل أن الذى أزعجه فى هذا الخطاب أنه رأى فيه تهديداً واضحا لمشروعه المالى إذ أنه كان يعلق أمالاً كباراً على نجاح هذا المشروع لكى يسدد عنه طريقه ديونه الكثيرة وحالاً أرسل نسخة من الخطاب إلى البابا ليون العاشر . واستلم البابا رسالة رئيس أساقفة المانيا وقرأها ، ثم أعاد قراءتها ، انها معارك رهبان سكارى . لقد فسر البعض هذه الجملة بمعنى أن ليون العاشر لم يعر هذا الأمر اهتماما كبيراً[1] بينما حقيقة الأمر غير ذلك .

وربما لم يعر ليون هذا الأمر اهتماما كبيراً فى أول لحظة ولكنه حالا أدرك خطورة الموقف لأن الموقف كان خطيراً فعلا بل فى غاية الخطورة ، إذ أن المصالح الرومانية كانت مهددة ، وبدأ يفكر فى حل .

ومع أن رئيس أساقفة المانيا كان قد أرسل هذه الاحتجاجات الى روما الا أنه لم يقف مكتوف اليدين ، كما أن الراهب الدومينيكانى تتزل . طلب من جامعة فرانكفورت أن تدرس هذه ا لاحتجاجات وبعد دراستها أقروا بأنها تحتوى على ١١٦ خطأ عقائديا وبناء عليه رفع الأمر الى روما بأن لوثر هرطوق[2] يجب محاكمته .

عندما وصل تقرير رئيس الاساقفة والجامعة ، طلب البابا من ا لكاردينال كاجتان (Cajetan) وهو دومينيكانى ومن أعظم علماء الفاتيكان فى ذلك الوقت أن يكتب له تقريرا عن هذا الموضوع[٣] ومن أول ديسمبر (كانون أول) بدأ كاجتان فى دراسة الخمسة والتسعين احتجاجا كذلك السبعة والتسعين التى سبق أن عرضها للمناقشة فى سنة ١٥١٧ أى قبل ظهور هذه الاعتراضات الخمسة والتسعين وفى آخر ديسمبر (كانون الأول) قدم كاجتان تقريره . وخلاصته :

أن لوثر يهاجم الكنيسة الكاثوليكية فى قضيتين :

(١) لاخلاص بالاعمال الحسنة أو بالاستحقاقات الشخصية .

(٢) ان السلطة الكنسية غير معصومة وعلى المؤمن الاعتماد على الروح القدس الذى يرشده والرجوع الى الكتاب المقدس[٤] .

وفى ٣ فبراير (شباط) ١٥١٨ كلف البابا ليون الرئيس العام للأغسطينيين بأن يصدر أمره الى ستوبيتز المسئول عن الرهبانيات الاغسطينية فى المانيا بأن يعمل مافي وسعه لكى يسحب لوثر احتجاجاته وأن يعلن طاعته وخضوعه والا فلابد من محاكمته فى روما .

ولقد ظهرت ردود الفعل على هذه الاحتجاجات الخمسة والتسعين فى اماكن كثيرة ، فقد عقد تتزل اجتماعا فى العشرين من يناير (كانون الثانى) ١٥١٨ فى دير فرانكفورت على نهر الودر لكي يرد عليها . وتعالت أصوات الوعاظ المكلفين ببيع صكوك الغفران مطالبين بحرق لوثر .

عندما كتب لوثر هذه الاحتجاجات كتبها بطريقة موجزة جدا لكي تناقش وتدرس فى الجامعة وعلى مستوى جامعي . ولكنه لما وجد أنها انتشرت فى طول البلاد وعرضها وأصبحت فى متناول العالم والجاهل . وخشى أن تفهم الاحتجاجات وتفسر بطريقة خاطئة . لذلك نشر عظة فى مارس (آذار) ١٥١٨ عن النعمة والصكوك يشرح فيها هذه المشكلة بطريقة واضحة[٥] وزاد الجدل والنقاش بين الطرفين لدرجة ان تتزل تطرق وقام بحرق الاحتجاجات الخمسة والتسعين ورداً على هذا الفعل قام الطلبة أيضا بحرق بعض صكوك الغفران[٦] التى كان تتزل مكلفاً ببيعها .

هوامش الفصل الثامن

1. Greiner, P. 59.
2. Daneil Olivier, P. 26.
3. Strohl P. 268, D. Hourticq P. 37.
4. Strohl Savie P. 124.; Strohl 2 68, Hourticq 37, 38.
5. W.1, 239 SS
6. Strohl 2 68, 269.

الفصل التاسع

مجمع هيدلبرج (Heidelberg)

لقد وجد ستوبيتز – الصديق المخلص للوثر فى موقف حرج جدا امام طلب البابا ، وعلى أى حال فانه كان مضطرا لأن يعرف لوثر بهذا الأمر . ورد المصلح فى ٣١ مارس (آذار) سنة ١٥١٨ على خطاب أبيه الروحى شارحا اقتناعه بالآراء التى ينادى بها وانه لن يتخلى عنها مالم يقتنع كتابيا . وبناء عليه كان ستوبيتز مضطرا أن يدعو لوثر للمثول امام مجمع من الرهبان وتحدد تاريخ الاجتماع فى يوم ٢٥ أبريل (نيسان) ١٥١٨ ومكانه فى مدينة هيدلبرج . ولقد أراد لوثر أن ينتهز هذه الفرصة لكي يشرح للأخوة الرهبان أفكاره العقائدية ليس فقط فيما يخص صكوك الغفران والمطهر بل فى مواضيع أرخرى[١] ولقد دعم حديثه باقتباسات من كتابات القديس بولس الرسول ثم من كتابات القديس أغسطينوس الذى كان يعتبره المفسر الأمين لبولس .

انتهت المنافسة فى جو هادىء لطيف ، على أن لوثر لم يستطع أن يقنع معارضيه من الدومينكان أتباع توما الأكوينى وخاصة كبار السن منهم الا أنه ترك فى نفوس الشباب تأثيراً عميقا جدا بل أن كثيرين منهم قرروا من تلك اللحظة تأييد لوثر تأييدا كليا . لقد كان من بين الطلبة الذين سمعوا لوثر وتأثروا به فى هذا اليوم مارتن بيسر (Martin Bucer)[٢] الذى أصبح من أعظم المصلحين فيما بعد فى ستراسبورج .[٣]

وبما أن لوثر لم يسحب هذه القرارات وصمم على التمسك بها فقد طلب منه أن يكتب الى البابا خطابا يشرح فيه موقفه . وبدأ لوثر دعوته الى فيتمبرج فى ١٥ مايو (أيار) ١٥١٨ فى الكتابة للبابا شارحا متحويات هذه الاحتجاجات والقصد منها ، ثم كتب أيضا خطابا يظهر فيه خضوعه الكامل له . كان لوثر فى ذلك الوقت يثق فى البابا كل الثقة . ولذلك شرح له فى ذلك المكتوب الطريقة التى استعملها بائعو الصكوك . وكيف أن هذا الأمر يعتبر عاراً وإهانة للمسيح . وكما طلب من رئيس اساقفة المانيا التدخل السريع لمنع هذه المهازل . فقد توسل الى البابا أيضا بأن يتدخل سريعا لمجد الرب وقد ختم لوثر خطابه بعبارات تدل على خضوعه واحترامه للبابا . ولطول الخطاب نقتبس منه الخاتمة فقد « ... أيها الأب الاقدس اننى ألقى بنفسى امام قداستكم خاضعا بكل مالي وبكل حالي احيونى أو أقتلونى ، أرفضوا أو اقبلوا

قضيتي واحكموا بخطيء أو بصوابي كما تشاءون وانني اقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلما عاملا فيكم فإن كنت استحق الموت فلن ارفضه .. لأن للرب الأرض وملؤها ، فليكن اسم الرب مباركا ، وليحفظكم الرب للأبد ، أمين »[٤] .

ومن يقرأ هذا الخطاب كله يلاحظ من أول وهلة خضوع لوثر التام للبابا ثم ثقته المطلقة فيه . وكيف لا يثق فيه وهو يعتقد بأن ليون رجل قد كرس حياته للخدمة وأنه نائب المسيح على الأرض ولا يعمل الا لمجد المسيح فلذلك يلقى بنفسه تحت قدمي هذا الرجل عارضا مشكلته عليه واثقا فيه وفى رسوليته وغيرته لمجد المسيح وحده . لقد ارسل لوثر تفسيره للاحتجاجات التى تدعي بالحلول أو القرارات[٥] ثم خطابه الموجه للبابا ، الى رئيسه وصديقه ستوبيتز وكتب هذا الأخير تقريره عن ماحدث فى مجمع هيدلبرج وأرسل الملف الى روما فوصل اليها فى نصف يونيو (حزيران) ١٥١٨ . ولما وصل ملف لوثر الى روما وأحيل الى بريرياس (Priearias) المسئول عن الشئون القانونية والمالية وقدم المسئول القانونى تقريره الآتى :

كل من يدعى بأن الكنيسة ليس لها الحق فى أن تتصرف وأن تسلك بالطريقة التى سلكت فيها فيما يختص بموضوع صكوك ا لغفران فهو هرطوق ويجب محاكمته . وقد استعمل بعض العبارات الجارحة فى وصفه للوثر (Stvohl 273)* .

وبناء على هذا التقرير أصدرت روما فى أول يوليو (تموز) أمرها الى لوثر لكي يحضر للمحاكمة فى خلال ستين يوما من استلامه الرسالة وهذه المدة لا تكفى الا لقطع المسافة بين فيتمبرج وروما وقد وصلت اليه فى السابع من اغسطس (آب) .

ترى هل يذهب لوثر الى روما ؟

هوامش الفصل التاسع

1. W1, 350, 374; I 160, 169.
2. Haurticq.
3. W Br. 1 75 p 174, 1, 46.

٤ - ميرل دوبينياه ص ١١٩ - ١٢٠ ، أ. موريسون ٤٧ - ٥٠

Strohl 272-273.
5. W 1 522-628, 9 181.
★ Stvohl 273.

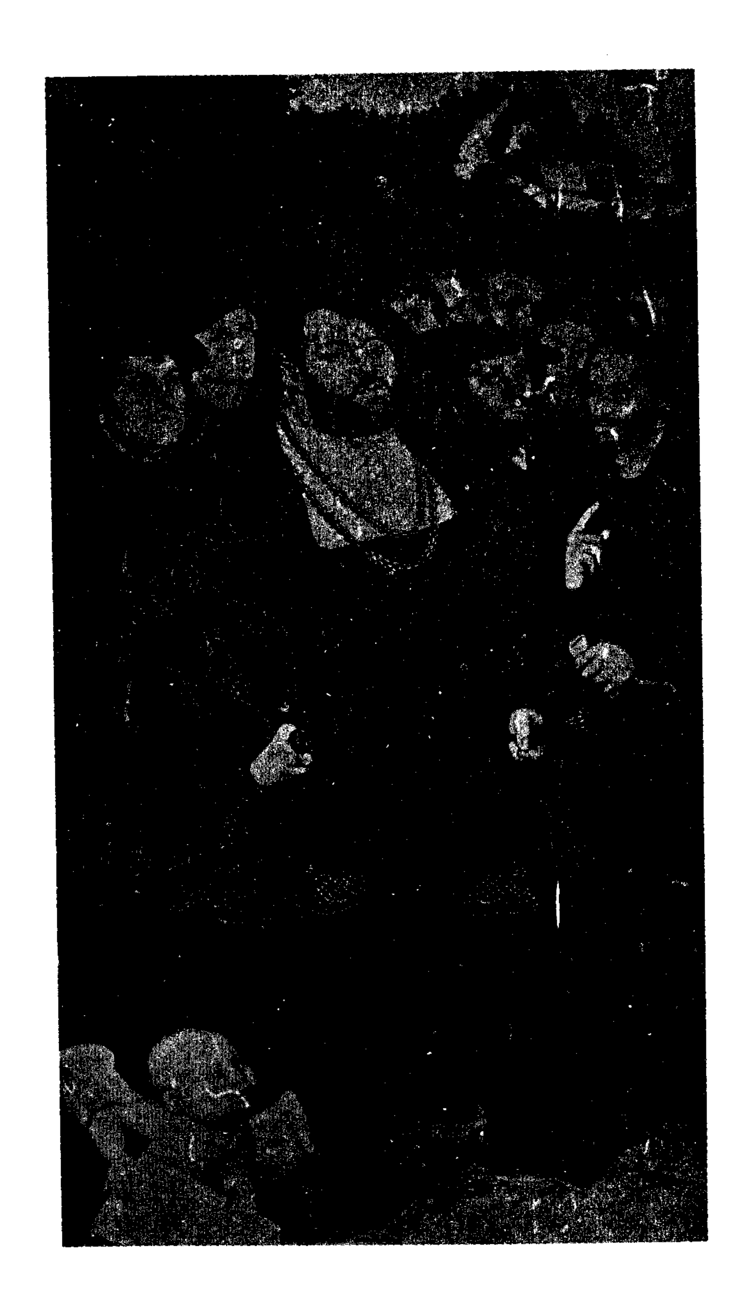
الفصل العاشر
لوثر امام الكاردينال كاجيتان (Cajetan)

كان لوثر لا يريد أن يحاكم امام محكمة رومانية ، بل أمام محكمة المانية ، ليس خوفا على حياته ، بل كان يعلم جيدا أن ذهابه الى روما يعنى قتل القضية ودفنها .

ولذلك فقد كتب الى حامية الملك فريدريك . كما أنه كتب الى صديق له يدعى سبالاتين (Spalatin) وكان زميلا له فى الدراسة واصبح سكرتير البلاط الملكى (Strohl 274)* .

اعتبر لوثر من ذلك الوقت هرطوقا ويجب أن يحاكم كهرطوقى ولذلك فقد وعد الامبراطور العجوز فاكسيمليان بمعاقبته ومطاردته كهرطوقى (Daniel Oliview 39-42) . ولقد كلف الكاردينال كاجتان للقيام بالاجراءات اللازمة لدى السلطات الألمانية لكى يسلمه للمحاكمة فى روما .

كان الكاردينال يعتقد بأن مهمة اخراج لوثر من المانيا ليحاكم فى روما ليست بالمهمة الصعبة ، إذ أن الامبراطور اظهر رغبته فى مقاومة كل الهرطقات ، فما كان عليه الا أن يقنع الأمير المنتخب فريدريك الساكسوني بتسليمه . وكان فريدريك رجلا نزيها شريفا ويحتل مكانة ممتازة فى الامبراطورية وكان أيضا متقدما في السن وسياسيا محنكاً . ولذلك كان يدرك تمام الادراك أن روما والامبراطور ماكسيميليان ، لن يتبعا سياسة العنف ليرغماه على تسليم لوثر للمحاكمة . على أن البلاط الرومانى حاول بطرق عديدة وبكل الوسائل ان يكسب هذا الامير الى جانبه . فقد استعمل الترغيب مرة والشدة اخرى . ولذلك ذهب الكاردينال كاجتان حاملا معه وعدا من البابا بمنح الأمير وردة الذهب : وهو أسمى نيشان تمنحه البابوية . كما أنه أسر له أيضا عن نية البابا فى ارسال كميات كبيرة من صكوك الغفران كان قد طلبها من عدة سنين[1] وبأسلوب دبلوماسى طلب منه أن يسلم له لوثر لكي يحاكم فى روما على هرطقته . وأمام هذا الطلب كان فريدريك رابط الجأش ، قوى العزيمة ، صلب كالصخر لا تلينه الوعود ولايهزه الوعيد، فأجاب الكاردينال بأن لوثر لايمكن أن يحاكم فى محكمة لاتعرف قانونا الا الكتب المقدسة . ولكن على أى حال لم يكن عنده مانع بان يتقابل قداسته مع لوثر فى مدينة أوجسبورج (Augsbourg) . وامام هذا الأمر الواقع لم يجد الكاردينال مناصا الا القبول ظانا بأنه يستطيع أن يقنه لوثر بأخطائه المزعومة فيسحب اعتراضاته وينكرها .



وعندئذ طلب الاذن من روما بمقابلة الراهب العاصي . ووافقته روما على المقابلة . على أن فريدريك اشترط على الكاردينال ألا يرغم لوثر على الانسحاب ان لم يرد هو نفسه ذلك . وعلى أن تكون المناقشة ودية . وحالاً أرسل الى لوثر خطابا يؤمن نية لوثر فى رحلة الذهاب من فيتمبرج الى اوجسبورج والعودة منها ويضمن سلامته .

كان لوثر يجهل بعض تفصيلات هذه الرحلة والشروط التى وضعها فريدريك لضمان سلامته فى الطريق ومقابلة كاجتان ، ولكنه كان لا يجهل ابدا أن رفضه سحب هذه الاعتراضات أو تمسكه بها سيقوده حتما الى الحكم عليه بالحرق . ولابد أن صورة بعض الذين حكمت الكنيسة بهرطقتهم . مثلت أمام عينيه وكتب اليه الاصدقاء والمحبون أن يمتنع عن الذهاب الى اوجسبورج ولكنه ثبت وجهه للذهاب اليها . وفى الطريق كتب الى صديق له يقول : « ليمت لوثر وليحيا المسيح »[٢] .

وصل لوثر الى هذه المدينة الغنية الجميلة التى اشتهرت بفرسانها وأمرائها والسلطات الكنسية فيها . وبدأت المقابلة بين الكاردينال كاجتان ممثل البابا والراهب لوثر فى يوم الثلاثاء الموافق ١٢ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥١٨ .

وقد استقبله العاهل الرسولي استقبالا حسنا . وبعد هذا الاستقبال اللطيف دخل الكاردينال فى طلب الموضوع .

وقد اتفق معظم المؤرخين والمتخصصين فى الدراسات اللوثرية على ان الطلب الأول الذى طلبه كاجتان من لوثر هو أن يتنازل عن تعاليمه التى نادى بها[٣] فقال له إذا كان هذا هو كل المطلوب منه عمله هناك فلماذا إذن القيام بهذه الرحلة الطويلة المتعبة والمرهقة وكان فى الامكان طرح هذا الطلب عليه فى فيتمبرج ؟!!!

كانت التعليمات التى تلقاها كاجتان من روما ، تأمره بعدم المناقشة لهذا فإن الكاردينال طالب لوثر بشيء واحد ولم يطلب أى شيء آخر غير ان ينكر صحة تعاليمه . فإن كل مايريده من الراهب هو أن يعلن خطأه فى تعليمه وتفسيره وانه مستعد أن يتراجع عما علم به . وأما لوثر فلم يكن ينتظر أى شيء إلا أن يقتنع من الكتب المقدسة ومن كتب الاباء بأنه على خطأ وعندئذ حاول كاجتان ان يلعب على الوتر الحساس فى المصلح فطلب منه أن يتراجع عن تعاليمه حتى تعيش الكنيسة فى سلام . وقد ردد عدة مرات هذه الكلمات : انسحب ، تراجع ، انكر هذه التعاليم كما ذكر ان البابا لا يريد إلا ذلك وعندئذ يرجع السلام الى الكنيسة والى لوثر أيضا . على أن لوثر طلب من الكاردينال أن يتكرم ويشرح له اخطاءه حتى يستطيع أن يتراجع عنها فإن لم تشرح له اخطاؤه وان لم يقتنع بالشرح الذى يجب أن يكون مدعما بما فى الكتب المقدسة وأقوال الآباء، فإنه لن يستطيع التراجع عنها ولا قيد أنملة . وأمام اصرار هذا

الراهب العنيد الذى سيلقبه فيما بعد بحيوان فيتمبرج بدأ الكاردينال يشرح للراهب بعض الأشياء التى علم بها لوثر والتى لا تتفق وتعاليم الكنيسة .

ومن الأخطاء الرئيسية فى رأى ممثل الكرسى البابوى انكاره كنز الكنيسة ، أى ان الكنيسة ليس من حقها أن تتصرف فى أعمال القديسين الزائدة (مشكلة التبرير بالايمان) هذا الأمر الذى أنكره لوثر فى الاحتجاج رقم ٥٨ الذى تمسك به أيضا فى القرارات التى أرسلها للبابا ، ثم تمسكه بفكرة أن فاعلية الفرائض المقدسة متوقفة على ايمان الشخص وليس على الفريضة فى حد ذاتها واعترض ايضا كاجتان على مفهوم لوثر لعصمة البابا . وهنا طلب لوثر امهاله يوما للتفكير فى الاجابة وقبل طلبه (Strohl 227) .

وفى يوم الأربعاء ١٣ اكتوبر (تشرين الأول) ظهر لوثر أمام الكاردينال كاجتان وقد صاحبه هذه المرة رئيس الاديرة الاغسطينية ، صديقه ستوبيتز ، وأربعة من النواب واثنان من المحامين بامر الملك فريدريك ، وكاتب قانونى . وقد قرأ الكاتب اقرار لوثر بأنه لايريد أن يقتنع من الكتب المقدسة . وعندئذ كرر الكاردينال كلامه : قائلاً بانه لايريد الا انسحاب لوثر واعترافه بأنه مخطىء . وهذا كل مايريده قداسة البابا . وأما لوثر فكرر بدوره أنه لايريد هو أيضا الا شيئاً واحداً وهو أن يقتنع باخطائه قبل ان يعترف بها[٤] .

وقال لوثر انه على استعداد لأن يقبل حكم جامعة بازل أو فريبورج أو لوفان أو باريسى . وعندما سمع كاجتان هذا الاقتراح لم يستطع أن يضبط نفسه ولا ان يحكم غيظه ضد هذا الراهب المتمرد العنيد ، وصرخ فيه قائلا : « انه لا يريد أن يتناقش معه ، وانه لم يأت الى هنا لكى يتناقش بل لكي يسمع اعترافا ويرى ندما وسأله ان كان مستعد أن يعترف بأخطائه ؟ » وخشى ستوبيتز ان تتطور الأمور فى المناقشة فتدخل حالا واقترح على الكاردينال أن يتفضل ويمنح لوثر فرصة أخرى يكتب فيها اعتقاداته ثم يتكرم بفحصها[٥] . كان كاجتان لا يريد أن يرجع الى روما دون حل ، فقبل اقتراح ستوبيتز .

وفى يوم الخميس الموافق ١٤ اكتوبر انتهز لوثر الفرصة لكى يشرح عقيدته فى موضوع سلطان البابا فهو يعتقد بأن المجمع فى حكمه يفوق سلطان البابا منفرداً بل أن شخصاً مؤمنا يعتمد على الكتاب المقدس ويرجع اليه فى احكامه وتفسيره يستطيع أن يثبت اخطاء البابا . ولكى يؤيد كلامه من المكتوب رجع الى قصة بطرس وبولس وقال ألم يوبخ بولس بطرس على خطأه علانية (غلا ٢ : ١١ – ١٧)[٦] ثم قال إنه لا يمكنه ان يقبل مايرفضه ضميره .

ثم تحدث عن الايمان الذي يحرر الانسان بالنعمة ؟ انه يخلق الانسان خليقة جديدة وهذه الخليقة الجديدة التى هى عمل الله تأتى بالثمار الصالحة .

وفى يوم الجمعة الموافق ١٥ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥١٨ جاء لوثر وقدم للكاردينال كاجتان اجابته مكتوبة ، اما الكاردينال فلم يتفضل الا بالقاء نظرة عابرة وسريعة جداً دون قراءة دقيقة للاجابات ثم بدأ من جديد ماقد بدأ به فى أول مقابلة له مع راهب فيتمبرج قائلا : « أأنت على استعداد ان تسحب أقوالك واحتجاجاتك وتعترف باخطائك أم لا ؟ » وكان رد لوثر أنه ان لم يثبت له من الكتاب المقدس ومن أقوال الآباء أخطاءه المزعومة فلن يتراجع . فصرخ الكاردينال فى وجه لوثر قائلا : « اختف من هنا ولا ترنى وجهك إلا إذا قررت الخضوع والاعتراف بأخطائك »[٧] .

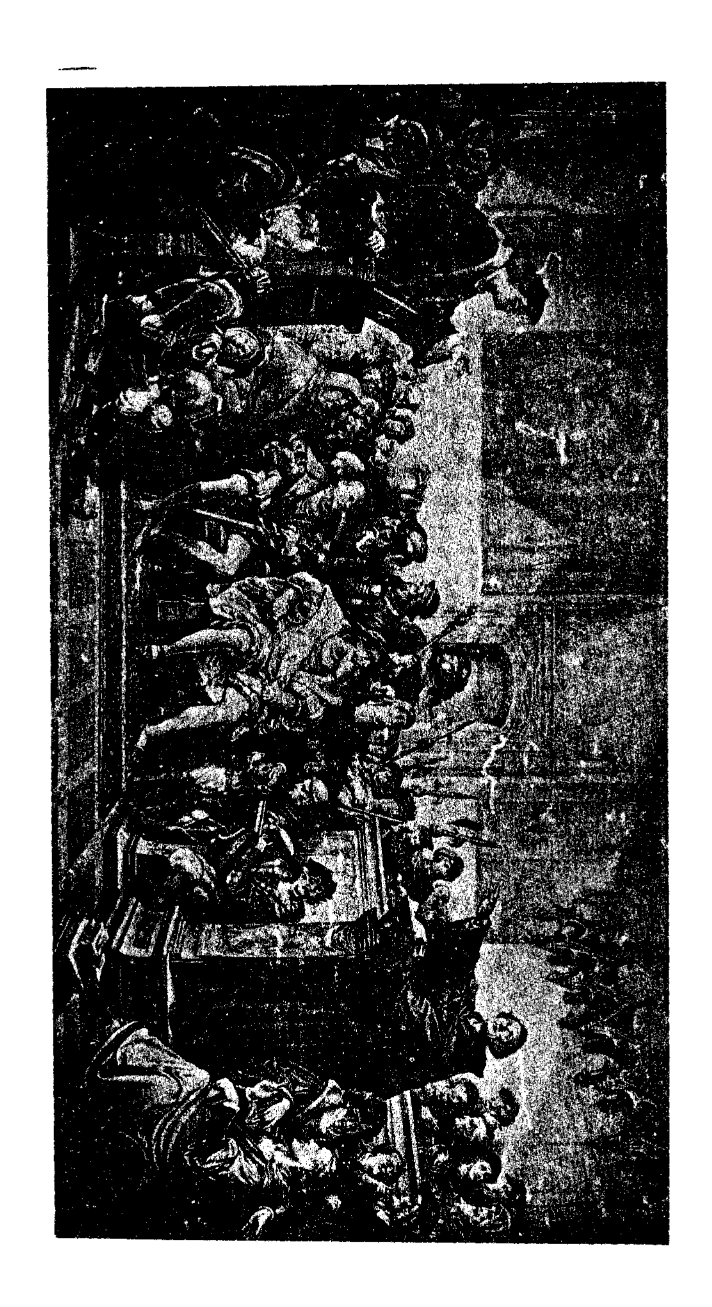
وفى مساء نفس اليوم طلب الكاردينال مقابلة ستوبيتز وطلب منه أن يستعمل كل سلطانه وتأثيره على لوثر لكى يجعله يتراجع . وكم كان هذا الموقف حرجاً ومؤلما وقاسيا على أب يحب ابنه ويعطف عليه . نعم لقد كان لقاء ستوبيتز مع لوثر فى ذلك المساء لقاء قاسيا . وطلب الأب الروحى من الابن الاعتدال وعدم المخاطرة واظهار روح الخضوع . وقبل لوثر إرضاء لأبيه الروحى أن يكتب خطابا فى ١٧ اكتوبر الى الكاردينال واعداً بالأ يتكلم فيما بعد عن مشكلة صكوك الغفران بشرط ألا يهاجم ثم أعلن ايضا استعداده بسحب كل ماكتب أو علم ، بشرط أن يقنعوه من الكتب المقدسة ومن أقوال الآباء بخطأ ماكتب أو علم (ميرل دوبينياه ١٥٤ — ١٥٥) .

كان ستوبيتز حائراً ومتألماً بخصوص لوثر وكان يفكر كيف يمكن أن يخرجه من هذا المأزق ؟ لقد فكر ستوبيتز فى عدة طرق لكي ينقذ ابنه الروحى من هذه الأزمة : هل يحسن ان يهرب لوثر الى باريس ؟ أم يخفيه فى مكان آمن ؟ وأخيراً فكر بأن يحله من نذوره ويطلقه ... وهكذا فعل .

وترك ستوبيتز ابنه مارتن لوثر فى أوجسبورج فى ١٦ اكتوبر . اما محامى لوثر فقد نصحه بأن يقدم طلباً مكتوباً قبل مغادرة المدينة باستئناف القضية لكي ينظر فيها من جديد رجال محايدون[٨] .

اما الكاردينال كاجتان فقد كتب خطابا الى الملك فريدريك يشرح فيه تفاصيل مقابلته مع لوثر ويلتمس منه أن يسلمه الى روما أو يطرده من مقاطعته ويحثه على القيام بواجبه كمسيحى وأن يسلم هذا الهرطوقى الى السلطة الكنسية لمحاكمته .

وفى يوم ١٤ ديسمبر (كانون الأول) كتب الملك فريدريك خطابا أظهر فيه دبلوماسيته وحزمه فقد ذكر للكاردينال بانه ليس فى حاجة الى من يعرفه بواجبه كمسيحى لانه مسيحى .[٩] وبخصوص موضوع لوثر قال انه سوف يعمل مافى وسعه لضمان صمته كما عرفه ايضا بانه سوف يجمع بعض الضرائب للمساهمة فى الحرب ضد الاتراك .



اما لوثر فقد وصل الى فيتمبرج في نهاية شهر اكتوبر وكان قد مضى على تعليق هذه الاحتجاجات سنة كاملة . وبالرغم من هذه المشاكل فان لوثر كان يواصل نشاطه فى التدريس ودراسة الكتاب المقدس بل أراد أن يتعمق فى دراسته اكثر فأكثر . ولذلك فقد بدأ يدرس باجتهاد اللغة اليونانية مع شاب نابه اسمه ملانكثون وصل الى فيتمبرج وانضم الى هيئة التدريس فى شهر اغسطس (آب) ١٥١٨ وهو الذى اصبح الذراع الأيمن للمصلح فيما بعد وبينما كان لوثر فى طريقه الى فيتمبرج وهو عائد الى أوجسبورج وجد خطابا فى انتظاره فى مدينة نورمبرج (Nuremberg) من صديقه وزميله سبالاتين سكرتير الملك فريدريك يعرفه بأن الأمر قد صدر بالقبض عليه وتسليمه الى روما كما عرفه أيضا بخطاب كاجتان للأمير الذى ارسله ليحثه على تسليم لوثر . وذكر سبالاتين فى خطابه بأن الأمير لا يريد أن يترك لوثر فيتمبرج[١٠] وفى ٨ مارس (آذار) عرف لوثر بان ميلتيتز (Miltitz) فى طريقه للحصول على إذن بالقبض عليه وتسليمه الى روما . ولأول مرة شعر لوثر بان روما ضد المسيح[١١] وهنا نشر مكتوبه لدعوة مجمع عام للنظر فى قضيته .

كان كارل فون ميلتيتز المانى الجنسية ، ذكيا وسياسيا محنكاً . ودبلوماسيا ماهراً بالرغم من صغر سنه ، وقد كلف من قبل البلاط الرومانى بان يذهب الى المانيا لاحضار لوثر للمحاكمة . وقد جاء لمقابلة الملك فريدريك حاملا فى احدى يديه سوطا وفى اليد الأخرى هدية .

وكانت الهدية هى تسليم الملك فريدريك وسام الوردة الذهبية . وعندما بدأ الكلام معه بخصوص تسليم لوثر الى روما نبه الملك – الذى كان اكثر دبلوماسية واطول خبرة وحنكة في الأمور السياسية – الدبلوماسي الشاب بأن الخطر سيكون عظيماً إذا هرب لوثر الى بوهيميا حيث يمكن ان يتجدد الصراع العقائدى والسياسى القديم . فاقتنع ميلتيتز بهذا الرأى . ولقد لاحظ الملك رغبة الشاب فى النجاح فى مهمته ولذلك أوحى اليه بان لوثر لا يطلب الا الاقتناع باخطائه . وربما إذا وجد رجلا حكيماً يمكن ان يقتنع . فطلب ميلتيتز مقابلة لوثر وهذا ماكن يسعى اليه الأمير إذا أنه كان يريد أن يثبت ان لوثر كان ومازال محقاً فى طلبه للمناقشة وليس الخضوع دون اقتناع .

وقد تقابل الرجلان يومى ٥ ، ٦ يناير (كانون الثانى) ١٥١٩ فى مدينة ألتنبرج (Altenbourg) وخرج ميلتيتز بانطباعات طيبة من هذه المقابلة . ونتيجة لهذه المقابلة قبل لوثر ألا يتكلم فيما بعد عن صكوك الغفران شريطة الا يهاجم[١٢] وطلب ميلتيتز الى البابا دون ان يستشير كاجتان ان يسند هذه القضية الى قضاة المان للحكم فيها . لكن آك نشر هجوما فى ٢٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٥١٨ ضد أحد زملاء لوثر وهو الدكتور كارلستادت (Carlstadt) وفى حقيقة الأمر لم يكن كارلستادت هو المقصود بهذا النقد بل لوثر نفسه وكان

هذا الهجوم حلا للوثر من العهد الذى قطعه مع ملتيتز وأصبح حراً فى الدفاع عن آرائه ضد هذا الهجوم ، ولم يعرف لوثر بموضوع آك الا بعد اجتماع ٦ يناير (كانون الثانى) وظل الصراع بين آك وكارلستادت مستمراً .

ثم جاء موت الامبراطور ماكسيمليان فى يوم ١١ يناير (كانون الثانى) بمثابة هدنة مؤقتة لوقف هذا الصراع بين الطرفين فقد احتل موت الامبراطور العجوز ماكسيمليان وانتخاب امبراطور جديد المكانة الأولى فى عقول الناس وأنقسم امراء وملوك الامبراطورية فقد أيد بعضهم شارك الأسبانى بينما أيد الآخرون فرانسوا الأول . كما إنقسم الامراء فيما بينهم على تعيين الامبراطور الرومانى ، فإن البلاط الرومانى كان فى حيرة : يميل تارة الى الواحد وتارة الى الاخر[١٣] وإنتهت هذه المعارك السياسية بانتخاب شارل الأول ملك اسبانيا والذى حكم المانيا باسم شارل الخامس . وهو حفيد الامبراطور ماكسيمليان[١٤] وعندما تربع الامبراطور الجديد على عرش هذه الامبراطورية المترامية الاطراف كان فى التاسعة عشر من عمره . وقد انتخب فى يوم ٢٨ يوليو (تموز) ١٥١٩[١٥] .

هوامش الفصل العاشر

* لا نعرف الا القليل كيف بدأت العلاقة بين لوثر والملك فريدريك ، فإن البعض يعتقد بأن ملك ساكسونيا (فريدريك) سمع مرة لوثر يعظ فاعجب به وقال ان هذا الراهب ليس انسانا جاهلا فارتبط به من ذلك الوقت (Daniel Olivier, 28) ويقول البعض الآخر بأنه لم يره الا مرة واحدة (G. Casalis) والبعض الآخر يعتقد بأنه لم يتكلم مع المصلح اكثر من عشرين دقيقة (Greiner 61, Bainton 69) وعلى مايبدو فإن الملك فريدريك كان يحب لوثر ويحترمه كثيراً فهو الذى سهل له وسيلة السفر والعناية بحراسته فى رحلته الى هيدلبرج ومن تلك اللحظة لم يتخل الملك فريدريك عن الدفاع عن المصلح والوقوف بجانبه .

1. Strohl P. 267, Strohl sa vie, p. 128.
2. W BR 1 96.
3. R. Bainton P. 69-71, Greiner un Pass.. 34-38; Daniel Oliver 60-62; Strohl sa vie 128.
4. Strohl P. 267-278. Hourticq P. 41-43.
5. W2 9-16.
6. W2 10-12.
7. Daniel Olivier P. 63-66.
8. W. Br. 1, 104 P. 123.
9. Strohl P. 281-285.
10. W. Br 1, 116; 1 118.
11. W. Br 1, 121.
12. Strohl P. 130-131.
13. Strohl sa vie, P. 133.
14. Greiner un Pass. .... 36-37.
15. Strohl 286.

الفصل الحادى عشر

حوار مفتوح فى مدينة ليبزج (Leipzig)

ظهر منافس جديد للمصلح وهو الدكتور آك (Eck) الذى شن هجوما عقائديا عنيفا ضد الدكتور كارلستادت ، وكان أستاذاً فى جامعة فيتمبرج وصديقاً حميما للوثر . وعندما بدأ الدكتور آك فى انتقاداته لتعاليم كارلستادت كان فى الحقيقة يريد أن يسحب مارتن لوثر الى المناقشة معه ، إذ أنه كان يعتقد دون أن يصرح بذلك علانية أن الطريقة التى اتبعها كاجتان طريقة غير صحيحة وأنه هو الشخص الكفء الذى فى استطاعته أن يناقش لوثر وأن يوقفه عنده حده . وقد تحدد ميعاد ومكان الاجتماع لحوار مفتوح بين العميد آك والدكتور كارلستادت . وابتداء من ٢٢ يونيو (حزيران) ١٥١٩ توافدت الجماهير على مدينة ليبيزج وتوجه أساتذة وطلبة جامعة فيتمبرج الى هذه المدينة وكان عدد كبير منهم مسلحين[١] بدأ الحوار فى الاسبوع الأول[٢] بين الدكتور آك وبين الدكتور كارلستادت كان آك قوى الذاكرة حاد الذكاء عليم بأقوال الآباء وتعاليمهم متبحرا فى دراسة قرارات المجامع ، كما أنه كان خطيباً مفوها . أما كارلستادت فقد تميز بمعرفته الكتب المقدسة معرفة جيدة . وقد تعمق فى دراستها وفهمها وبعد خطاب الافتتاح الذى القاه (موزيلانوس) (Mosellanus) عميد جامعة ليبيزج بدأ الحوار بعد الظهر . وكان المتكلم الأول هو الدكتور آك واستطاع ان يجذب انتباه عدد كبير بسلاسة أسلوبه وقوة حجته وتمكنه من معرفة أقوال الآباء أما كارلستادت فكان يستشهد فى خطابه بعدد كبير من الكتب فى جمعها ووضعها أمامه . وكان موضوع النقاش فى هذه الايام مركزاً على مشكلة حرية الارادة .

وفى يوم الأحد الموافق ٢٩ يونيو (حزيران) طلب دون بارنيم (Barnim) من لوثر أن يعظ فى الكنيسة للشعب الذى جاء معه من فيتمبرج وكانت عظته من انجيل متى ١٦ : ١٣ –٢٠ ولقد ترك تأثيراً قويا وعميقاً لدرجة أن السلطات منعته من الوعظ مرة ثانية هناك .

ظل الحوار بين اك وكارلستادت وان كان تفوق آك ورجحان كفته ظاهراً . وفى يوم ٤ يوليو وهو اليوم الذى كان ينتظره آك بفارغ الصبر من عدة شهور لمناقشة الدكتور مارتن لوثر ودار الحوار لمدة خمسة أيام حول سلطة البابا . وحاول آك أن يستخدم اقوال الآباء فى اقناع لوثر وشدد آك على ان الذى لا يعترف بسلطان بابا روما لا يعتبر عضوا فى كنيسة

يسوع المسيح . وعندئذ سأله لوثر ماذا تقول إذاً فى الذين قدموا حياتهم وعاشوا الايمان المسيحى بكل تقوى وقداسة ؟ لا بل استشهد من اجل اسمه فى الكنائس الشرقية ؟ واستطرد أيضا يقول : مارأيك فى موقف بولس الذى وبخ بطرس علانية ، هل كان بطرس معصوما من الخطأ ؟ وواصل دفاعه بالقول : ومارأيك فى المجامع فقد حكم الواحد على الآخر وحرمه ، فمن هو الحارم الحقيقى ومن هو المحروم الحقيقى ؟ .. وفى نهاية الأمر وجه لوثر انظار السامعين الى الأساس الثابت القوي المتين وهو الكتاب المقدس ، الكتاب الوحيد المعصوم الذى يجب أن يرجع اليه المؤمن لأنه كلمة الله .

وفى الاسبوع التالى واصل كارلستادت حواره مع آك وانتهى النقاش فى يوم ١٥ يوليو (تموز) ١٥١٩ . ويعتبر هذا الحوار نقطة من النقاط التى وسعت الفجوة بين الفريقين . ومع أن السامعين أحسوا فى أحيان كثيرة أن لوثر كان قويا فى حجته عميقا فى تفكيره جديداً فى أسلوبه روحيا فى كلامه ، الا أن لوثر نفسه اعترف بانه لم يكن بالقوة التى كان ينتظرها وبالرغم من اعترافه هذا فقد تغير اتجاه عدد لابأس به من الحاضرين وقبلوا افكاره الجديدة بفضل هذه المناقشات ، على رأسهم السكرتير الخاص للدكتور آك[٣] ولكن للأمانة العلمية يجب أن نعترف بأن آك قد أحرز بعض النجاح فى هذا الحوار لكنه بالغ فيه مبالغة كبيرة جداً عندما حمل بنفسه خبر هذا النجاح الى روما .

لم يستطع الكونت جورج دفع المبلغ الذى طلبته جامعة باريس لبحث الحوار الذى دار فى مدينة ليبزج بين الدكتور آك وكارلستادت ولوثر ولذلك لم تقم جامعة باريس بدراسته وتقديم رأيها فيه وأما جامعتا كولوني ولوفان فقد قدمتا تقريراً دون أى مقابل تحكمان فيه بهرطقة لوثر[٤] .

ولقد أعتبر آك حوار ليبزج نجاحاً شخصياً عظيماً . ولذلك فقد انطلق الى روما وبدأ فى تحريك الأمور واثارة النفوس ضد لوثر . فعندما وصل يوم ١٥ مارس (آذار) قبله البابا ليون بفرح عظيم . واعتبره الرجل الذى يجب الرجوع اليه في هذا الموضوع . وتكونت لجنة جديدة للحكم على لوثر ضمت كل من أكوليتى (Accolite) وكاجتان (Cajetane) وآك (Eck)[٥] . ولقد كلف آك باكمال قائمة أخطاء لوثر . وفى يوم ١٥ يونيو (حزيران) ١٥٢٠ صدر القرار الذى يهدد بحرمان لوثر إذا لم يعترف بأخطائه وهرطقته فى غضون ستين يوما ولقد منح آك سلطانا مطلقا لتنفيذ هذا القرار وتطبيق الحرمان على كل من يعترض على تنفيذه .

هوامش الفصل الحادى عشر

1. Deniel Olivier 46-50; Deniel Olivier 105.

(٢) لقد انقلبت عربة كارلستادت عند وصوله الى المدينة على أن هذه الحادثة لم تعطل الحوار .

3. Haurticq P. 49.
4. Daniel Olivier p. 118-119.
5. Daniel Olivier, P. 133.

الفصل الثانى عشر

انفصال لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية

منذ أن بدأت الأزمات تواجه لوثر وحتى شهر ديسمبر سنة ١٥١٩ لم يفكر المصلح ولم يحاول أن يترك الكنيسة الكاثوليكية . فعندما كان يتصارع ضد مخاوفه وقلقه واضطراباته وهو طالب كان يصارع ويناضل للحصول على خلاصه فى الكنيسة ولما لم يجد حلا لمشكلته الروحية أثناء دراسته الثانوية التحق بالدير واستمر فى الصلاة والبحث ليحصل على الخلاص عن طريق الصلوات والفروض والطقوس التى عملت بها الكنيسة . فى أثناء هذه المراحل كان لوثر يؤمن بان الخلاص الذى يبحث عنه هو فى الكنيسة ، ولا يجب أن يبحث عنه الا فى داخلها . وحتى بعد أن دخل النور الى قلبه فجدده ، وبعد أن اكتشف الاكتشاف العظيم : وهو ان الخلاص بالايمان والاعتماد على شخص الرب يسوع المسيح وحده وليس باعمال لكى لا يفتخر أحد ، لم يفكر لوثر ولا لحظة واحدة ان يهجر الكنيسة المحبوبة . بل نراه راهبا مطيعاً لرؤسائه وكاهنا مثاليا واستاذاً قديراً فى محاضراته وتدريسه . وفى الكنيسة أدركته نعمة الله ، وفيها أيضا أراد هذا المصلح العظيم أن يعلن انجيل المسيح الذى هو قوة الله للخلاص لكل من يؤمن (رو ١ : ١٦ - ١٧) .

كان لوثر ابنا مطيعاً ومخلصاً للكنيسة ، ولهذا السبب فقد ظل داخلها ولم يحاول تركها كما أنه كان يثق ثقة تكاد تكون ثقة عمياء فى البابا . كان يحب هذا الرجل ويكن له كل الاحترام والتقدير والخضوع . كما كان يحب ويقدر ويحترم رؤساءه رهبانا كانوا أو كهنة أو اساقفة . واستمرت هذه الثقة فى رؤسائه . تملأ قلبه وفكره . ومن منطلق ثقته فى رؤسائه ومحبته للكنيسة واخلاصه لها علق لوثر الخمسة والتسعين بنداً على باب كاتدرائية فيتمبرج مطالبا الكنيسة والمسئولين فيها باستبعاد كل عقيدة لا تتفق وطهارة تعاليمها الرسولية ولأجل ذلك فقد كتب مخلصا الى رئيس اساقفة منطقته . وكذلك الى البابا وآخرين . وقد اعتقد فى ذلك الوقت بان مايقوم به سيلاقى بلا شك تشجيعاً وترحيباً عظيمين . ولكن للأسف الشديد ، لم يجد منهم ترحيبا ولا تشجيعاً . وعلى قدر مابذل هذا الشاب من جهده فى اصلاح هذه الكنيسة من الداخل على قدر ماكان يرى الكنيسة ترفض هذا الاصلاح ، بل تحتقره وتضطهده . ولقد استطاع ان يحتفظ بمحبته العميقة للبابا واحترامه له مدة طويلة (ميرل بو ٢٢١ - ٢٢٣) . وقد شجعه على الاحتفاظ بهذه المحبة للبابا ليون العاشر اعتقاده بأن الأخبار

لا تصل اليه الا مشوهة أو أنه لا يعرف الا الناحية السلبية من الموضوع . وهذا ا لأمر كان صحيحا جزئيا الا أن ثقته فى بعض المسئولين بدأت تهتز ، حتى فى البابا نفسه عندما علم بخبر وصول ميليتيز لكى يحضره الى روما للمحاكمة . لقد قام الدومينيكان بحرب شعواء ضده وكذلك الكاردينال كاجتان وآك والآن ميليتيز . كل هؤلاء جندوا أنفسهم لكى يجروه جراًالى روما لا لكى يدافع عن مايؤمن به بطريقة ديمقراطية حرة ، بل لكي يلصقوا به تهمة الهرطقة .

ولقد اتفق بعض المؤرخين على ان ثقة لوثر فى البابا بدأت تهتز اهتزازاً عنيفاً بل تزول تماما عندما علم فى يوم ٨ ديسمبر بوصول ميلتيتز الى المانيا للقبض عليه . ففى هذا اليوم ولاول مرة خطرت له فكرة ان البابا هو ضد المسيح[1] .

بدأت هذه الفكرة تختمر وتكبر فى رأسه وكانت الحوادث التى مرت به ، وصراعه العنيف مع الكنيسة ومع قادتها والمسئولين فيها يقوى اعتقاده بهذه الفكرة . ومما ساعد أيضا على نمو هذه الفكرة فى ذهنه ، هو موقف الكنيسة والبابا بعد مناقشة ليبيزج . فقد ذهب آك الى روما لكي يعلن بنفسه هذا النصر العظيم الذي استطاع به أن يحطم لوتر . ولقد استقبله البابا استقبالا رائعا وكون حالا لجنة جديدة لكى تدرس موضوع حرمان لوثر . وهذا ماكان يسعى اليه آك . فاصبح عضوا فى هذه اللجنة التى ضمت معلمين لاهوتيين وقانونيين وبعد دراسات طويلة واجتماعات عديدة . صدر القرار بحرمان لوثر فى يوم ١٥ يونيو (حزيران) ١٥٢٠ وأرسل فى يوم ٢٣ من نفس الشهر ونشر فى اغسطس واصبح نافذ المفعول فى اكتوبر .[2] وعلى مايعتقد البعض أن نص الحرمان – أو على الأقل جزء كبير منه كان من تأليف آك . وقيل أيضا انه قدم هذا النص على البابا لكى يوقع عليه عندما كان البابا يقضى فترة استجمام وراحة فى منزل خاص ويقضى أوقاته فى الصيد . (Daniel Olivier 134) وفى مقدمة قرار الحرمان صلاة كتبها البابا ومنها : « ... قم يارب وانصر حقك ضد الثعالب المفترسة التى تعمل على تخريب كرمك ، ضد الوحوش البرية التى تدمره ... قم يابطرس وأذكر كنيستك الرومانية المقدسة .. قوموا ياجميع القديسين وتضرعوا الى الله » (أ . موريسون ٦٩ ، م . دوبينياه ٢١٤ – ٢١٥) وبعد هذه الصلاة يجيء نص الحرمان الذى يحتوى على الرد على ٤١ احتجاجاً من احتجاجات لوثر التى حكمت الكنيسة بهرطقتها .

(١) ان يعلن خطأً تعاليمه فى غضون شهرين من استلام هذا الحرمان .
(٢) ان يمتنع عن الوعظ والتعليم والكتابة والنشر .
(٣) ان يحرق كتبه التى كتبها .

هذا الحرم الصادر ضد مارتن لوثر ينطبق أيضا على كل الذين يتعاونون معه أو يدافعون

عنه كما حث القرار كل الكاثوليك ، ليس فقط على رفض تعاليمه بل ، على عدم التعامل مع كل من يعتنق مذهبه[٣] وقد انتشر هذا الخبر فى المانيا انتشار البرق فى سرعته . وخاصة ان الذين تولوا نشره أمثال آك كانوا مغرضين .

ماذا يعمل لوثر إذاً ؟

لقد سبق أن شرحنا أن لوثر كان يحاول حتى ذلك الوقت ان يوصل انجيل الخلاص للكنيسة ، كان يحاول أن يبشر فى الكنيسة وان يصلحها . ولم يحاول قط ان يهاجم لأنه كان يكن لها حبا عميقاً . أما الآن فقد تغير فكره ، إذ انه وجد أن الكنيسة لا ترفض الاصلاح فقط ، بل انها تريد قتله والوقوف ضده حتى لا يقوم بالتبشير ، وفى نفس الوقت فقد سمع بأخبار اجتماع آك مع البابا فى روما ، ثم سمع ايضا باخبار الحرمان .

ماذا يعمل لوثر ؟

أمام هذه المشاكل والاضطرابات .



هوامش الفصل الثانى عشر

1. W. Br, 1, 121. P. 270, 1. 12, Strohl, 283.

للتوسع فى دراسة وبحث هذا الموضوع يجب الرجوع الى هذه الشواهد .

Yoes congar, Martin Luther-Sa Foi; Sa Ke'forme, etudes le thèobogiè historique Les editions du CERF P. 56-58.

2. Hourticq Notes 17.

أ . موريسون ص ٧٠ ، ٧١ - دوبينياه ص ٢١٤ - ٢١٥

3. Daniel Olivier P. 130-140.

الفصل الثالث عشر

كتابات لوثر العظمى

كانت هذه الفترة بالنسبة للوثر فترة تعب وارهاق وانتاج عظيم ، فبالرغم من هذه الاضطرابات والتهديدات لم يكف لوثر عن القيام بالتدريس والزيارات والكتابة والتأليف . فقد قام فى ذلك العام بكتابة ثلاث كتيبات تدعى « كتابات المصلح العظمى » . وعظمة هذه الكتيبات ليست فى كبر حجمها بل فى معناها والرسالة التى احتوت عليها هذه الكتيبات . لقد كتبت ونشرت فى ظروف دينية وسياسية واجتماعية معينة . والمنشور الأول من هذه المنشورات عنوانه :

الكتيب الأول : الى الأمة المسيحية الألمانية النبيلة

لقد خرج هذا الكتيب من ا لمطبعة فى شهر اغسطس (آب) ١٥٢٠ أى بعد انتهاء الحوار اللاهوتى الذى استمر اكثر من اسبوعين فى ليبيزج بين لوثر ومنافسيه .

وبعد انتخاب الامبراطور الجديد شارل الخامس (Greiner. 72) .

محتويات هذا الكتيب :

يقول لوثر فى مقدمته : « مضى وقت الصمت وجاءوقت الكلام »[١] وكان يريد بهذه الجملة ان يلفت نظر اصدقاءه ومنافسيه الى أن وقت الصمت والطاعة العمياء والخضوع الذى لا فائدة منه ، قد مضى وجاء الوقت الذى يجب ان يتكلم فيه فلا فائدة من الصمت (ارميا ٢٠ : ١٧ — ٩) ولقد كتب لوثر هذا المكتوب باللغة الألمانية لغة الشعب وتخاطفه القراء حال ظهوره . لدرجة ان الـ ٤٠٠٠ نسخة التى ظهرت منه اختفت خلال الستة أيام الأولى من ظهورها[٢] .

وقد دعا لوثر فى هذا الكتيب الأمة الألمانية كلها ، وعلى رأسها الامبراطور الجديد والملوك والأمراء الى القيام بواجباتهم ليس تجاه المدينة التى انتخبوا لها فحسب بل أيضا للقيام بواجباتهم الروحية التى تتطلب اصلاحا جذريا عجز المسئولون (الاكليروس) عن القيام به . ويستعمل لوثر فى هذا الكتاب لهجة وطنية مناشداً الشعب أن ينفض عن كاهله التدخل الاجنبى فى شئون الأمة الألمانية ، وأن يحمل بنفسه المسئولية فى قيادة الأمة والكنيسة . وقال إن الرومان قد وضعوا ثلاثة حواجز لكى يحتفظوا بالسلطان فى المانيا وهى :

(١) الحاجز الأول الذى تفرضه الكنيسة الرومانية هو أن السلطان الروحى فوق السلطان الزمنى فلقد طالبته كنيسة روما بخضوع الأباطرة والملوك والامراء للسلطة الروحية العليا ألا وهى سلطة البابا وسلطة الكنيسة ويرفض لوثر هذا المفهوم ويقول انه لا يوجد أمام الله اكليروس علمانيون فأن مجىء المسيح غير اوضاع كاهن العهد القديم لأن المسيح هو كاهن العهد الجديد : وهو الكاهن والذبيحة فى نفس الوقت كما انه دعا أيضا جميع المؤمنين الذين يقبلونه بالايمان أن يكونوا كهنة مثله فليس الكاهن المرتسم وحده الكاهن الحقيقى بل ان الكاهن الحقيقى هو الذى يقبل المسيح يسوع مخلصا وفاديا[٣] وهذا مايدعى بكهوت جميع المؤمنين ولقد اقتبس عدة فصول كتابية لكى يثبت فكرته هذه (رؤ ١ : ٦ ، ٥ : ١٠ ، ٢٠ : ٦ ، ابط ٢ : ٩) فهو يقول ان عبارة كاهن تساوى تماما فى المفهوم الكتابى مؤمن أو معمد أو مجدد (رو ١٢ : ١ ، عب ١٣ : ٥ ، ابط ١ : ٥ ، ٩)[٤] . فلا يوجد إذن فرق بين الاكليروس والشعب[٥] ولا توجد طبقة اكليروسية حاكمة مسيطرة وطبقة علمانية مسيطر عليها . كلنا ملوك وكهنة لله أبينا . لنا نفس الامتيازات وعلينا نفس الواجبات . وعلى كل مؤمن أن يقوم بالعمل الموكل اليه فالخادم يعمل كخادم والمدبر يعمل كمدبر والحاكم كحاكم ...الخ .. هذا هو الحاجز الأول الذى فرضته الكنيسة على الشعوب وحاول لوثر هدمه[٦] .

(٢) الحاجز الثانى الذى حاول هدمه هو حق الاحتفاظ بتفسير الكتاب للاكليروس فقط : فقد نادت الكنيسة بأن رجال الاكليروس فقط هم الذين لهم حق تفسير الكتاب المقدس . أما لوثر فقد نادى بان تفسير الكتاب المقدس لا يجب ان يكون حكرا على الاكليروس فقط ، بل للجميع ، لأن روح الله هو الذى يعمل فى القارىء كاهنا كان أو علمانيا عالما أو عاميا لكى يفهم المكتوب . فإن الله الذى جعل حماراً يتكلم لكى يوبخ نبيه الا يمكنه ان يتكلم على فم انسان تقى لكى يوبخ البابا ؟ فإن لوثر يدعو الجميع الى فتح الكتاب ليس فقط لقراءته بل لتفسيره أيضا .

(٣) أما الحاجز الثالث الذى حاول هدمه فهو الادعاء بان البابا وحده له الحق فى دعوة المجمع فيقول ان الذى دعى لانعقاد أول مجمع فى التاريخ هم الرسل كلهم وليس بطرس وحده كما ان البابا لم يكن هو الذى دعى لعقد مجمع نيقية أو صدق على قراراته .

لكن بعد عملية الهدم التى قام بها لوثر فى كتاباته فانه لا يترك الانقاض ، بل يحاول أن يبنى مجتمعا جديداً . فهو يدعوه لاصلاح الادارة العامة فى روما . وينادى ايضا باصلاح التعليم وتنظيم المساعدات الاجتماعية والعمل على تنظيم الكنيسة بطريقة أخرى .

الكتيب الثانى : الأسر البابلى للكنيسة :

كان الكتيب الأول موجها الى الأمة الألمانية كلها وكتبه بلغه الشعب اما هذا الكتيب فانه يوجهه الى جماعة العلماء فى العلوم الدينية أى اللاهوتيين والى المثقفين ولذلك فقد كتبه باللغة اللاتينية . ولقد ظهر فى ٦ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٢٠[٧] . يقول فيه لوثر أن سلطة البابا مؤسسة على مفهوم خاطىء لعقيدة الفرائض* ولم يقبل لوثر من الفرائض السبع** التى علمت بها الكنيسة الا اثنتين :

وهما فريضة الأفخارستيا أو العشاء الربانى ، وفريضة المعمودية . كما أنه سمح بقبول فريضة التوبة كفريضة مهمة .

وقد تعرض لوثر فى هذا الكتيب لمسألة العشاء الربانى . وكان المصلح الالمانى الذى عاش فى القرن السادس عشر متمسكا بحضور المسيح فعليا وحقيقياً فى الخبز والخمر ، بدرجة تفوق عقيدة الكثيرين من الكاثوليك فى الوقت الحاضر . إذ أنه علم بطريقة واضحة وصريحة أن الخبز والخمر يحملان فيهما حقيقة وفعلا وليس بطريقة رمزية أو استعارية جسد ودم يسوع المسيح .

فعندما نطق السيد قائلاً : هذا هو جسدى ، وهذا هو دمى فإن جسد الرب ودمه حلا فعلا فى الخبز والخمر ، وان المؤمن عندما يأكل الخبز ويشرب الخمر إنما يأكل ويشرب جسد الرب يسوع ودمه . على أن لوثر رفض كليا وجزئياً عقيدة التحول (La Trr Hssvbstahtiation) إذ قال عنها انها فكرة غير كتابية الا انه يميل لاستعمال بعض الاصلاحات الأخرى مثل : Impanation أو Conssubstahtiation بمعنى الحضور المزدوج أو وجود شيئين فى وقت واحد فكان لوثر يعتقد بحلول المسيح فى الخبز والخمر ، وهذا الحلول هو حلول ازدواجى وليس بدلى : بمعنى أن جسد المسيح لا يحل محل الخبز والخمر بعد أن يختفى هذان العنصران عندما ينطق الكاهن بالكلام الجوهرى ، بل هو حلول ازدواجى بمعنى أن الخبز والخمر يظلان كما هما بدون تغير أو تحول والمسيح يحل فيهما . فهذه العملية تشبه عملية التجسد فإن اللاهوت لم يلاش الناسوت عندما حل فيه لكن حل كل ملء اللاهوت فى الناسوت واحتفظ كل منهما بطبيعته[٩] وبنفس الطريقة فإن الخبز يظل خبزاً والخمر يظل خمراً ويحل فيهما المسيح الذى نتناوله بالايمان عند ممارسة فريضة العشاء الربانى .

ان ما كان يخشاه لوثر فى مشكلة العشاء الربانى هو المفهوم الشعبى له وابعاد الناحية السحرية فيه . ففى كلامه عن المعمودية أو عن العشاء الربانى حاول ان يبرز بطريقة واضحة وصريحة بان فاعلية هاتين الفريضتين لاتنتج من ممارسة هذه الفرائض فى حد ذاتها : أى أن فريضة الأفخارستيا لا تحمل فى حد ذاتها النعمة أو الخلاص لكن فاعلية هذه الفرائض متوقفة


IOHANNS FRIDERICH
SIBILA
HUS

على موقف الشخص نفسه الذى يشترك فى الافخارستيا . أو فى العماد (إذ كان بالغا) . فإن الفرائض لا تمنح الخلاص ولا حتى هى ضرورية له بل أن هذه الفرائض تمارس كدليل على ان الانسان الذى يمارسها ينبغى أن يكون قد حصل على الخلاص .

فاننا لا نشترك فى العشاء الربانى لانه يمنحنا الخلاص ويعطى لنا الحياة الابدية بل اننا نشترك فى العشاء الربانى لانه من المفروض أن نكون قد خلصنا بالايمان الذى هو عطية الله قبل أن نتقدم لتناول العشاء الربانى إذ أن يسوع المسيح هو الذى يستطيع بروحه القدوس أن يعمل فى الانسان وان يقوده الى الخلاص ، لا الفرائض والفاعلية فى مفهوم لوثر لا تتوقف على من يمارسها بل على من يقبلها . ومما لاشك فيه أن فاعليتها تتوقف على روح الله فى الانسان ، ثم على الشخص الذى يشترك بالايمان فى الفريضة ويرفض لوثر الطريقة المتبعة حتى الآن فى الكنيسة الكاثوليكية وهى تقديم الخبز فقط للشعب وحرمانه من الكأس* ويطالب بان الشعب يجب أن يشترك فى الكأس أيضا : لأن المسيح حاضر حقيقة وفعلا فى هذا الخبز المكسور وهذا الخمر كما أنه حاضر فى كلمته التى ننطق بها . وهذا أمر فى غاية الأهمية .

الكتيب الثالث : الحرية المسيحية :

ذكرنا أن ميلتيتز (Miltitz) أراد مصالحة البابا مع لوثر ولم يفلح ، ولقد تألم جدا لتطور الأمور بينهما . على أنه لم ييأس قط ولذلك نراه يحاول مرة أخيرة لاجراء المصالحة بين الاثنين فاقترح على لوثر أن يرسل خطابا للبابا وبه نبذة صغيرة يشرح فيها ايمانه وعقيدته ، ثم اخلاصه وولاءه وانتهز المصلح هذه الفرصة وكتب فعلا هذا الكتيب الذى يدعى الحرية والمسيحية ، وقد كتبه وارسله الى البابا مع خطاب شخصى وهكذا نرى لوثر يمد يده مرة ثانية للبابا للمصالحة ولكن للأسف الشديد كان الوقت متأخراً إذ ان خبر قرار الحرمان كان قد انتشر فى كل المانيا وخارجها .

ولقد ظهر هذا ا لكتيب باللغة الالمانية واللاتينية ويشرح فيه لوثر مبدأين متناقضين هما :

(١) المسيحى انسان حر وسيد لكل الأشياء .

(٢) المسيحى خادم مطيع للجميع .

ولقد حاول لوثر أن يشرح أن الإنسان الذى حرره المسيح يسوع من كل خطاياه وأثامه أصبح حراً من الخطية وأصبح حراً أيضا من القلق والاضطرابات ومن الموت ومن الجحيم . والايمان بالمسيح يحرر الانسان بل يجعله ملكاً .

وهذا الانسان الذى حررته نعمة الله أصبح انساناً جديداً وخليقة جديدة . وهذه الخليقة الجديدة تثمر اثماراً صالحة . ان لوثر لا يرفض الاعمال الصالحة ، بل بالعكس أنه يشدد عليها

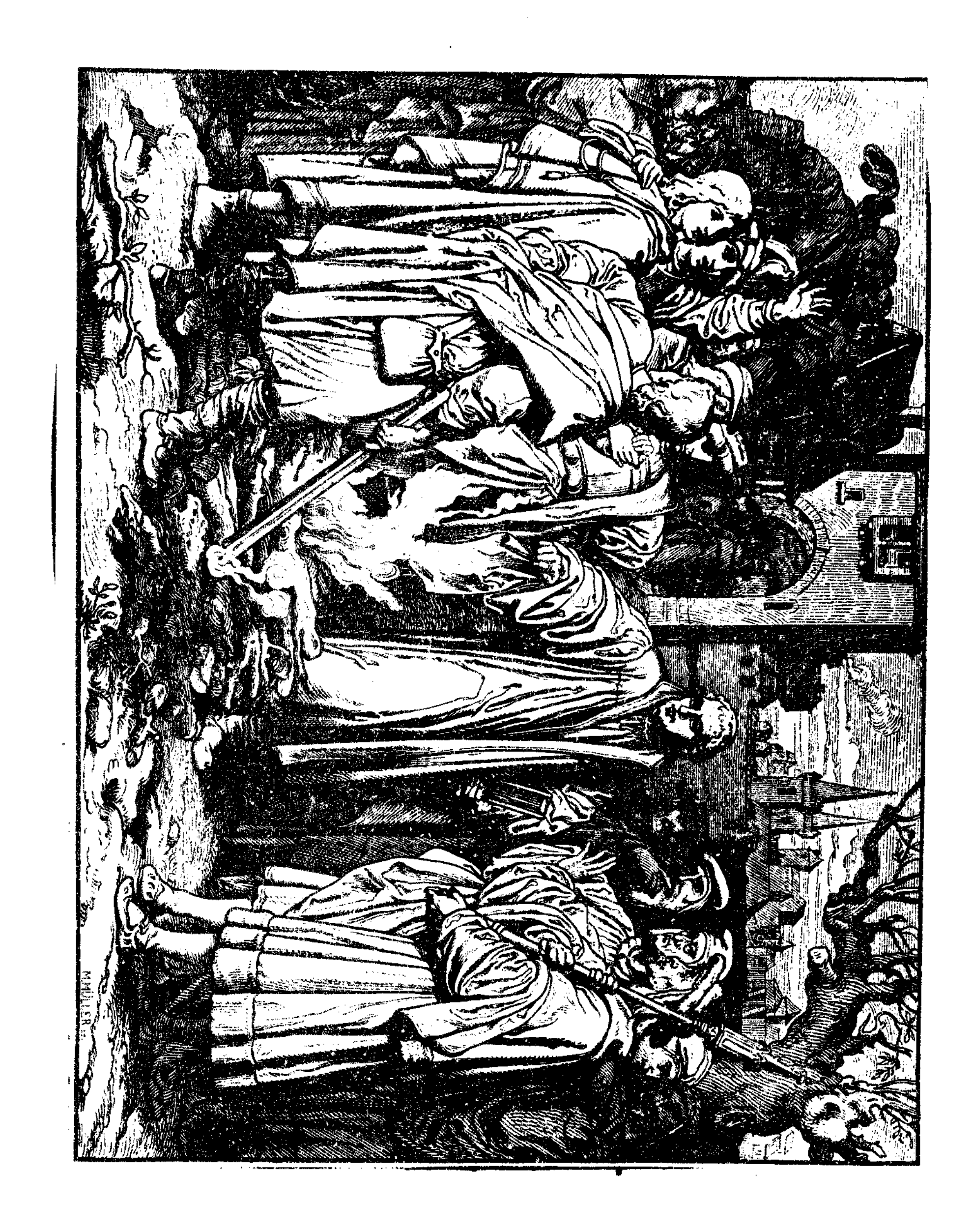
وعلى ضرورتها فى الحياة العملية واليومية لكنه يرفضها عندما يلتجىء اليها الانسان لكى يخلص بها ، فهو يقول : « إننا لا نرفض الاعمال الصالحة ولكننا نرفض فكرة أن الانسان فى استطاعته ان يخلص بأعماله الصالحة » (Greiner 88) فليست الأعمال الشريرة هى التى تجعل من الانسان انسانا شريراً أو رديئاً بل ان الانسان الشرير أو الردىء هو الذى يصنع الأشياء الرديئة وهذا يمكن تطبيقه ايضا فى موضوع البر والخلاص فليست الاعمال الصالحة هى التى تخلق من الانسان انسانا صالحاً وقديساً ، بل ان القديس هو الذى يعمل اعمالاً صالحة . وهذا يعنى ان الانسان الذى لمسته نعمة الله وتجدد وتبرر بالايمان مجانا يصبح انسانا جديداً عاملاً وليس خاملاً .

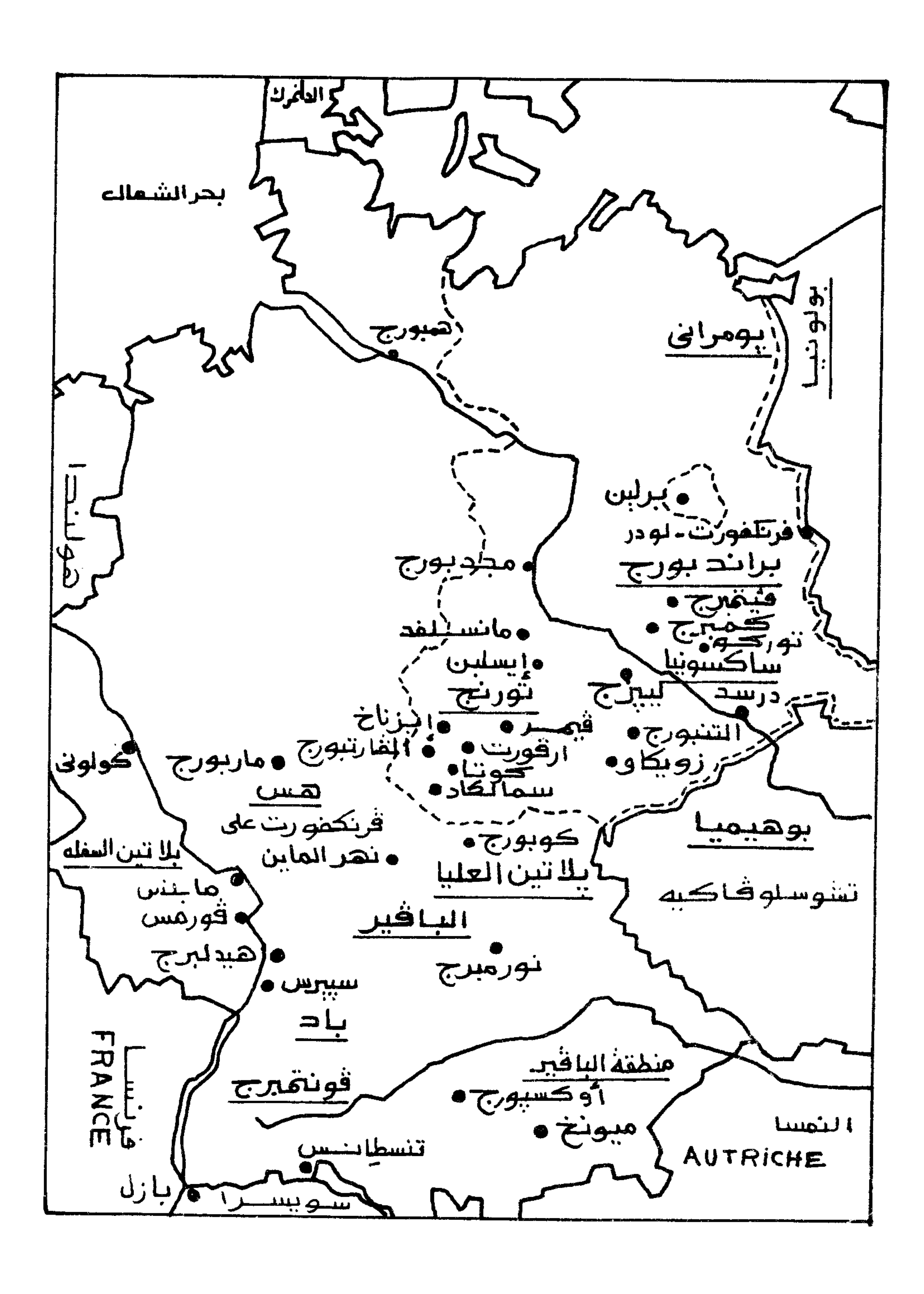
لوثر يحرق قرار الحرمان

قابل بعض الكاثوليك ، أمثال آك واتباعه ، منشور البابا الذى هدد فيه لوثر واتباعه بالحرمان بفرح عظيم . بل دفعت بهم الحماسة فى بعض المدن والقرى الى جمع كتابات لوثر التى كانت قد انتشرت بسرعة عجيبة فى طول البلاد وعرضها والقائها فى النار . بل أن بعضهم كان يهدد باكثر من ذلك ، وعندئذ بدأ الخوف يدب فى بعض الضعفاء . اما لوثر فكان ثابت العزم قوى الارادة راسخاً كالصخر أمام هذه الامواج المتلاطمة .

وفى يوم ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢٠ دعت هيئة التدريس فى فيتمبرج الأساتذة والأصدقاء وكل الذين يهمهم الأمر الى حضور اجتماع هام عام . ثم كلف بعض الطلبة باعداد حجرة كبيرة من النار . وخرجوا جميعا الى مكان خارج مدينة فيتمبرج كانت تحرق فيه عادة ملابس المرضى الذين أصيبوا بمرض الطاعون . وعندما وصلوا الى المكان تقدم لوثر أمام النيران المشتعلة والقى فيها أولا كتب القانون الكنسى ثم المنشور الذى كان يحتوى على تهديدات البابا له بالحرمان وقال : « بما أنك أحزنت روح القدوس (يقصد يسوع المسيح) لتلتهمك النيران » (دوبينياه ٢٣٢ - ٢٣٧) .

وبهذا أعلن لوثر خروجه واستقلاله عن الكنيسة الكاثوليكية التى لم تقبل الاصلاح الداخلى الذى حاول المصلح القيام به . وردا على هذا الفعل أصدر البابا ليون العاشر فى يوم ٣ يناير (كانون الثانى) ١٥٢١ حرمانا ضد لوثر واتباعه وبذلك قصد أن يعلن أن لوثر اعتبر هرطوقيا ومرفوضا من الكنيسة .





الدانمرك
بحر الشمال
همبورج
بومراني
بولونيا
هولندا
برلين
فرنكفورت - لودر
براند بورج
مجدبورج
فيتمبرج
كمبرج
نوركو
مانسفلد
ساكسونيا
إيسلبن
تورنج
ليبزج
درسد
إيزناخ
فيمر
التنبورج
الفارتبورج
ارفورت
زويكاو
كولوني
ماربورج
كوتا
سمالكاد
هس
فرنكفورت على
بوهيميا
نهر الماين
كوبورج
بلاتين السفلى
بلاتين العليا
ماينس
تشوسلوفاكيه
فورمس
البافير
هيدلبرج
نورمبرج
سبيرس
باد
FRANCE
فرنسا
منطقة البافير
فونتمبرج
أوكسبورج
ميونخ
النمسا
تنسطانس
AUTRICHE
بازل
سويسرا

هوامش الفصل الثالث عشر

1. E. Singmaster, P. 63-65.
2. G. Casalis P. 67, Daniel O. P. 145.
3. WAB, 415, 8, 422.
4. WA6, 369, 8, 420, 12, 158, 306.
5. Uilmos Vajta, Luther on Worship. 152.
6. Greiner 73-76, G. Casalis P. 67.

* لقد ترجم الكثيرون كلمة Sacrements باسرار وربما يعتبر هذا خطأ ويستحسن أن نستعمل لهذه الكلمة اما اصطلاح فرائض أو طقس والافضل فى نظرنا فريضة .

** ١ - فريضة الافخارستيا ٢ - العماد ٣ - التوبة ٤ - التثبيت ٥ - الكهنوت ٦ - الزواج ٧ - المسحة الاخيرة .

٧ - ميرون دوبينياه ٢١٨ ، D. Olivier 146,

ان استعمال الاصطلاح « استحالة » الذى تعود المفسرون فى بلادنا العربية على استعماله يبدو لنا خطأ لغويا : فإن كلمة استحالة لغويا تعبر عن عدم امكانية حدوث الشيء أو استحالته . على سبيل المثال نقول بان هذا الامر مستحيل تنفيذه . ولذلك نفضل استعمال كلمة التحول أو التغير الكلى لكى نعبر به عن فكرة أن الخبز والخمر تحولا الى جسد ودم الرب يسوع .

8. WA 30, 1, 232, 388.
9. WA 6. 511.

* كانت الكنائس الكاثوليكية تعطى الكأس والخبز معا للعلمانيين ، ولكن المجمع الذى عقد فى كنستانس Constance سنة ١٤١٥ قرر بان لا يعطى للعلمانيين الا الخبز فقط (Strohl. 206 Sa, Vie) .

** كتب لوثر كميات ضخمة جدا من التفاسير لايمكننا ان نتعرض لها هنا لكثرتها وتشعبها . (ان ماترجم الى الفرنسية والانجليزية فقط ، من اعماله ينيف على مئة مجلد ورسالة) .

الفصل الرابع عشر

فورمس « بوتقة التجربة »

مات الامبراطور ماكسيمليان فى ١٥ يناير (كانون الثانى) ١٥١٩ وانتخب الدايت (مجلس الأمة) فى ٢٨ يوليو ١٥١٩ حفيده شارل الأول ملك اسبانيا امبراطوراً للأمة الألمانية شارل الخامس وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره[١] . وقد شعر شارل بثقل المسئولية على كتفيه ، فهو صغير السن قليل الخبرة وأمامه امبراطورية ضخمة تعانى من مشاكل سياسية ودينية وطبقية وثقافية ... الخ ومن المشاكل التى كانت تتعرض لها المانيا فى ذلك الوقت مشاكل الاصلاح مثل مشكلة الراهب الاغسطينيى مارتن لوثر : وامام هذا الراهب انقسمت الامة . فالكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابا والاساقفة وبعض المنتخبين يعلنون هرطقته ويطالبون بمحاكمته فى روما ، وأما المنتخب فريدريك ملك ساكسونيا فيقف بجانبه يطالب بان يحاكم لوثر محاكمة قانونية فى محكمة المانية . بل كما أن البعض امثال هيتن (Hutten) حاولوا استغلال ظهور لوثر لكي يشعلوا نار الثورة (Greiner 72) . ماذا يعمل الامبراطور الصغير أمام كل هذه المشاكل ؟!!! وقد كان فريدريك ملك ساكسونيا رجلا حكيماً نزيها ويتمتع فى الدايت بسمعة طيبة وبسلطان لاينافس . وقد وقف هذا الرجل بكل ثقله السياسى والدينى والادبى والمالى فى جانب لوثر .

وكان الملك فريدريك يخاف كل الخوف أن يسلم لوثر الى السلطات الرومانية ليحاكم فى روما ولذا عرض على الامبراطور مشروع محاكمته فى المانيا . ولابد أن الامير الذي حنكته السنوات وصاغته وصقلته التجارب السياسية والكثيرة ساق البراهين الكافية حتى يقبل الامبراطور أن يحاكم لوثر أمام مجلس الأمة . ويحتمل أن يكون الملك فريدريك قد أقنع الامبراطور الشاب بأن محاكمة لوثر الالمانى فى محكمة المانية أمام الدايت هى خطوة سياسية عظيمة يستطيع أن يبرهن بها على استقلاله عن سلطة روما وسيطرتها وخاصة ان الظروف السياسية التى كانت تمر بها البلاد كانت تحتاج الى حكمة سياسية حتى يشعر المواطنون بضرورة التخلص من السلطة الرومانية ومنعها من التدخل فى الشئون الألمانية الداخلية . زد على ذلك أن شارل كان يعتقد بأن البابا وفرانسوا الأول يدبران مؤامرة ضده فى ايطاليا .

وبهذا استطاع الملك فريدريك ان يحصل على وعد من الامبراطور فى ٢٨ نوفمبر

(تشرين الثانى) ١٥٢٠ بأن يحاكم لوثر فى المانيا[٢] وعلى رأسهم جيرم اليندر ثم يوحنا آك (Jean Eck Jerome Aleandreer) بتنظيم حركة مقاومة مناهضة للاصلاح فقد كلفا مع آخرين بنشر المنشور الذى يهدد بحرمان لوثر[٣] كما أن اليندر استطاع هو ايضا ان يحصل من الامبراطور على إذن بحرق كتب لوثر وقام فعلا بحرق بعضها[٤] فى بعض المدن .

كانت هذه الافعال التى قام بها الطرفان : من الجانب الكاثوليكى ومن جانب الاصلاح من العوامل التى ساعدت على تأزم الموقف . فعندما امر البابا بتهديد لوثر بالحرمان استغل بعض الاساقفة هذا الأمر أسوأ استغلال وقاموا بحرق كتب لوثر فى بعض المدن كما ان لوثر من جانبه قام بحرق منشور البابا الذى كان يهدده بالحرمان . وهذا الصراع وضع المانيا فى موقف خطير .. موقف انقسام وحرب وخراب ودمار . وكان كل من الطرفين يحاول أن يسيطر على الموقف . فكما حصل ملك ساكسونيا على وعد من الامبراطور بمحاكمة لوثر أمام الدايت فان اليندر ممثل البابا حاول هو ايضا الغاء هذا الوعد وقام اليندر فى ١٧ ديسمبر (كانون الثانى) ١٥٢٠ بكتابة تقرير الى البابا عن الحالة فى المانيا وينصحه فيه بأن يكتب الى الامبراطور متعهداً بأن يكون على استعداد لتأييد وتدعيم سياسة الامبراطور فى ايطاليا على شرط ان ينهي المعارك الدينية فى المانيا . وكان البابا يعرف أن الدايت (مجلس الامة) سوف يعقد جلساته فى شهر يناير (كانون الثانى) ١٥٢١ ولذلك فقد أصدر قرار حرمان لوثر بتاريخ ٣ يناير ١٥٢١ حتى يصبح نافذ المفعول عند موافقة الامبراطور على هذه الاتفاقية . وكما أن الملك فريدريك حصل على موافقة الامبراطور ان يحاكم لوثر امام الدايت فإن القاصد الرسولى اليندر قام هو أيضا بنشاط مكثف وسريع . فقد أوحى الى الامبراطور الشاب بأن المانيا تحتاج الى القوة والحزم فى اتخاذ القرارات وان الامبراطور يجب أن يتصف بهذه الصفات ويجب أن تقوم فى بداية حكمك بما يلفت الأنظار . وأن العمل الذى يستطيع به جذب انتباه شعبه هو ارسال لوثر الى روما ومحاكمته هناك[٥] ولقد طلب أن يسمح له بالتحدث فى مجلس الأمة لكى يشرح موقف روما فى هذه القضية قبل مجلس الامة أن يتكلم الممثل الرسولى للبابا فى يوم ١٣ فبراير (شباط) ١٥٢١ . وكانت مهمة اليندر صعبة معقدة وحساسة إذ كان يجب عليه ان يبذل كل جهده فى اقناع مجلس الأمة ، ليس فقط بتسليم لوثر لكي يحاكم فى روما ، بل ان يثبت سلطان البابا الذى بدأ يهتز ويتزعزع فى المانيا . ولقد خطب القاصد الرسولى فى المجلس لمدة ثلاث ساعات[٦] مبينا للمجلس أنه ليس من حق مجلس أمة زمنى التدخل فى شئون الكنيسة الروحية ، فليس من حقه ولا من اختصاصاته أن يتدخل فى الحكم على هرطوق ، إذ انه غير مؤهل علميا للقيام بهذا العمل . وبعد أن قدم قائمة طويلة ليصف بها الهرطقات العديدة التى نادى بها لوثر . قدم قائمة أخرى ليصف بها الاعمال الثورية التى تبينها اتجاهات هذا الراهب وتبين مدى خطورته لا من الناحية الدينية فقط بل من الناحية السياسية أيضا

وقال انه يريد قلب الأوضاع القائمة . إذ انه لا يقبل ، سلطان البابا أو سلطان المجامع أنه يوحنا هس الجديد .

وطلب من مجلس الأمة ألا يضيع وقته الثمين فى مناقشة هذا الامر الذى سبق قداسة الآب ليون العاشر وأصدر حكمه فيه . بحرق كتب هذا الهرطوقى وحرمان كل من يتبع مذهبه .

بعد هذا الخطاب الطويل البليغ انقسم أعضاء المجلس،فقد رأى البعض أن لوثر يجب ان يحاكم أمام مجلس الأمة والبعض الآخر رأى أن يرسله الى روما . وبعد ستة أيام من تاريخ هذا الخطاب قرر المجلس أن يحضر لوثر الى فورمس لكى يحاكم أمام مجلس الامة (الدايت) . وطلب الامبراطور من الامير فريدريك أن يرسل دعوة للوثر ، إذ أنه واحد من رعاياه . على ان الملك التمس من الامبراطور أن يقدم هو نفسه الدعوة بصفته امبراطور الامبراطورية مع ارسال ضمان الأمان فى الذهاب والعودة .

وفى يوم ٦ مارس (آذار) أرسل الامبراطور بنفسه الى لوثر دعوة لحضور مجلس فورمس معنونة هكذا : « ايها المحبوب المكرم التقى الدكتور مارتن لوثر .... » ولقد حدد له فى هذه الدعوة ٢١ يوما للحضور وقبل ان تصل الدعوة الى لوثر فى فيتمبرج فى ٢٦ مارس (آذار) سارع صديقه سبالاتين سكرتير ملك ساكسونيا فأخبره بالأمر .

لقد سيطر الخوف والقلق والانزعاج على معظم الأخوة فى فيتمبرج . ولما علم أصدقاء لوثر فى كل مكان بخبر ذهابه للمحاكمة تذكر الجميع قصة يوحنا هس وذهابه للمحاكمة فى تنستانس وكيف أنه حكم عليه بالموت حرقاً ، وتم حرقه فعلا بالرغم من ضمان الأمان الذى سلمه له الامبراطور سيجيسموند (Sigismonad) .

كان لوثر واصدقاؤه يدركون هذا الخطر كل الادراك لذلك حاول اصدقاؤه بكل الوسائل أن يمنعوه عن الذهاب الى فورمس فقال لهم بصوت يملؤه الايمان العميق : « ساذهب الى فورمس ولن أتراجع حتى لو أصبح عدد الشياطين هناك اكثر من عدد قطع القرميد فوق سطح المنازل » . وبدأ يعزى اصدقاؤه بالقول : « إنهم استطاعوا قتل يوحنا هس ولكنهم لم يستطيعوا قتل الحقيقة ولكن الامر الذى يحتمل حدوثه هو استعمال القوة والعنف ضدي لأنهم لم يستدعونى الى فورمس ليتعلموا . على أى حال فانى قد وضعت نفسى بين يدى الله (Greinp-H 101) وفى يوم الأحد الموافق ٣١ مارس (آذار) قام بخدمة عيد القيامة فى كنيسته فى فيتمبرج وكان موضوع حديثه « النعمة والحرية المسيحية » ثم ودع اعضاء كنيسته المحبوبة . وفى ٢ ابريل (نيسان) قدمت له مدينة فيتمبرج عربة لكى يذهب بها الى فورمس وقبيل رحيله التفت الى الشاب النشيط العالم وقال له : « ميلانكثون أيها الأخ العزيز إذا اصابنى مايريده الاعداء فواظب أنت على التعليم واثبت على الحق » (دوبينياه ٢٣١) .

حاول ملانكثون الذهاب معه الا انه رفض بشدة ولكن ثلاثة من الاخوة اصروا على الذهاب معه وهم يوحنا وبيتزستايز (Jean Petzensteiner) وهو راهب اغسطيني وصديقه وزميله أمسدورف (Amsdorf) وشاب من النبلاء وهو الطالب بيير سوابفن (Pierre Swaven) وكانت عربة مندوب الامبراطور ويدعى كاسبارد ستورن (Casparo Sturn) تتقدم عربة لوثر .

ولقد نظمت له المدن التى مر بها استقبالات مختلفة حسب قبولها أو رفضها لتعاليمه . فمدينة فيمر (Weimar) علقت بعض الاعلانات تطالب بحرق كتب لوثر كما خرج شعبها صارخا فى وجهه قائلا ليحرق مثل هس . أما مدينة أرفورت خرجت عن بكرة أبيها فى موكب عظيم ضخم يتقدمه عميد الجامعة واربعون من الفرسان لاستقباله ووعظ فى كنيستها يوم الاحد الموافق ٧ ابريل (نيسان) ولقد انهار الطابق العلوي من الكنيسة لكثرة الشعب ولكن لم تحدث أية أضرار للحاضرين . وقال لهم لوثر : « لا تضطربوا فإن الشيطان يحاول أن يظهر نفسه » وهكذا واصل رحلته وقد توقف قليلا فى مدينة ايزناخ ثم فرانكفورت حيث استقبل استقبالا رائعاً . اما فى مدينة نورمبورج (Nourmburg) فقد خرج كاهن واقترب من عربة المصلح وقدم له فى صمت وبدون أى تعليق صورة سافونارولا (Savonarole) التى كان يعتز بها وقد علقها على حائط حجرته .

بعد هذه الرحلة الطويلة التى استغرقت اكثر من اربعة عشر يوما وصل لوثر أخير الى مدينة فورمس وكان وقت تناول طعام الغداء . وعندما بوق حارس برج الكاتدرائية معلنا وصول الهرطوقى ترك الناس موائدهم الغداء وخرجوا لكي يروا لوثر الهرطوقى الذي سمعوا عنه الكثير . ولقد جاء اعضاء البلاط الساكسونى لاستقباله واحاط به اكثر من مئة فارس .

وكتب ليندر فى هذا الوقت تقريرا الى روما لكى يصف تطور الاحوال ذكر فيه ان الأحوال تغيرت والشعب لا يتكلم الا عن لوثر وقد انتشرت كتبه فى كل المكتبات بل ان صورته قد ظهرت على احدى النبذ وقد احاطت بها هالة من المجد . ويصرخ ٩٠٪ من الناس قائلين : عاش لوثر اما الـ ١٠٪ فيصرخون : الموت لروما[٧] . ولاشك ان هذا التقرير فيه شيء من المبالغة ، لكنه يحتوى على الكثير من الحقيقة .

وصل لوثر الى ورمس فى يوم ١٦ ابريل (نيسان) واستقبل استقبالا عظيما وكان يقوم بحراسته بصفة مستمرة فارسان من فرسان الملك فردريك . وعندما نزل لوثر من عربته قال : « الله معى » ولقد جاء لزيارته كثيرون مكثوا معه الى ساعة متأخرة من الليل .

وفى يوم ١٧ ابريل فى الساعة ١٠ صباحا جاء رسول من قبل الامبراطور لكي يخبره بان مجلس الأمة (الدايت) سيستمع له فى نفس اليوم في الساعة الرابعة بعد الظهر . وفى الميعاد

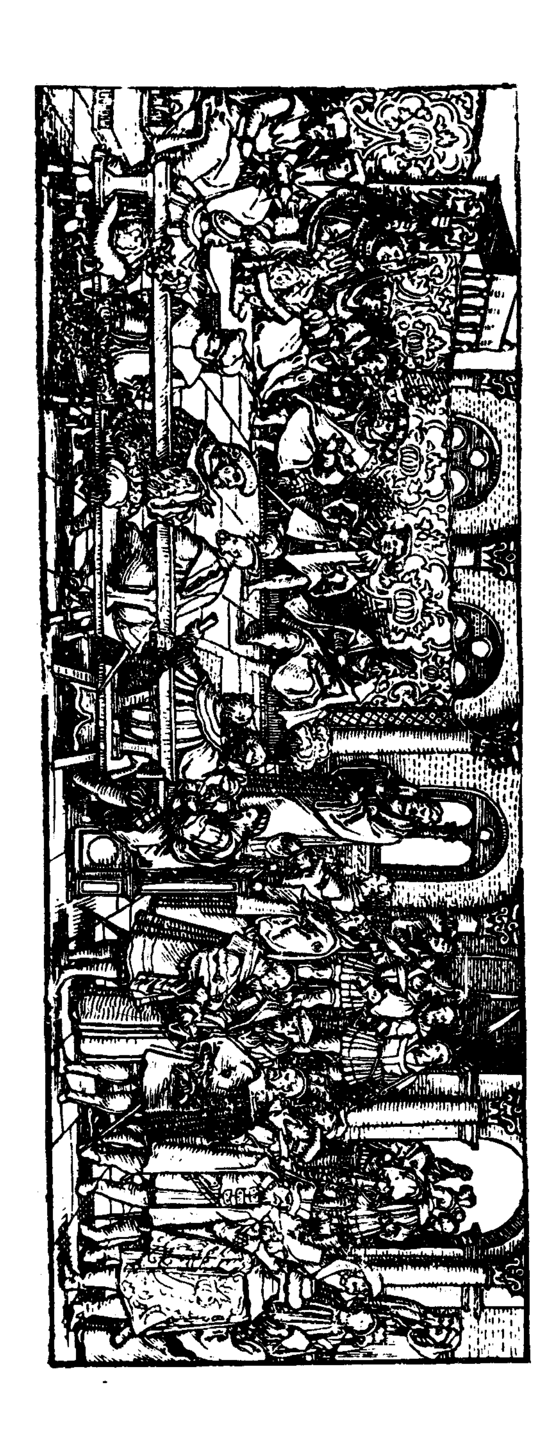
جاء مندوب الامبراطور مع الحرس لاصطحاب لوثر الى مكان الاجتماع . وكانت الشوارع قد اكتظت بالجماهير لدرجة انه لم يكن من السهل المرور فيها . ولذلك فقد اضطروا للسير فى شوارع جانبية داخلية وفى بعض الحدائق الخاصة للوصول الى مكان الاجتماع . وعندما وصلوا اليه كان عليهم ان ينتظروا مع الجماهير الى ان ينتهى المجلس من مناقشة بعض المواضيع الأخرى .

ولما دقت الساعة السادسة مساء . فتحت الابواب ودخل لوثر وفجأة وجد نفسه وجها لوجه أمام اكبر واعظم وأقوى هيئة حاكمة متسلطة فى ذلك الوقت . فقد وجد امامه الامبراطور شارل الخامس وأخاد فرديناند رئيس الأمراء وستة من الملوك المنتخبين وأربعة وعشرين دوقا .. وثمانية من الشرفاء وثلاثين من رؤساء الأساقفة والاساقفة ورؤساء الأديرة وسبعة من السفراء : منهم سفير ملك فرنسا – وسفير انجلترا ونواب عشر مدن حرة وعدد آخر من الأمراء والشيوخ والبارونات العظماء ومندوبى البابا . وقد بلغ عددهم اكثر من مئتين (ميرل دوبينياه ٢٧٨) .

امام كل هؤلاء وقف لوثر الراهب الفقير ابن الفحام طلب الملك فريدريك من مستشاره القانونى وهو جيروم شورف (Jerome Schurf) بان يكون قريبا من لوثر لمساعدته . ولقد نصح هذا المستشار لوثر بأن لا يتكلم الا إذا سئل . وكان المكلف بادارة هذه المناقشة كاتب رئيس أساقفة تريف (Tréves) يوحنا آك (Jean De Eck)* .

ووقف جون آك ونظر الى مجموعة من الكتب فاقت العشرين كتابا وقد وضعت أمامه على المائدة وقال « يامارتن لوثر هل تعترف بأنك انت الذى ألفت هذه الكتب ؟ وهل انت على استعداد ان تتراجع عن الأقوال التى خطتها يدك أم أنك مصر على التمسك بها ؟ » . وقبل أن يفتح لوثر فاه لكي يجيب على السؤال الأول طلب المستشار القانونى جيروم شورف بان تقرأ على الأقل عناوين الكتب المشار اليها . فقرئت العناوين واجاب لوثر بانه كاتب هذه الكتب التى قرئت عناوينها وكتب اخرى أيضا لم تذكر . فقال جون آك ، « هل انت مستعد أن تتراجع عما كتبته فى هذه الكتب ؟ » فاجاب لوثر بأن هذا الامر في غاية الخطورة ويحتاج الى تفكير عميق وعندئذ وجه كلامه الى الامبراطور قائلا التمس من جلالتكم أن تمنحونى وقتا للتأمل والتفكير . وبعد الاستشارة منحه الامبراطور يوما للتأمل . وقال الامبراطور لمن كان على يمينه « لا يمكن أن راهبا مثل هذا يغوينى للهرطقة » (Bainton 140) .

خرج لوثر من هذا المحفل وانطلق الى فندقه وكان الليل طويلاً والصراع فى الصلاة عنيفا . هل نام قليلا أو كثيرا فى تلك الليلة لا نعلم بالضبط ولكننا نعلم انه فى نفس الساعة فى اليوم التالى كان يمثل امام نفس الهيئة .



وقف جون آك وسأله قائلا : « هل انت مستعد بان تتراجع عما فى هذه الكتب التى قُرئت عناوينها على مسامعك البارحة ؟ فبدأ الراهب الأغسطينى يقدم أولا اعتذاره للامبراطور وللملوك وللرؤساء لجهله بالألقاب لأنه لم يترب فى بيوت الملوك والعظماء بل فى عائلة فقيرة وفى دير للرهبان ، ثم قال اما فيما يختص بهذه الكتب التى ألفتها فهى تنقسم الى ثلاثة انواع :

١ - النوع الأول :

كتب عالجت مواضيع خاصة بالايمان المسيحى والاخلاقيات ولقد قبلها الكثيرون لا من اصدقائى بل حتى من الذين يختلفون معى فى الرأى فكيف يمكننى ان انكر كتبا اعترف بفائدتها العدو والصديق ؟ .

٢ - النوع الثانى :

هى الكتب التى هاجمت فيها البابوية والباوبيين الذين افسدوا المسيحية وان الكثيرين شهود لذلك بل ضحية لهم . فان تراجعت عن هذه ا لكتب فإنى أشجع الظلم والطغيان . فكيف يمكننى أن اتراجع عن ذلك ؟!! .

٣ - النوع الثالث :

كتب احتوت على نقد شديد ضد الاشخاص الذين اشتركوا فى أعمال الظلم والعدوان وأنا اعترف بأنى كنت شديدا فى أسلوبى قاسيا فى نقدى ، فارجوا معذرتى واعتقد أنى كنت أدافع عن عقيدة هامة . وعندما أدافع عن العقيدة فإننى لا أدافع عن نفسى بل عن الحق الإلهى .

وهل يمكننى أيضا أن اتراجع عن الحق الإلهى ؟!!

وانا اناشدكم أيها الامبراطور المعظم والملوك الكرام بل اسألكم جميعا أن تبرهنوا لى من الكتب المقدسة على خطئى.وأنا سأكون أول من يقوم بطرح هذه الكتب فى النار وان كنت قد أخطأت فعرفونى بخطئى ؟ ثم انهى خطابه بكلمات وجهها الى الملوك والامبراطور على وجه الخصوص أن يحذر من أن يبدأ ملكه بسفك الدماء أو العنف ، وان سفك الدماء يجلب سفك دماء اكثر واغزر فاحترسوا من ذلك . فالعنف يولد عنفا اشد وسفك الدماء يؤدى الى سفك دماء اخرى .

وكان لوثر يلقى خطاب باللغة الالمانية وكان التعب قد اخذ منه وظهر عليه الارهاق والضعف عندئذ رفع واحد من الحاضرين صوته قائلا « كفى يادكتور مادمت تشعر بالارهاق » ، لكنه بدأ من جديد يعيد خطابه باللغة اللاتينية لان الامبراطور لم يكن يعرف الألمانية . وبعد أن انهى المصلح خطابه التاريخى العظيم باللغة اللاتينية قال له جون آك : « ايها الأخ مارتن لقد تكلمت كثيرا ، وفى كلامك قد تمسكت بهرطقات قد سبقت الكنيسة

وحكمت ببطلانها . وهذه الهرطقات التى تكلمت عنها سببت مآس كثيرة للشعب الالمانى واننا على أى حال لا نريد النقاش هنا . ولكن كل مانطلبه منك باسم الامبراطور : هل انت مستعد بان تتراجع عن تعاليمك المذكورة فى هذه الكتب اننا نريد منك جوابا واضحا وصريحا وعندئذ قال لوثر « بما أنكم تطلبون منى اجابة واضحة وصريحة فهذه هى اجابتى : أن لم تقنعونى ، من الكتب المقدسة ، لا يمكننى ان اتراجع لان ضميرى لم يعد يخضع بعد ، لا للباباوات الذين حكم بعضهم على بعض ، ولا للمجامع التى ارتكبت أخطاء وحكموا بعضهم على بعض أيضا . فإن ضميرى لا يخضع الا للكتب المقدسة . ولذلك لا يمكننى ان اتراجع لانه ما اخطر ان يتصرف الانسان ضد ضميره . وهذا ما أؤمن به فليعنى الرب[٨] آمين .

وقف الامبراطور مذهولا مندهشا من شجاعة لوثر وتأثير كلمات هذا الراهب ثم قال : « رفعت الجلسة ... » عندئذ رفع الحاضرون اصواتهم . فكن البعض يصرخ قائلا انه شيطان يجب ان يقتل والبعض الآخر يقول انه مجرم وثائر ضد الله وضد السلطة الحاكمة ، والبعض الآخر يقول انه نبى ، ان الله يتكلم على فمه . اما لوثر فقال : « لم يكن من الممكن ان افعل غير ذلك فليكن الله فى عونى » .

وعندما خرج من القاعة التف حوله الجند واصطحبوه الى حجرته فى الفندق وجاء خادم يحمل له بعض المرطبات وقال له تفضل واشرب هذا المشروب وانعش نفسك ، فان مولاى الامير ذاقه بنفسه ويقدمه لك ، لانه أعجب اعجابا عظيماً بخطابك الرائع . فشرب لوثر وطابت نفسه وشعر أنه اجتاز فعلا الامتحان فى بوتقة . ولكن اين سيذهب الآن ؟ ماهو مصيره ؟ .

كانت مدينة فورمس ثائرة تغلى . رسم بعض المتطرفين صورة هزلية لمثل البابا وقد علق من رجليه بعد شنقه ، بل وصلت الجرأة بأحدهم حتى وضع اعلانا فى حجرة الامبراطور نفسه مكتوبا عليه : « ويل لبلد يحكمه طفل ... » .

وفى وسط هذه الاضطرابات والانزعاجات حاول الامبراطور حسم الأمور بحزم وشدة . ففى يوم ١٩ ابريل (نيسان) أصدر منشوره الامبراطورى مكتوبا باللغة الفرنسية وأعلن فيه بأنه حفيد الاباطرة وحفيد لملوك اسبانيا والنمسا وبورجونى* العظماء الذين شهدوا بأيمانهم وكثلكتهم فى حياتهم وأنه سيسير على منوالهم مقاوما ومطارداً ومحاربا كل المبتدعين .

بالرغم من شدة لهجة هذا المنشور فقد تمسك الامبراطور بوعده ولم يسحب من لوثر صك الايمان وسمح له بالرجوع الى فيتمبرج .

رجع بعض الملوك والامراء الى بلادهم وخاصة الذين كانوا يؤيدون لوثر . وانتهز اليندر

هذه الفرصة وقدم الى الامبراطور مرسوما ليوقعه يتكلم فيه بلسان الامبراطور قائلا : « تمسكا بوعدنا الامبراطورى ، فقد أعطينا لوثر الهرطوق الأمان للعودة الى فيتمبرج ، ولكن بعد انتهاء مدة هذا الصك نأمر بأن يقبض عليه وأن يسلم الى السلطات ا لمختصة لكى يحاكم ، لانه شيطان فى صورة انسان . وسنعطى مكافأة لمن يقوم بهذا العمل المقدس العظيم . كما يجب معاملة أتباعه أيضا بنفس الطريقة . أما أموالهم فهى حلال لكم وغذوا النار بكتب لوثر لانها ممنوعة من الطبع والنشر والقراءة .. » .

قدم اليندر هذا المرسوم الى الامبراطور فى كاتدرائية فورمس بعد القداس ، ووقع عليه فى يوم ٢٥ مايو (أيار) سنة ١٥٢١ ثم جعل تاريخه مايو[٩] كما لو كان الامبراطور قد وقع على هذا المرسوم قبل أن يغادر معظم الأمراء المدينة .

أما لوثر فقد غادر مدينة فورمس فى ٢٦ ابريل (نيسان) عائداً الى فيتمبرج ، ولكنه لم يصل اليها . ففى الطريق . وبالتحديد بالقرب من التنستاين (Altenstein) فى منطقة تورنج (Thuringe) هجمت عليه ومن معه جماعة مكونة من خمسة فرسان ، وقبضوا عليه ووضعوه على فرس واختفوا به فى الغابات الكثيفة الضخمة . وعندما رجع بتزنستانير وامسدورف ويعقوب اخو لوثر وسائق العربة انتشر خبر اختفاء لوثر بسرعة البرق . وبكاه كثيرون بكاء مراً .

ففى يوم ١٧ مايو (آيار) كتب الرسام البرت دورر (A. Dürer) فى مذكراته اليومية قائلا : هل هو حى بعد ؟ هل اغتالوه ؟ اننا نجهل مصيره تماما . فإن كان قد اغتيل فانه قاسى الموت لأجل الحق المسيحى .. ايها الاله العظيم اعطنا من جديد انسانا شبيها بهذا الانسان الممتلىء بروحك ، لكي يجمع البقية الباقية من الكنيسة ويعلمنا أن نحيا كمسيحيين .. »[١٠] ولقد اذاع البعض بان جثة لوثر وجدت فى منجم للفضة . كما انتشرت قصص أخرى كثيرة .. وحقيقة الامر كان يعرفها جيدا الملك فردريك وكاتم سره سبالاتين ، فإن الملك قد دبر أمر اختطاف لوثر واخفائه لانه كان يعلم بالخطر الذى كان يهدد حياته . واعتقد البعض بان الملك قد دبر هذا الامر ووافق عليه الامبراطور شارل الخامس[١١] .



هوامش الفصل الرابع عشر

2. Daniel Olivier P. 158-165; Greiner P. 98.
   Strohl 1N144 Sa Vie
3. R. Bainton P. 120-129.
4. Daniel Olivier P. 156.
5. Strohl 143.

كل الوثائق التاريخية الهامة الخاصة بموضوع فورمس والمحاكمة موجود فى المجلدالسابع لدار نشر فيمر . 70 Vol. De L'edi. Weimer

6. Daniel Olivier 160-165, Strohl Sa Vie 145, ميرل دوبينياه ٢٥٧ - ٢٥٩
7. Strohl Sa Vie 150, Greiner 38, Bainton 130.

* ليس هو يوحنا آك الذى قام بالحوار ضد لوثر فى مدينة ليبزج (ميرل دوبينياه ٢٧٨ .Bainton 142)

* بعض المؤرخين يعتقد بأن لوثر قال : « وهذا ما أومن به فليعنى الرب ، وها انا اقف » على أن البعض الآخر يعتقد بان هذه الجملة الأخيرة اضيفت فيما بعد . (اضافها التقليد الانجلى) .

8. Greiner 106-108, D. Olivier 174-183, Bainton 137-145, Kostline 91-106, Singmaster 78-82, D. Hourticq 55-62, Strohl Sa vie 143-166.

د . عزت زكى ٥٣ - ٦٥ ميرل دوبينياه ٢٤٧ - ٢٨٥ ، دكتور القس لبيب مشرق ، حديث مع لوثر ، ص ١٠٢ - ١١٨ .

* بورجونى (Bourgoghe) مقاطعة من مقطعات فرنسا .

٩ - دوبينياه ٢٩٥ - ٢٩٩ ، .Strohl. 158

10. Singmaster 82-83, D. Olivier 193-200
11. G. Casalis 73

* هذا مايعتقده جورج كازليس

الفصل الخامس عشر

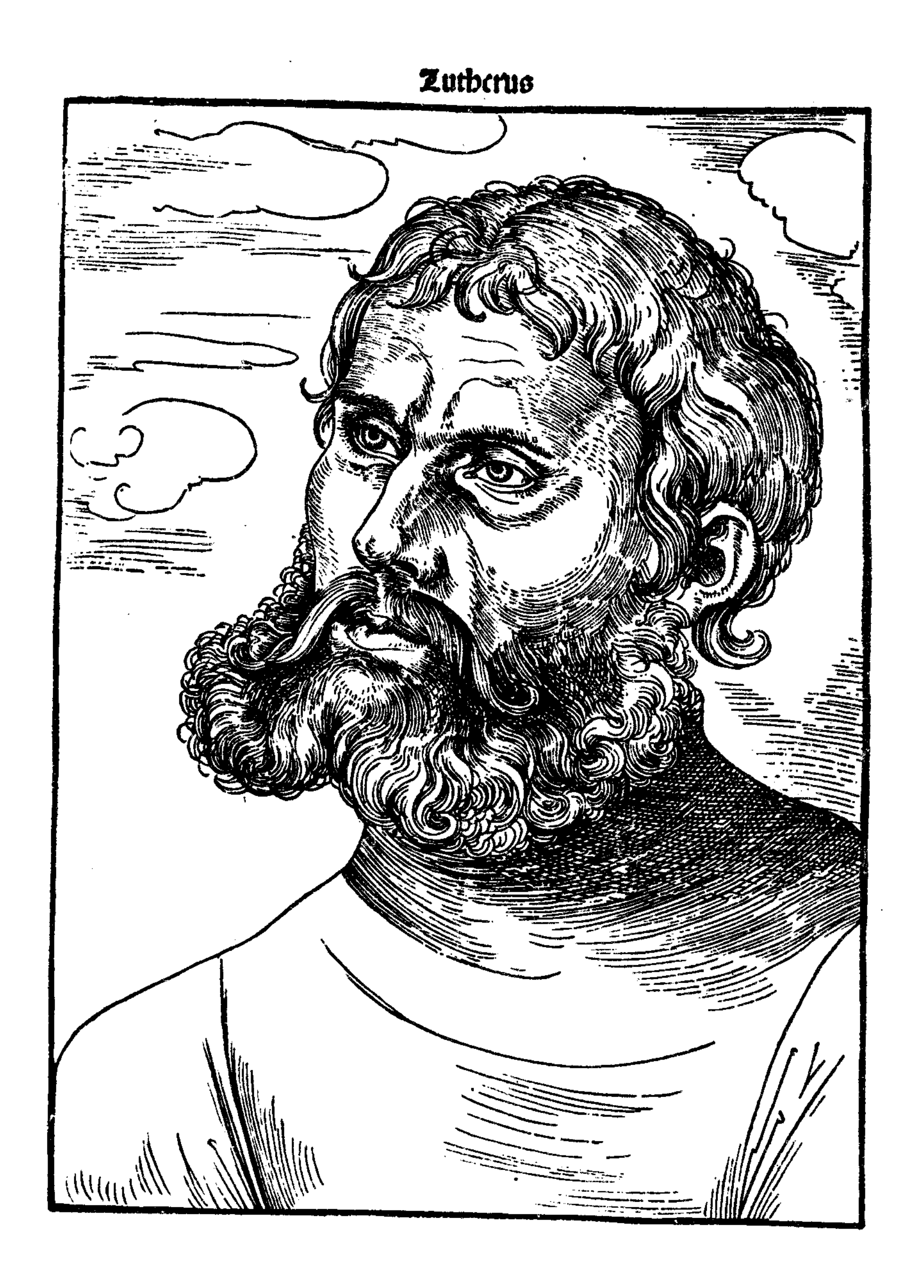
قلعة الفارتبوج والفارس جورج (LA. Wartboug)

بعد أن قطع ا لفرسان مسافة طويلة فى وسط الغابات المظلمة الكثيفة ، وبعد أن أرخى الليل سدوله وصل الفرسان الخمسة مع الراهب الأغسطينى المخطوف الى قلعة حصينة شامخة وكأنها برج قد بنى لمراقبة كل مايحدث فى قلب الغابة المظلمة الواسعة المترامية الأطراف . وقبل أن يقرعوا الباب ، فتحت أبواب هذه القلعة ودخل الفرسان والراهب . فقادوه الى شقة صغيرة تحتوى على حجرتين . وهناك قال له واحد من الفرسان ، مرحبا بك أيها الفارس جورج فى هذه القلعة ، فمن الآن اسمك جورج ومن الآن ايضا ممنوع الخروج من هذا المكان الا بعد أن تطول لحيتك وينبت شعر رأسك المحلوق مستديراً ثم أعطى له ملابس فارس وسلسلة ذهبية التى كان يلبسها الفرسان فى ذلك العصر . وخلع الراهب ثياب الرهبان ولبس ملابس الفرسان ، وتركوه وحيدا منفرداً .

وعندما استيقظ لوثر فى الصباح ، والقى نظره من نافذة حجرته على الغابة الممتدة حول هذه القلعة المرتفعة ، تذكر أيام صباه تذكر اضطراباته وقلقه ، وكم من المرات قد عبر هذه الغابة ، إذ أنها لا تبعد كثيراً عن ايزناخ (Eisenach) حيث كان يسكن بعض أقاربه نعم لقد قطع اميالا كثيرة على قدميه فى هذه الغابة .

كتب لوثر حالا الى كثيرين من اصدقائه واحبائه حتى يعرفهم بحقيقة الأمر . اما الذين كانوا يقومون بخدمة الفارس جورج فكانوا يهتمون به كل الاهتمام ويبادرون لخدمته والعناية به ، فزاد وزنه بل انه تعرض مرات عديدة للمرض لانه لم يكن معتادا على هذه ا لراحة وكثرة الطعام .

على ان هذا لم يكن كل ماكان يقوم به الفارس جورج فى هذه الفترة . فمع انه أبعد عن الوعظ والتعليم ، غير انه لم يكف قط عن الوعظ والتعليم مع انه كان وحده وفى شقته الصغيرة . فلقد شعر لوثر بانه مدعو لا لهدم الاباطيل والخرافات فقط . بل كان عليه ان يعلم التعليم الكتابى الصحيح للبناء . ولذلك فقد ألف فى هذه الخلوة مجموعة من العظات تغطى أيام أحاد واعياد ومواسم السنة كلها . لكى يستخدمها الرعاة الذين يرغبون فى تقديم الانجيل بطريقة جديدة وسهلة لاعلان كلمة الله . ولقد استعمل فعلا كثيرون من الخدام الانجيليين


Lutherus

هذه العظات كنماذج لعظاتهم فى القرن السادس عشر . لا بل ان المصلح بوسر (Bucer) ترجم هذه العظات الى اللغة اللاتينية لمساعدة الانجيليين فى فرنسا .

بعد ان أنهى هذا العمل بدأ فى عمل جديد آخر شعر بان الكنيسة كانت فى حاجة اليه ايضا وهو ترجمة الكتاب الى اللغة التى يتكلمها الشعب - أى اللغة الالمانية . نعم لم يكن لوثر هو أول من قام بترجمة العهد الجديد الى لغة الشعب ، فعندما شرع لوثر فى هذه الترجمة كانت هناك اربع عشرة ترجمة المانية للعهد الجديد ، لكنى اغلب هذه الترجمات كانت مترجمة عن الفولجاتا اللاتينية . ولذلك فقد جاءت ركيكة فى اسلوبها ، صعبة فى لغتها ومفرداتها و كانت تحتوى على جمل وصيغ لاتينية . أما لوثر فقد قام بترجمة العهد الجديد من اللغة اليونانية

مباشرة . ولقد احسن فى انتقاء الكلمات وابدع فى اختار اسلوب سلس متناسق مترابط . ولقد بدأ فى هذا العمل فى شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢١ ونشر العهد الجديد فى اللغة الالمانية فى شهر سبتمبر (ايلول) ١٥٢٢ ولقد استمر فى هذا العمل بعد خروجه من القلعة حتى انهى ترجمة الكتاب المقدس كله فى سنة ١٥٣٤ على انه كان يضيف فى كل طبعة جديدة فى كل سنة بعض التصحيحات للترجمة السابقة[1] وواظب على هذا العمل طيلة حياته . ولقد ساعده كثيرون فى هذا العمل العظيم وخاصة ملانكثون . كما ألف أيضا اثناء اقامته فى القلعة بعض العظات عن الرسائل . ثم كتب بعض المقالات ليعالج فيها موضوع النذور الرهبانية كما كتب مقالات عن القداس ، ثم كتب بعض المقالات لكى يرد فيها على معلمى باريس ولوفان (D. Olivier, 198) .

وبينما كان الفارس جورج منهمكاً فى الكتابة من ترجمة وتأليف وصلت اليه أخبار كثيرة تنبىء بسوء الحالة فى فيتمبرج . لقد ترك لوثر كنيسة وكلية فيتمبرج كنبتة صغيرة لا تقوى على مواجهة العواصف الشديدة والرياح العاتية . ولقد هبت فعلا هذه الرياح القوية على الكنيسة والكلية .

كان الشاب العلامة ملانكثون عميقا فى ابحاثه متبحرا فى دراساته وفى محاضراته متواضعا فى حياته وتصرفاته : كان كأليشع بالنسبة لايليا . ولكن بجانب هذا كان يوجد عدد كبير من امثال جيحزى ٢ مل ٥ : ٢٠ الذين كانوا يسعون الى مجد الله بشرط تمجيد انفسهم ايضا فلقد ظهر عدد كبير من القادة والمعلمين الوعاظ والمبشرين مثل كارلستادت (Carlstadt) الذى كان يعتبر نفسه كالرئيس الروحى لفيتمبرج بعد غياب لوثر (Hourticq, 64, D. Oliver, 199) .

ومما لا شك فيه بانه كان تقيا مخلصا ولكن بالرغم من تقواه واخلاصه كان فى بعض الأحيان ميالا الى المجد الذاتى . لقد عاش عدة سنوات كظل للوثر وعندما اختفى المصلح

اصبح الظل حقيقة . الم يكن هذا هو ماحدث فى حياته الجامعية وفى الحوار ايضا الذى استمر اكثر من اسبوعين فى مدينة ليبزج ؟ كان كارلستادت يريد أيضا تغييرا سريعا وجذريا دون دراسة للظروف . لذلك فقد قام فى أحد أحاد شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٢١ بممارسة العشاء الربانى مقدما الخبز والخمر ، كما علم لوثر ولم يكن الشعب معتاداً على هذا التغيير الجذرى وفى يوم عيد الميلاد قام بعمل القداس باللغة الالمانية لا باللغة اللاتينية كالمعتاد . بل انه ذهب أبعد من ذلك فى عملية التغيير الجذرى . فقد فكر فى الغاء الأديرة وانحلت فعلا جمعية الرهبان الاغسطينية فى فيتمبرج فى يناير (كانون الثانى) ١٥٢٢ لا بل اراد ارغام الرهبان على الزواج . وفى ٢٤ من نفس الشهر وزعت ممتلكات الأديرة لمساعدة الكنائس واستخدامها فى المشاريع العامة . والبعض الآخر وزع على بعض الامراء . كما أنه الغى بعض التقاليد الكاثوليكية السائدة مثل الصور والتماثيل والملابس الكهنوتية . وفى شهر فبراير (شباط) قام بمظاهرة واشترك معه شعب المدينة بالمناداة بالحكم الديمقراطى .

وعندما علم لوثر بهذا كتب الى اصدقائه والى كثيرين من المسئولين بايقاف هذه الاعمال . وكتب كتيباً صغيراً بعنوان « النذور » وقد اهداه الى أبيه ، وشرح فيه ان الشخص الذى يعتقد بانه يستطيع ان يحصل على الخلاص أو ينال استحقاقات خاصة لانه اصبح راهبا فهو فى ضلال مبين[٢] ولكن كل شخص يتمتع بالحرية الكاملة أن يختار الرهبنة أو يحيا فى العالم . ولا يرغم أحد على ان يدخل الدير أو أن يخرج منه . ليحيا كل انسان حسب الحرية التى منحت له فى المسيح .

ان رجل القرن العشرين قد لا يجد أى تطرف فى افكار كارلستادت أما لوثر فمع انه كان مشغولا هو ايضا بنفس هذه الافكار التطورية بكل فهم وعمق ولكنه كان يرى من الحكمة اختيار الوقت والمكان المناسبين للمناداة بأفكاره الجديدة .

لم يدرك كارلستادت أن الوقت غير مناسب لهذه التغييرات وهذا ماكان يخشاه لوثر لأنه كان يدرك تمام الادراك أن الشعب لم يكن معداً الاعداد الكافى لهذه التجربة الجديدة مما يعرضه لتيارات مختلفة . وهذا ماحدث فقد انطلق كثيرون وراء حركة النهضة التى قام بها بعض الفلاحين والعمال والنساجين البسطاء لا بل الجهلاء الذين جاءوا من مدينة زويكاو (Zwickau) الذين اعتبروا انفسهم أنبياء مهملين من الروح القدس مباشرة . فلا حاجة لهم إذن للكتاب المقدس ولا للتعاليم ولا للدراسة ولا لنظام كنسى أو إدارى ، لأنهم قالوا ان الروح القدس هو الذى يرشدهم فى كل شيء وفى كل ظرف بطريقة مباشرة . ولقد شجعهم كارلستادت كثيراً ، ورأى فيهم برهانا عملياً على عمل الروح القدس ونادى بالخضوع لهم والسماع لنبواتهم وارشاداتهم لانه كان يعتقد بأن الروح يهب حيث يشاء[٣] . اما ملانكثون فقد كان حديث السن لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد ولم يقو على مقاومة الاستاذ

كارلستادت[٤] وعلى الذين جاءوا من الشمال من مدينة زويكاو مبشرين بقلب النظم القائمة وعدم عماد الاطفال ... الخ .ج

وصلت هذه الأخبار المحزنة المؤلمة الى لوثر وشعر بأن الاصلاح كان مهدداً فعلا بالانزلاق الى الفوضى وعدم النظام ويحتمل انه ذهب سراً فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) ١٥٢١ دون أن يخبر بذلك الملك فردريك ، الى مدينة فيتمبرج وتقابل مع ملانكثون ومع بعض القادة واطلع على حالة الكنيسة هناك[٥] .

وفى شهر فبراير (شباط) ١٥٢٢ كتب لوثر الى الملك فردريك يعرفه بانه سيرجع الى فيتمبرج حتى لا ينشغل الملك بامره . ويرد الملك فردريك الى الفارس جورج طالبا منه ان لا يتحرك من القلعة . وبالرغم من ذلك فإن الفارس جروج ترك القلعة ، ثم كتب خطابا رقيقا فى غاية النبل يشكر فيه الملك على عنايته به وعلى كل ماقدمه له . ولكنه يعتبر نفسه من تلك اللحظة فى حماية سيد أقوى وأعظم منه بل طلب من الامير ايضا ان يحتمى هو نفسه فى ظل هذا السيد .

ترك الفارس جورج قلعة الفارتبورج فى أول مارس (آذار) ١٥٢٢ وكان قد دخلها فى يوم ٤ مايو (آيار) ١٥٢١ .

هوامش الفصل الخامس عشر

1. Strohl Sa vie 160-165-
2. Strohl, 166-172.
3. R. Bainton, 152-158, Greiner, 120-130.
4. Strohl, 166.
5. D. Hourticq, 65-67.

ميرل دوبينياه ٣٦٧ – ٣٦٩

الفصل السادس عشر

عودة المصلح الى فيتمبرج

وفى اليوم التالى لوصوله استقبلت مدينة فيتمبرج - شعبا وجامعة - المصلح استقبالا حاراً لكى تعبر له عن المحبة العميقة والتقدير العظيم والولاء الكامل ولقد كتب لوثر خطابا ثانيا رسميا الى الملك فردريك يعرفه فيه بأنه قد رجع الى فيتمبرج بمحض اراداته ونزولا على رغبة شعب المدينة وكان الملك حكيما وسياسياً ، فأمر بنشر صورة من هذا الخطاب فى المانيا كلها .

عندما رجع لوثر من قلعة الفارتبورج وجد أشياء كثيرة قد تغيرت بالشدة والعنف والقوة إذ أن أيدى المخربين المتعصبين امتدت الى بعض الكنائس الكاثوليكية فكسرت تماثيلها وحطمت صورها وغيرت نظام العبادة ولغتها ، فحاول لوثر ان يضمد بلطف هذه الجروح « فاعاد المياه الى مجاريها » وقام حال وصوله بحملة وعظ لمدة ثمانية أيام متواصلة فى مدينة فيتمبرج . ومن دواعى السرور أن تلك العظات مازالت محفوظة حتى الآن[1] .

ولقد شرح لهم فى تلك العظات انه لا يدعى بان كارلستادت كان مخطئاً على طول الخط الا انه وضح لهم أن الظروف لم تكن مناسبة لاجراء هذا التغيير الجذرى كما أنه شدد ايضا فى عظاته على أن انجيل المسيح لا يجب أن يفرض على الناس فرضا بالعنف والسيف والقوة بل علينا أن نلقى البذار وروح الله هو الذى ينميها .

ثمن ضرب لهم مثلا بنفسه فهو لم يقاوم السلطة البابوية بالقوة أو بالعنف ، بل بالكلمة المكتوبة ولا لألقى بالمانيا كلها فى أتون من نار وفى بحر من الدماء .

عندما رجع لوثر الى المدينة الجامعية سكن فى دير الاغسطينيين الذى كان خاليا تقريبا . كان عليه أن يبدأ من جديد فى عمل البناء وكان عليه أيضا ان يجد حلا للمشاكل الجديدة التى ظهرت . كان بعض الرهبان والراهبات تركوا الأديرة وبدأوا فى البحث عن عمل . وكانت المشكلة حساسة بالنسبة لبعض الراهبات اللائى تركن الايرة .

أما كارلستادت الذى كان لا يريد الا حلولا جذرية وسريعة ولم يقبل هذا الاسلوب وترك كرسيه كاستاذ فى الجامعة دون ان يخبر المسئولين ثم جال مبشراً بهدم الهياكل وترك

العادات الكاثوليكية القديمة ، ثم نادى ايضا بعدم عماد الاطفال وبعض التعاليم الاخرى . ولم يقف لوثر مكتوف اليدين بل جاء هو نفسه الى مدينة اورلا موند (Orla Munde) التى كان يبشر فيها كارلستادت وحاول أن يقنعه بالرجوع فلم يفلح فى اعادته وترك لوثر المدينة فالقى بعض المتعصبين عليه الحجارة[٢] لقد نفى كارلستادت من ساكسونيا كمثير للاضطرابات وذهب الى بازل وعين استاذاً ، ولقد مات فى سنة ١٥٤١ متمتعا باحترام الكثيرين[٣] .

تناقش لوثر مع بعض قادة حركة النهضة الروحية أمثال توما وكلاريوس وعرفهما بان ارشاد الروح القدس لا يعنى عدم الرجوع الى الكتاب المقدس واهماله - لان هذه الجماعة قالت بان الروح القدس يقود المؤمن فى كل لحظة فلا داع لدراسة الكتاب المقدس . ولقد حاول لوثر ان يعرف قائدى هذه الجماعة خطورة هذه التعاليم التى تعمل على قلب المجتمع رأسا على عقب . كما أنه حاول ان يقتحمها بعقيدة عماد الأطفال وبأشياء أخرى هاجموها . اما هما فقد خرجا من هذا الاجتماع حاقدين على لوثر ووصفاه بانه لا يختلف عن البابا فى شيء وان الكنيسة كلها فاسدة ، لانهما كانا يعتقدان بانهما على حق لانهما يملكان كل الحق .

كانت تعاليم هؤلاء المبشرين قد انتشرت فى مدن كثيرة ولذلك فقد ذهب لوثر الى هذه المدن ووعظ وعلم ولكن كلمات اولئك المتطرفين كانت حماسية ثورية فدفعت بالكثيرين الى الانضمام الى حركتهم والاشتراك فى اعمالهم التعصبية والتخريبية . ومما زاد الطينة بلة ظهور شخص آخر هو منزر (Munzer) وقد سمى نفسه مطرقة الرب . فعندما كان يحل عليه الروح القدس ، كما كان يدعى ذلك - كانت الحرمانات واللعنات تتساقط من فمه تساقط الامطار الغزيرة على اعدائه . ولقد أعلن بان القضاء الإلهى قريب ولن ينجو منه الا هو وعدد قليل جدا من الذين يسمعون له . وعندما طرده الملك فردريك ذهب الى اماكن اخرى مبشراً بنفس الطريقة ونفس الأسلوب . واما لوثر فلكى يبين الفرق بين تعاليمه وتعاليم هذه الجماعات فقد كتب كتابا بعنوان « ضد الانبياء السمائيين » وجاء هذا الكتاب خليطا من الروح والعنف وضح فيه بان المؤمن الحقيقى يستطيع ان يعرف ارادة الرب وارشاده بقراءته للكلمة والتأمل فيها ثم بقيامه بما يجب ان يقوم به فى الحياة اليومية والكنسية وخاصة فى اشتراكه فى جسد الرب وفى دمه . فإن الرب لم يأمرنا باثارة الحروب ومقاومة السلطات القائمة وقلبها بل لنشر السلام وتغيير الأوضاع الراهنة والتبشير بالانجيل وعندما يتغير قلب الانسان يتغير المجتمع . فلا نحاول إذن تغيير المجتمع بالقوة والسيف بل بالانجيل وبالاقناع وبالحب وبالصبر .

كان العمل كثيراً ومتعدد الجوانب بعد رجوعه من القلعة . كان عليه ان يعظ وان يعلم الطلبة - كما كان عليه أيضا أن يرأس حلقات نقاش ويقوم بزيارات واستقبالات والقاء خطابات ، ثم كان عليه ايضا ان يكتب كتبا تفسيرية يترجم الكتاب ويؤلف ترانيم ويلحنها . كتب مرة الى أحد أصدقائه يصف له بعضا من الاعمال التى يقوم بها ، ويعد ان عدد له

الأعمال قال : « فهل ترى الآن حياة هذا الراهب الكسول الخامل .. » .

أما من الناحية السياسية فان لوثر كان يعتبر مواطنا خارجا على القانون لانه كان محكوماً عليه بالحرمان . ولقد طالب البابا ادريان السادس الذى جاء بعد ليون العاشر من مجلس الأمة الألمانى (الدايت) العمل على سحق الهرطقة ، على أن مجلس الأمة الذى اجتمع وانفض فى مارس (آذار) ١٥٢٣ لم يقم بعمل أى شىء الا كتابة قائمة جديدة يعدد فيها الأشياء التى اساءت الكنيسة الكاثوليكية استخدامها . ولقد اجتمع الدايت مرة اخرى فى شتاء١٤٢٤ فى مدينة نورمبرج (Nuremberg) وقرر تطبيق قرار مجلس الأمة الذى اجتمع فى فورمس ١٥٢١ باستعمال الشدة مع لوثر والمصلحين ولكنه طالب أيضا بالدعوة بعقد مجمع كنسى فى مدينة سبير (Spire) لبحث مشكلة لوثر .

على أية حال كان الامبراطور والملوك والأمراء مشغولين بأمور كثيرة جداً فيما يختص بالسياسة الخارجية والداخلية فلم يكرسوا الوقت الكافى لحل المشكلة الدينية .

هوامش الفصل السادس عشر

1. Strohl, 170.

(٢) ميرل دوبينياه ، ص ٣٨٥ – ٣٩١ .

3. Hourticq. Notes 22.

الفصل السابع عشر

ثورة الفلاحين

لقد ظهرت وانتشرت كتابات لوثر وخاصة الكتب الثلاثة الصغيرة التى تدعى بكتابات لوثر الكبرى ، قبل أن يذهب الى ورمس ، وأقبل الشعب الالمانى على التهام هذه الكتب بطريقة غريبة لدرجة ان الكتاب الأول الذى طبع منه ٤٠٠٠٠ نسخة نفذ فى اليوم السادس من ظهوره ولم تبق منه ولا نسخة واحدة . لقد بدأ المصلح بعرض لا افكار جديدة مفيدة فحسب ، بل كان يعالج بكتاباته مشاكلهم اليومية والعقائدية أيضا . ففى المكتوب الذى وجهه الى الأمة الالمانية النبيلة ناشد الشعب الألمانى أن يتحمل بنفسه مسئوليته الوطنية والدينية ونادى بأن المسيحيين متساوون لا فرق بين كاهن أو علمانى لاننا كلنا كهنة لله ، ثم فى كتابه « الأسر البابلى » عندما تكلم عن الفرائض حاول أن يخرج من الناحية السطحية التى اضافتها الكنيسة الى هذه الفرائض موضحا بأن قوة الفريضة ومفعولها كامنان لا فى من يقوم بتأديتها (الكاهن) ولا حتى فى الفريضة نفسها ، بل فى الشخص الذى يمارس هذه الفرائض . وفى مجال حديثه عن الحرية المسيحية علم بان المسيحى حر وغير مستعبد لأحد . أن الانسان الذى حرره المسيح يتمتع بالحرية الحقيقية . لقد انتشرت هذه الافكار وسط الشعب الالمانى وحاول ان يفسرها بطريقته الخاصة ولذلك فقد رأى فيها دعوة للحرية وللاستقلال بل للثورة فلا عبد ولا سيد بل الكل سواء . قرأ الشعب هذه الافكار الجديدة لكن لم تتح له الفرصة لكى يناقشها مع لوثر عندئذ إذ أنه قد اختفى بعد ورمس . وهو ذا يظهر من جديد وينادى بنفس الأفكار وبنفس المبادىء حاول كثيرون من الشعب تفسير هذه الآراء بطريقة عملية وجذرية وسريعة وبدون مرونة . وهنا ظهرت مشكلة ثورة الفلاحين على أى حال لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يثور فيها الفلاحون ضد الامراء والنبلاء . فعندما نرجع الى التاريخ نجد سلسلة طويلة جداً من الثورات فقد قام الفلاحون بثورة عنيفة فى فرنسا فى سنة ١٣٥٧ وفى انجلترا فى ١٣٨١ ، وثورة فلاحى بوهيميا فى القرن الخامس عشر ، وفى سويسرا ١٥١٣ ، وفى فيتمبرج ١٥١٤ . واندلعت ثورات الفلاحين مرة اخرى ايضا فى سنة ١٥١٧ فى كل من النمسا والمجر ومدن الراين .

ومما لاشك فيه ان الفلاحين قاموا عبر التاريخ بثورات ضد الأغنياء والأمراء لأنهم شعروا بالظلم الصارخ والضغط الساحق الذى مارسه الاغنياء عليهم . وهو نفس الشعور الذى ساد

طبقات الفلاحين والعمال الذين قاموا بثورة ١٥٢٤ - ١٥٢٥ فى أيام لوثر[1] ولم يكن الشعور بالظلم هو السبب الوحيد لانفجار هذه الثورات التى قام بها فلاحو المانيا بل سبق أن اشرنا بأن كتابات لوثر كانت قد انتشرت فى كل مكان وقرأها عدد كبير من الناس . ولقد اعتبر الفلاحون والعمال والصناع أن كتابات لوثر موجهة لهم بالذات . فلم يحاولوا ان يطبقوها روحيا كما قصد لوثر بل فسروها ماديا واقتصاديا . وحتى بعض المتطرفين الذين حاولوا تفسير تعاليمه بطريقة روحية تطرفوا ايضا امثال كارلستادت ومنذر (Munzer) واخرون فلقد اعتقد الفلاحون أن دعوة لوثر للحرية المسيحية تعنى التخلص بالعنف والقوة من الظالمين الذين يقسون عليهم أى دعوة للتخلص من الأمراء والسادة والاغنياء الخ ...

ولذلك فقد قام الفلاحون بثورتهم بدأت الثورة فى ستوهلينجن (Stuhlingen) بالقرب من مدينة شافهوس (Schaffhouse) إذ ان زوجة كونت هذه البلدة قد تعودة اثناء موسم البذار وموسم الحصاد ان ترغم الفلاحين الذين كانوا يعملون فى المزارع على جمع بعض الخضر النادرة واسماك القواقع لها كما كانت تأمر بقلع أعين الذين يحاولون قتل طيور الصيد التى كانت تتلف مزارعهم

وفى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) ١٥٢٤ انضم هؤلاء الفلاحون الى فلاحى بلدة فالدشوت (Waldshut) الذين ثاروا هم أيضا لأن الحكومة أمرت بقطع رأس سكرتير المدينة أمام زوجته واولاده لانه قبل الاصلاح . وفى شهر يناير (كانون الثانى) ١٥٢٥ أعلنت كلتكجاو (Klettgau) تضامنها معهما . وانتشرت الثورة الى مقاطعة سوابيا والى مقاطعات ومدن أخرى وتوسعت هذه الحركة الثورية ، فلم تعد قاصرة على الفلاحين فقط ، بل انضم اليهم بعض العمال . ففى بالترنجن (Baltrungen) استطاع الحداد اولريش شميث (Ulrich Schmid) ان يجمع ثلاثين الف رجل لا يعترفون باى قانون الا بالقانون الالهى . ولقد قدم قادة هذه الحركة قائمة بمطالبهم . وتحتوى على ١٢ بند : ومنها المساواة والتحرر من خدمة الأمراء والاغنياء ، وحق الصيد والقنص ، والغاء العشور التى كانت تدفع للكنيسة وللأمراء .. ولقد حرصوا على تدعيم مطالبهم هذه بشواهد من الكتاب المقدس ، وللأسف الشديد تمسك المطالبون بمطالبهم وتمسك الامراء والسادة بمراكزهم وسيادتهم واملاكهم . وهنا يظهر توما منذر (Thomas Munzer) ويتنبأ قائلا : « ان رصاص الامراء سيكون بدون تأثير على الذين سيخرجون الى الحرب معنا »[2] .

كان الملك فردريك فى هذه الايام يلفظ انفاسه الاخيرة ومات فعلا فى يوم ٥ مايو (أيار) ١٥٢٥ بعد طلب تناول العشاء الربانى . خبزاً وخمراً على الطريقة المصلحة ولم يستطع لوثر الحضور قبل موت ذلك الرجل الذى وقف بجواره فى أشد اللحظات وفى أضيق

الظروف . لكنه ذكر عند موته اسم لوثر على ان المصلح حضر يوم ٦ مايو (ايار) وأقيمت صلاة « الجنازة » فى يوم ١٠ مايو فى فيتمبرج .

لم يغير موت هذا الأمير شيئاً من الحرب الأهلية التى اندلعت نيرانها . فقد هجم الفلاحون على القصور والحصون فخربوا منها ماخربوا ودمروا منها مادمروا ، وارتعب الامراء والاغنياء والاساقفة لدرجة أن بعض الأمراء اضطروا - من الخوف - الى الانضمام الى جماعة الفلاحين . ولقد أصدر بياناً فى يوم ٢٦ ابريل (نيسان) قال فيه : « تقدموا تقدموا الى الامام ولتظل سيوفكم ساخنة بالدماء بدون شفقة »[٣] وعندئذ قام الامراء بتنظيم صفوفهم واستأجروا بعض المحاربين الايطاليين والاسبانيين فاستطاعوا سحق الفلاحين بطريقة مريعة يعجز القلم عن تصوير بشاعتها . ولقد شجع لوثر الامراء على الدفاع عن انفسهم ولكنه كان يجهل تماما أن وحشية الأمراء والأغنياء وتجردهم من الانسانية ستصل بهم لدرجة ارتكاب الفظائع التى ارتكبوها ضد الفلاحين . فقد قتلوا الآلاف المؤلفة منهم كما قتل منذر ايضا (قائد من قواد ثورة الفلاحين) .

وبعد هذه الثورة البشعة المريعة التى أرتقت فيها الدماء غزيرة ، وراحت ضحيتها النفوس الكثيرة ، قام لوثر وعدد كبير من الأمراء باصلاح مايمكن اصلاحه ونظموا المساعدات والاسعافات للعائلات التى حطمها الحرب . وراح ضحية هذه الحرب حوالى ١٠٠،٠٠٠ نفس[٤] .

ان كثيرين من الذين قاموا بتحليل هذه الحوادث دهشوا كثيرا من موقف لوثر ازاء الفلاحين عندما قال للامراء الذين كانوا يحاربون الفلاحين الجملة التى سجلها له التاريخ « قاتلوا هؤلاء الفلاحين ككلاب مسعورة »[٥] ان هذا الرجل الذى لم يدافع قط عن الاهانات الشخصية التى وجهت اليه ، والذى حاول فى كل الظروف التى مر بها أن يستعمل المحبة والصبر واللطف وكيف يمكن أن يأمر الامراء بان يقاتلوا الفلاحين ككلاب مسعورة !! وستظل الجملة بلا جدال نقطة سوداء فى تاريخ هذا الرجل العظيم . وكما يقول الاستاذ جرنر (Greiner) ان قولا كهذا يعد عثرة ليس فقط لانسان القرن العشرين بل حتى لانسان القرن السادس عشر (ص ١٥١) ولكى نفهم موقف لوثر على حقيقته ، يجب ان نرجع الى الظروف نفسها . ان لوثر قد سبق واطلع على مطالب الفلاحين وكان هو نفسه يتفق معهم فى كثير منها ، بل انه ناقش هذه المشكلة قبل ذلك مع بعضهم . الم يذهب لمقابلتهم حتى فى ساحة القتال يقنعهم حتى يعدلوا عن القتال والحرب[٦] وهذا ما منعه من ان يكون بالقرب من الملك فردريك عند موته !!! .

لقد سبق ان قلنا بان المصلح كان متفقا مع الثوار فى كثير من مطالبهم التى طالبوا بها .

لكنه عرفهم بان الحصول على هذه الحقوق لا يجب ان يتم عن طريق العنف والقتل والسيف ، بل عن طريق الحوار الهادىء السلمى كما انه أوضح لهم هذا الامر فى خطاب ارسله لهم بتاريخ ٢٩ ابريل (نيسان) ١٥٢٥ (Strohl, 230) ألم يقم هو نفسه أيضا بحرب شعواء ضد جشع الاغنياء وحطمهم وظلمهم وحذرهم متنبأ بما سوف يحدث لهم عندما كتب كتابه « السلطة الزمنية » والذى ظهر فى ١٥٢٤ - ١٥٢٥ ففى حديثه عن الامراء يقول « ان طغيانكم لم يعد يحتمل .. ولايمكن ان يسمح به .. إذ وصل اشمئزاز الشعب منكم الى المدى »[٧] كان لوثر قد حذر الأمراء من غضب الفلاحين وعرفهم - فى نفس النص - بأن غضب الفلاحين يعلن لهم غضب الله على أعمالهم وسوء تصرفاتهم وفى نفس الوقت نفسه حاول لوثر من الجانب الآخر اقناع الفلاحين بطرق عديدة ومختلفة : تقابل مع بعض قادتهم الروحيين والعسكريين ، وعظ .. وكتب ... ولكن لم تفلح كل هذه المحاولات وهنا يجد لوثر أن المانيا كلها غرقت فى بحر من الدماء . ولقد رأى فى كل من الجانبين جانب الامراء ، وجانب الفقراء نفوسا قد سيقت سوقا الى الحرب واكرهت على القتال . فلقد رأى الفلاحين وقد خرجوا للقتال وللتدمير ككلاب مسعورة . فإن الكلب المسعور يقتل ان لم يقتل . لذلك فهو يقضى على كل من يصل اليه باسنانه . كان هدف هؤلاء الفلاحين القتل واراقة الدماء وملاشاة الطبقة الحاكمة والغنية من الأمراء والاكليروس . كانوا يلجأون لكل الوسائل لازالة هذه الطبقات الغنية من الوجود . ألم يقل لهم منذر « لاحياة كريمة لكم إذا مابقى واحد من هؤلاء على قيد الحياة »[٨] اننى لا احاول هنا أن أبرز موقف المصلح ولكنى احاول ان أبسط الظروف السياسية التى مر بها لوثر وعاشها مضطرا دون ان يسعى اليها أو ان يرغب فيها . ولقد عانى هو نفسه من هذه الكارثة مدة طويلة واعترف بخطئه .

قبل ان تندلع هذه الثورة كان الفلاحون والعمال يعتقدون بان لوثر هو واحد منهم وسيكون الأول فى الوقوف بجانبهم مؤيداً مطالبهم بالقول والعمل والسيف كما فعل الوعاظ . ولكنه لم يفعل ذلك فخاب ظنهم فيه . كانت هذه الثورة سببا فى تعميق العداوة فى قلوب الفلاحين ضد الكنيسة الكاثوليكية وسببا فى خيبة آمالهم فى الكنيسة المصلحة . وأما لوثر فقد أحس أن قلبه يذوب وهو يشاهد تلك الحوادث المؤلمة التى أرغم على الخوض فيها دون إرادته .

هوامش الفصل السابع عشر

1. Strohl 222-226, D. Hourticq.
2. D. Hourticq, 42.
3. Strohl, 233.
4. Strohl, 221-251, Greiner, 133-153, Bainon 201-221,
ميرل دوبيناه ٤٥٨ - ٤٦٨ ودكتور عزت زكى ٦٨ - ٧٤
5. Strohl, 233.
6. A. Greiner 142-150.
7. Henri Strohl, 227.
8. A. Greiner, 149.

الفصل الثامن عشر

زواج الراهب مارتن لوثر

تعود بعض الاغنياء والنبلاء ان يضعوا نباتهم فى سن مبكرة جداً فى الاديرة بحجة تعليمهن وتهذيبهن روحيا وثقافيا وأدبياً . ولكن الحقيقة أن هؤلاء النبلاء كانوا يقصدون التخلص منهن مدى الحياة[1] .

فعندما كانت الواحدة من هؤلاء البنات تبلغ سن السادسة عشر من عمرها (أى السن الذى فيه يمكنها أن تلبس الملابس الرهبانية) كان أبوها يدفع مبلغا من المال الى الدير كمهر لهذه الفتاة وبهذا تصبح راهبة لمدى الحياة ومن ثم فلا حق لها فى اقتسام الميراث مع اخوتها .

وعلى مايبدو فان كاترين هانزفون بورا كانت واحدة من هؤلاء البنات اللائى كن ضحية لتلك العادة المتبعة . فقد ماتت امها وتزوج والدها بأخرى وأرسلها مدرسة الدير فى الخامسة من عمرها . وعندما بدأ الاصلاح كان هناك عدد كبير من البنات فى عدة أديرة لمثل هذه الاسباب .

وفى دير نيمبتش (Nimptsch) فى ساكسونيا بدأ بعض الراهبات فى قراءة كتابات لوثر ثم دراسة الكتاب المقدس . وعندئذ بدأن فى التفكير فى حالتهن ، ولم يقبلن هذا الوضع الذى فرض عليهن فرضاً أو على الاقل فرض على بعضهن . ولذلك فقد قررت اثنتى عشرة فتاة الاتصال بعائلاتهن للعودة الى منازلهن وكان رد عائلاتهن بالرفض وعندئذ كتبن الى بعض المصلحين فى مدينة نورمبرج (Nuremberg) الذين اتصلوا ببعض الشخصيات المعروفة والكريمة والتى لايشوب سمعتها شائبة فى مدينة توركو (Torgau) فنظم ليونار كوب وابن اخيه عملية لخطف هؤلاء الراهبات من الدير ، وتم ذلك فعلا فى احدى ليالى أبريل (نيسان) ١٥٢٣ وقد احضرهن الى فيتمبرج* وكان على المصلح ان يجد لهن حلا واستطاع ان يقنع بعض العائلات بعودة بناتهن أما باقى البنات فقد حاول لوثر أن يجد لهن عملا . وكان من بينهن كاترين بورا . وفعلا وفق فى الحاقهن جميعا بأعمال مختلفة . اما كاترين فقد أخذها غنى من مدينة فيتمبرج للعمل فى منزله .

وفى يوم من الأيام تعلق قلبها بطالب من مدينة نورمبرج وهو جيروم بوكارتنر . على أن



هذا الحب لم يدم طويلا لان هذا الشاب عاد الى مدينته وتزوج من فتاة اخرى نزولا على رغبة والديه ثم تقدم اليها كلاتز فرفضت الزواج منه . إنها لا تريد أن تتزوج حبا فى الزواج بل تريد أن تتزوج شخصا تقتنع به وتحبه وإلا فانها تفضل أن تبقى بنتا بلا زواج كل حياتها . هذا ماكتبته الى أمسدورف (Amsdorf) الذى اقترح عليها مع لوثر الزواج من كلاتز ثم أضافت فى خطابها قائلة : أما إذا عرضت على أنت أو لوثر أن اكون زوجة لواحد منكما فلن ارفض ذلك أبداً . عرف لوثر هذا الرد ولكنه كان لا يفكر فى الزواج ، وخاصة فى هذا الوقت نعم انه كان لا يمانع فى زواج الرهبان ولكنه يعلم بهذا التعليم لكى يستفيد هو منه ، بل نادى به كمبدأ انجيلى عام . اما بالنسبة لشخصيته فلم يكن يفكر فى الزواج لان حياته كانت مهددة

فى كل يوم ولذلك فقد كتب فى ٣٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٥٢٤ « اننى لا افكر فى الزواج إذ اننى أتوقع عقوبة الموت فى أى يوم كهرطوق »[٢] ترى هل بدأ يفكر فى الزواج جديا بعد أن سمع رأى كاترين ؟ ربما .. على أى حال بدأت الفكرة تنضج فى فكره واخيراً قرر الزواج من كاترين . وفى يوم ١٣ يونيو (حزيران) ١٥٢٥ قام بمراسيم الزواج صديقاه القس يونان والقس بوجنهاجن (Tonas, Bugenhagen) وقد شهد على هذا الزواج كل من المحامى آبل (Appel) وصديقه الرسام لوقاس كراناس (Lucas Cranach) وفى يوم ١٤ يونيو (حزيران) أرسل لوثر خطابا الى سبلاتين لكى يبلغ الخبر للملك الجديد . وفى يوم ٢٧ من نفس الشهر دعى العروسان اصدقاءهما الى حفل عشاء بمناسبة زواجهما . كان لوثر قد بلغ الثانية والاربعين وكاترين السادسة والعشرين عند زواجهما .

لقد أثار هذا الزواج ضجة كبرى لا فى الأوساط الكاثوليكية فحسب بل حتى بين المصلحين لدرجة ان صديقه المحبوب - وذراعه الأيمن الشاب ملانكثون لم يحضر حفل الزواج ، على ان هذه القطيعة لم تستمر طويلاً بينهما .

كان لوثر سعيداً مع زوجته كاترين وكان بيتهما - وهو الدير الاغسطينى - مفتوحا لكثيرين من الخدام وغير الخدام . فان الذين كانوا يتناولون الطعام يومياً على مائدتهما حوالى ٢٥ شخصاً . ولقد أنعم الرب على هذين الزوجين باولاد عنيا بتربيتهم تربية مسيحية . على أن لوثر كان متأثراً بطريقة التعليم فى عصره - لانه كان ابن عصره فى اشياء كثيرة - فقد قال : « اننى افضل ابنا ميتاً على ابن حى غير مؤدب » .

جاء المولود الأول فى هذه العائلة يوم ٧ يونيو (حزيران) ١٥٢٦ ويدعى يوحنا (هانس) على اسم أبيه . ولما كان والداه سعيدين جداً بزواجه كانا سعيدين ايضا باولاده (ميرل دوبنياه ص ٤٧٦) وفى يوم ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢٧ ولدت اليزابيث . وفى يوم ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٢٩ ولدت البنت الثانية مجدلين . وفى يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٥٣١ اعطاهما الرب ولداً وسمياه مارتن . ثم فى ٢٨ يناير (كانون الثانى) ١٥٣٣ جاء بولس . وفى يوم ١٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٥٣٤ ولدت مارجريت . ولقد ماتت اليزابيث فى عامها الأول ، كما ان مجدلين انتقلت هى ايضا فى الثالثة عشرة من عمرها .

كان لوثر يقضى أوقاتا طويلة مع اطفاله* فى الحديث معهم والاصغاء اليهم . ولقد كتب لهم بعض القصص المسلية وجمع ٤٨٩ مثلا وقصة . ومازالت مكتبة اكسفورد تحتفظ بهذه المخطوطات[٣] .

لكن وفاة الزابيث ومجدلين ملأت قلب الأب والأم حزنا عميقاً . وعندما أصاب المرض

ابنته مجدلين كان لوثر يصارع مع الله فى الصلاة لكى يترأف الرب عليها ويشفيها ، لأنه كان يحبها حباً عميقاً . فعندما ماتت تركت فى قلبه جرحاً عميقاً جداً ولكنه تعزى على رجاء القيامة[٤] .



هوامش الفصل الثامن عشر

1. D. Hourticq, 74.

* كانت واحدة من هؤلاء الراهبات من عائلة رئيس الاديرة الاغسطينية وهى مدلين ستوبتنز .

2. Greiner, 158.

* يحتمل بأن واحداً من ابناء لوثر كان يحمل اسمين كما هو معتاد فى اوربا (وهو اسم يعقوب) .

3. A. greiner, 161.

4. Bainton 223-230, Greiner 157-163, Hourticq, 74-80.

موريسون ١٠٨ – ١١٤ ، ميرل دوبينياه ٤٧٤ – ٤٧٨ ، د . لبيب مشرق ١٧٩ – ١٨٣

الفصل التاسع عشر

صعوبات فى وجه الكنيسة الناشئة

لم تستطع الحياة السعيدة والجديدة التى كان يحياها المصلح مع زوجته كاترين أن تلهيه عن الخدمة المقدسة أو أن تنسيه الرسالة التى وضعت على عاتقه . ولم تكن كاترين حملا ثقيلا يحمله على كتفيه ، بل كانت معينة له . فلم يعد يحس بالوحدة عندما يرجع الى الدير بل كان يجد كاتى التى تبتسم له وتساعده فى احتمال المشقات . وما اكثر المشقات التى اعترضت حياة المصلح . وأول مشكلة تشارك فيها كاترين زوجها : كانت مشكلة التحالف السياسى الكاثوليكى .

لقد حاول بعض الملوك الكاثوليك استخدام ثورة الفلاحين ضد حركة الاصلاح للتشهير بلوثر وبحركته الجديدة ، ولكى يقضوا على هذه الحركة . لذلك قاموا بحملة دعاية وتوعية هدفها توحيد الأمراء والملوك الكاثوليك فى المانيا ضد الامراء الذين انضموا الى الاصلاح وعملوا على نشره . ولقد طالبوا بنفس الطلبات التى طالبوا بها مجلس الشعب (الدايت) عدة مرات : وهى سحق حركة الاصلاح الهرطوقية . ولقد وافق على طلبهم وساندهم بقوة الامبراطور شارل الخامس . وخاصة وانه قد أنهى الحرب مع الملك فرانسوا الأول ، فكان فى استطاعته أن يخوض هذه الحرب اللوثريين لكى يصفى المشكلة الألمانية . ولذلك فقد ارسل خطابا الى هؤلاء الأمراء الكاثوليك يعرفهم بانه سوف يقوم بعملية حربية لكى يلاشى من الوجود مذهب لوثر الملعون والذى كان سببا فى المذابح والخراب والدمار .

شعر أمراء الاصلاح بان اماراتهم ورعاياهم مهددون بهذا التحالف . وعندئذ اجتمع منتخب ملك ساكسونيا ووالى مقاطعة هس (Hesse) مع خمسة أمراء انجيليين آخرين وأنضمت اليهم مدينة مجد بورج ، وقاموا بعمل معاهدة سنة ١٥٢٦ وتدعى بمعاهدة توركو (Torgau) ولقد اعلن المتحالفون ان هذا الحلف دفاعى فقط وليس هجوميا وذلك لحمل المسئولية التى أوكلها لهم فى الدفاع عن رعاياهم .

ومع أن هذه المعاهدة اظهرت ترابط الأمراء الانجيليين واتحادهم الا ان لوثر اظهر عدم ارتياحه لها . ففى بحث كتبه لمعالجة هذا الموضوع كان يتساءل إذا كان الذين يحاربون قد حصلوا فعلا على الخلاص[1] .

بدأ يظهر شبح الحرب من جديد مهدداً الدولة الألمانية كلها مرة ثانية خاصة وأن الامبراطور كان قد عزم على تطبيق قرارات فورمس بحذافيرها ، لكى يصفى الهرطقة اللوثرية تصفية كاملة . فى هذا الجو الذى كان مشحونا بروح الحرب الأهلية بدأ مجلس الأمة جدول اعماله فى صيف ١٥٢٦ فى مدينة اسبيرس . ولكن عندما وصلت اخبار تحالف بابا روما اكليمندس وفرسوا الأول ، وأخبار تهديد الاتراك لأوربا ووصولهم الى المجر ، غير الامبراطور والأمراء الكاثوليك موقفهم من الامراء المصلحين حتى يتفرغوا لمقاومة العدو الأجنبى الخارجى . ولذلك فقد اتفقوا على أن كل ولاية حرة تتصرف كما يبدو لها على أن تتصرف وتعمل بما يرضى الله حسب عقيدتها التى تريدها .

وهكذا زال شبح الحرب الذى كان يهدد الانجيليين ، على أن هذا القرار : أى ترك الحرية لكل أمير يتصرف حسب مايبدو له حسنا لم يكن الا هدنة قصيرة . فقد دخل الامبراطور شارل الخامس وامراء المانيا فى حرب مروعة ضد البابا ، ولم تنته الا فى ٦ مارس (آذار) ١٥٢٧ وقد مات فى هذه الحرب ٥٣ الف شخص بسبب الحرب أو بالطاعون وسقطت روما مهدمة الحصون والقصور مضرجة فى دماء سكانها . نادى البعض بطريقة هستيرية أن لوثر بابا على روما . وبعد هذه الكارثة العظمى ، وانتصار شارل الخامس على البابا اتحد معه وقطع معاهدة مع اكليمندس السابع ضد الهرطقة للعمل على القضاء عليها سريعاً .

لقد حفلت سنة ١٥٢٧ بالكوارث فقد انتشر وباء الطاعون فى مدينة فيتمبرج وهجر المدينة عدد كبير من الأساتذة . أما لوثر وكاترين فلم يتركاها بالرغم من ان كاترين كانت حاملا . ومرض لوثر وأشرف على الموت . وخشى بان يشاع عنه بعد موته بانه انكر تعاليمه التى نادى بها ، لذلك قال لمن حوله بانه لا ينكر تعاليمه وانه متمسك بها ، وأنه يؤمن بان كل ماعلم به مطابق الحق الإلهى[٢]

لم تكن الكنيسة الانجيلية المصلحة مهددة بالتحالف السياسى الخارجى فحسب ، بل كانت مهددة أيضا فى الداخل وفى عقيدتها نفسها . ومن الأشياء التى عرضت الكنيسة فى ذلك الوقت للانقسام الداخلى عقيدة العشاء الربانى . فلقد تسمك كارلستادت والمصلح السويسرى زونجلى واتباعهما بأن العشاء الربانى مجرد تذكار واما لوثر فقد تمسك بحرفية النص الكتابى .

زيارة لوثر وملانكثون لبعض الكنائس :

نظم لوثر - بعد موافقة الملك وبمساعدة صديقه سبالاتين (Spalatin) حملة زيارات للكنائس . وقام ملانكثون وآخرون بأول حملة سنة ١٥٢٧ . ولقد اكتشفوا بان الكنيسة كانت تعيش عيشة يرثى لها من الناحية الروحية والمادية . وفى الجولة الثانية التى قام بها لوثر فى

سنة ١٥٢٩ لمس حقائق مذهلة ومحزنة كانت تعيشها الكنائس التي قبلت مبادىء الاصلاح ولكنها لا تعرف شيئاً عن الحقائق الانجيلية . فلقد رأى كنائس كثيرة مصلحة بدون خدام كما أنه اكتشف أيضا عدداً كبيراً جداً من العلمانيين وحتى من الخدام يجهلون أبسط الحقائق الانجيلية . ولهذا فقد قام بعد عودته من هذه الجولة قام بكتابة مايدعى فى التقليد الكاثوليكى « بالتعليم المسيحى المفصل والتعليم المسيحى والمختصر . وقد اصطلح البروتستانت على تسميته بأصول الايمان المفصل وأصول الايمان المختصر » . ففى أصول الايمان المفصل أراد لوثر أن يقدم للعلمانيين وللرعاة بعض الحقائق البدائية البسيطة عن المسيحية لتساعدهم على فهم الحقائق والمبادىء المسيحية وشرحها للشعب . وأما فى كتاب اصول الايمان المختصر فقد تناول نفس المواضيع ولكن بطريقة اكثر بساطة إذ أنه خصصه للأطفال . ولقد ركز بحثه فى هذين الكتابين على خمس نقاط :

١ – الوصايا العشر وهى عبارة عن مرآة للخطية .

٢ – قوانين الايمان كاعلان لمغفرة الخطايا .

٣ – الصلاة الربانية التى تعلن رحمة ومحبة الله .

٤ – فريضة العماد .

٥ – فريضة العشاء الربانى[٣] .

وقد لاق هذان الكتابان اقبالا شديداً لأن الشعب كان فعلا فى حاجة اليهما .

هوامش الفصل التاسع عشر

A. Greiner , P. 163.

2. Bainton, P. 228-254, Greiner, P. 164-165.

3. Kastlin, P. 311-314, Greiner, P. 174-185.

الفصل العشرون

اجتماع مجلس الأمة (الدايت) فى سبيرس

ودعى اللوثريون بروتستانت فى سبيرس أولا (أع ١١ : ٢٦)

بينما كان لوثر يعمل جاهداً ليل نهار لبناء وتقدم الكنيسة فى المانيا ، كان أعداء هذه الحركة لا يألون جهداً لايقافها وشل حركتها والقضاء عليها . ففى كل اجتماع - تقريبا - لمجلس الأمة (الدايت) كان ملوك وامراء وحكام المقاطعات الكاثوليكية يطالبون بتنفيذ قرارات فورمس أى : مطاردة ومحاكمة لوثر وأتباعه . وعندما اجتمع الدايت فى مارس (آذار) ١٥٢٩ فى سبيرس (أو سيبر) تقدم الملوك والأمراء بنفس المطاليب التى إعتادوا المطالبة بها . لكنهم طالبوا بمطاليب أخرى هذه المرة :

١ - الغاء قرارات مجلس الأمة التى صدرت سنة ١٥٢٦ التى كانت تمنح كل أمير الحرية الكاملة فى حكم ولايته بالطريقة التى يراها .

٢ - منع تقدم الاصلاح فى المناطق الكاثوليكية وذلك بمبلغ التبشير فى تلك المناطق ، ومنع اقامة كنائس لوثرية فى أى مكان فيه كنيسة كاثوليكية .

٣ - منح الحرية للكاثوليك للعبادة سواء فى المناطق الكاثوليكية أو فى المناطق التى شملها الاصلاح . وهذا يعنى أن الامراء الكاثوليك كانوا يطالبون بالغاء حرية العبادة وحرية اختيار المذهب . ومحاولة القضاء على الاصلاح كلية .

وازاء هذا الظلم الصارخ اجتمع امراء الشمال مع أمراء ١٤ مدينة من الجنوب وأعلنوا احتجاجهم ضد هذا القرار الذى اتخذته الأغلبية فى مجلس الأمة . قائلين : « نحن نحتج » «We Protest» نحتج امام الله الفاحص القلوب والكلى والقاضى العادل ، نحتج أمام الناس وكل الخلائق لانه لا يمكن أن نقبل أمرا كهذا مخالفا لله ولكلمته المقدسة . نحن نحتج ضد الظلم ، وكلمة يحتج (Proteste) « بروتست » اشتق منها الاصطلاح بروتستانت (Protestant) أى الذى يحتج ضد الظلم والطغيان ... فمن هذا التاريخ وفى سبيرس دعى اللوثريون بروتستانت أولا[1]* .

اجتماع ماربورج ومشكلة العشاء الربانى (الأفخارستيا)

بعد أن احتج الأمراء ضد الاغلبية الكاثوليكية فى مجلس الامة (الدايت) حاول فيليب حاكم مقاطعة هس (Hesse)[٢] أن يجمع صفوف المصلحين وان يقوى روابط الوحدة بينهم ولذلك فقد فكر فى عمل معاهدة مع بعض الامارت السويسرية التى قبلت الاصلاح . كانت الفكرة رائعة ولكنها لم تخل من الصعوبات . فان الذين يقومون بنشر الاصلاح فى بعض الدويلات السويسرية هم زوينكلى (Zwingli) وأكولامباد (Oecola Mpade) وبولانجر (Büllinger) وهؤلا يكفوا عن الانتقادات اللاذعة فى كتاباتهم ضد لوثر وضد تعاليمه . فلقد أتهموه بانه احتفظ بالكثير من الخرافات الرومانية . كما انتقدهم لوثر ايضا مشبها اياهم مرة بجماعة العقليين ومرة أخرى « بالدراويش » . ولكن بالرغم من هذه الصعوبات استطاع فيليب امير هس أن يختار ممثلين لهذين التيارين المصلحين لكى يناقشوا بعض المشاكل العقائدية التى تفرق صفوفهم (ميرل دوبينياه ٤٥٣ -- ٤٥٦ ، ٥٠٥ -٥٠٧)[٣] . وفى ٢٩ سبتمبر (ايلول) ١٥٢٩ وفى مدينة ماربورج (Marbourg) جاء من سويسرا ومن منطقة الالزاس بعض قادة حركة الاصلاح وعلى رأسهم زوينكلى ، ومن المانيا جماعة أخرى وعلى رأسها لوثر وملانكثون .

لقد ناقش هؤلاء بعض المشاكل العقائدية ، ولكن المشكلة الكبرى التى وقفوا أمامها وقتا طويلا والتى لم يستطيعوا حتى فى نهاية الاجتماع أن يجدوا لها حلا نهائيا وكاملا . كانت مشكلة العشاء الربانى . فقد عرف عن لوثر حدة الطبع وصلابة الرأى ، فمنذ أن وصل الى ماربورج كتب أمامه تحت غطاء المائدة التى جلسوا حولها كلمات السيد « هذا هو جسدى » فعندما كان يتكلم زوينكلى عن معنى رمزى أو استعارى كان لوثر يرفع غطاء المائدة فيتذكر ماتعهد به من التمسك بوجود جسد الرب حقيقة فى الخبز وفى الخمر . ولقد أعلن بانه لا يجب بأى حال من الأحوال التضحية بالحق الكتابى لحل المشكلة السياسية . ولقد تمسك كل طرف من الطرفين بآرائه . فان زوينكلى واتباعه رأوا فى العشاء الربانى مجرد ذكرى لموت المسيح ، ومسئولية نشر البشارة الى ان يجيء . أما لوثر وبعض اتباعه فقد تمسكوا بعقيدة ان المسيح موجود حقيقة لحما ودما فى الخبز وفى الخمر . لقد رفض لوثر العقيدة الكاثوليكية التى تعلم بالتحول أو التغيير الكلى والجزئى للخبز والخمر ، لكنه لم يقبل أن يكون العشاء الربانى مجرد ذكرى . اشتد النزاع بين الفريقين لدرجة ان لوثر لم يقبل حتى ان يدعو الفريق الآخر اخوة مالم يقبلوا عقيدة حلول جسد المسيح كاملا فى الخبز وفى الخمر . لاشك اننا نأسف لهذه الروح التى أظهرها لوثر ازاء اخوة فى المسيح وبالرغم من ذلك فقد استطاعوا ان يتفقوا على النقاط الآتية :

(١) العشاء الربانى ليس ذبيحة .

(٢) ان العناصر لا تتحول الى جسد ودم المسيح .

(٣) الاستفادة الحقيقية للعشاء الربانى تكون بالايمان .

(٤) العشاء الربانى هو اعلان للخبر السار .

أما النقط التى اختلفوا عليها فكانت :

(١) اعتقاد لوثر فى الحضور الحرفى والحقيقى لجسد ودم المسيح فى الخبز وفى الخمر .

(٢) كان زوينكلى يعتقد بان حضور الرب يتحقق فى اجتماع الجماعة حول العناصر[٤] .

وانفض الاجتماع فى ٤ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٢٩ بعد أن اعلن المجتمعون النقاط التى اتفقوا عليها .

هوامش الفصل العشرون

* بعد اجتماع مجلس الامة (الدايت) الذى عقد فى سبيرس دعى اللوثريون بروتستانت وليس فى اوجسبورج أو اكوسبورج كما يعتقد البعض .

1. E. Singmaster, P. 114, 115, Bainton, P. 246-248,

ميرل دوبينياه ، ص ٦٠٣ - ٦٧٠

2. Bainton, P. 240-251.
3. Hourticq, P. 82, 83.
4. Concilium Revue ... 118, D. Steinmets P. 76-82.

الفصل الحادى والعشرون

مجمع أوكسبورج أو أوغسبورج فى سنة ١٥٣٠

(Augsbourg)

كاثوليك وبروتستانت معا

لقد سبق أن ذكرنا أن الأمراء كانوا يطالبون بلا ملل – فى كل مرة يجتمع مجلس الأمة (الدايت) بتنفيذ قرارات مجتمع فورمس . بل أن الامبراطور نفسه اظهر هذه الرغبة اكثر من مرة . وفى السنين الأخيرة بدأت شقة الخلاف تتسع . وحاول كل من الطرفين المتنازعين ان يجمع شمله ويحصن مدنه . وأصبح شبح الحرب يرفرف من جديد وكان الملك شارل مشغولا بمشاكل مثل حربه مع فرنسا ومع الأتراك ومع البابا حتى انه كان يقضى معظم وقته خارج المانيا وقد أسند مسئولياته الى أخيه الملك فرديناند . لذلك لم يستطع الملك شارل – منذ انعقد مجمع فورمس – أن يولى قضية النزاع الدينى فى المانيا الاهتمام الكافى . اما وقد انتهت المشاكل والحروب ولو ظاهريا بينه وبين الملك فرنسوا ، وبينه وبين البابا ، فقد عقد العزم على أن يصفى المشكلة السياسية والدينية التى كانت تنخر عظام الأمة . وذلك بالقيام بمشروع للسلام يجمع شمل هذه البلاد الممزقة ويعيد السلام لالمانيا . لذلك رجع الى الاقتراح القديم الذى تردد اكثر من مرة وهو عقد مجمع على مستوى الدولة والكنيسة . يحضره الكاثوليك والبروتستانت . وفعلا تقرر أن يعقد مجمع على مستوى الامبراطورية الالمانية كلها ويضم الحزبين المتعارضين . وان يقدم فيه قادة الحزبين اعتقاداتهم الدينية لبحثها والوصول الى حل يرضى الطرفين . ودعى الامبراطور شارل الخامس الملوك والامراء والمسئولين الى مدينة اوكسبورج ابتداء من ٨ ابريل (نيسان) ١٥٣٠ .

كان من المفروض بان تقدم كل كنيسة عقيدتها وأفكارها الدينية لكى تناقش . فكان من الطبيعى أن ترسل كل كنيسة خير رجالها لتمثيلها وعرض عقيدتها . وطبعا كان لوثر المرشح الأول لحضور هذا المؤتمر لتمثيل البروتستانت ولكن لم يستطع لوثر أن يذهب الى هذا المؤتمر :

أولا : لانه كان محكوما عليه بالنفى ولا يمكنه أن يخرج من منطقة ساكسونيا .

ثانيا : لأن لوثر كان حاد الطبع صلب الرأى صعب الاقناع لا يعرف اللين أو المرونة فى

نقاشه . وقد اعترف هو نفسه بذلك . ولهذا فقد اتفق بأن يرأس وفد المصلحين فى هذا المؤتمر التاريخى الكبير* . الاستاذ الشاب ملانكثون ، وكان ملانكثون عالما ، هادىء الطبع دمث الاخلاق ، عميق التفكير ، واسع الافق والمعرفة ، متواضعاً .

عندما دخل القاصد الرسولى قاعة الاجتماع سجد الكاثوليك أمامه وظل الأمير البروتستانتى واقفا . ولقد لفت هذا الامر نظر الكثيرين من بداية أو لجلسة للصلح . كما أنه كان مفروضا أن يقدم كل طرف ملخصا لاعتقاداته وتعاليمه لمناقشتها ، لكن الجانب الكاثوليكى لم يقدم أى تقرير أو أى اقرار ايمان وهنا شعر الانجيليون كما لو كانوا فى موقف المجرم الحاكم وعليهم ان يقدموا مايؤمنون به لكى يحكم الآخرون بصحته أو ضلاله . ولم يكن هذا الموقف مشجعا للانجيليين .

على أى حال فقد قدم ملانكثون اقرار ايمان مكتوب . وقام الكاتب الأول للمنتخب قراءة النص . ومع أن لوثر كان وراء هذا النص أو – على الأقل – أوحى بالكثير منه – الا أن ملانكثون استطاع ان يقدمه بطريقة جذابة ، ظهرت فيها روح المحبة والرغبة العميقة فى الاتحاد . ولقد احتوى اقرار الايمان الذى يدعى باقرار ايمان اوكسبورج على ٢٨ بندا . واتفق الفريقان على قبول ٢١ بندا منه . ولقد شرح ملانكثون بانه لا يتمسك بالبنود السبعة الباقية – التى كانت موضوع الخلاف – لانه يعتقد بانه ليس لها أساس كتابى . ولقد حاول المصلح الشاب أن يتجنب ذكر بعض العقائد التى تثير المشاكل وتوسع شق الخلاف . فلم يذكر المطهر أو البابوات أو رسامة الكهنة وبعض العقائد الاخرى المختلف عليها .

بعد هذا العرض بدأ الوفدان فى مناقشة هذه البنود بالتفصيل ، وهنا ظهرت الخلافات . كان ملانكثون والوفد الذى حضر معه الى اوكسبورج يرسلون الى لوثر بأى تغيير يحدث فى النص أو أى اقتراح جديد ، لكى يستشيروه . وكان لوثر يعيش مضطرب الاعصاب وقلق البال اثناء فترة الحوار لانه كان يود لو استطاع الاشتراك فى هذه المناقشات . وقد هدد عدة مرات بحضور الاجتماع . لكنه لم يذهب واكتفى بالأخبار التى كانت تصل اليه عن طريق الرسائل . ولقد عرف لوثر من احدى هذه الرسائل ان الكاثوليك رفضوا اقرار الايمان الذى قدمه ملانكثون ثم قدموا هم قانون ايمان أو اقرار ايمان شرحوا فيه مايؤمنون به ومايرفضونه . ولقد كان الهدف من هذا الاقرار هو هدم اقرار الايمان الذى قدمه ملانكثون . وعندئذ كتب ملانكثون الى لوثر فى مدينة كوبورج التى كان ينتظر فيها لوثر الأخبار بفارغ الصبر وعرفه بهذا التغيير . وكان رد المصلح الى صديقه الشاب بان لايتزحزح قيد أنملة عن موقفه وان لا يتنازل عن شيء بعد ماقدمه من تنازلات كثيرة وهدده بالحضور اذا تنازل عن شيء آخر .

بدأت الأمور تتأزم فلقد تمسك الكاثوليك بموقفهم ، كما اعتقد لوثر أن ملانكثون تساهل

معهم فى اشياء كثيرة .

واما الامبراطور فرفض اقرار الايمان الذى اقترحه الانجيليون . وعندئذ كتب شارل الخامس الى روما يقول لن ينفع الآن الا العنف الذى يسوّى أثماره .

وخشى لوثر على اصدقائه فى هذا المؤتمر ، وطلب منهم الرجوع بسرعة . وكتب الى صديقه بونان فى يوم ٢٠ سبتمبر (ايلول) يقول « اننى أتوسل اليكم بان تكفوا عن المناقشة وترجعوا حالا .. »[1] وإذ تمسك كل وفد بموقفه منح الامبراطور اللوثريين مهلة حتى ١٥ ابريل (نيسان) ١٥٣١ ليغيروا موقفهم ويرجعوا ..

كان لوثر سعيداً بهذا القرار الذى سمح على الاقل بمهلة للانسحاب والعودة . فى هذه الفترة التى قضاها لوثر فى كوبورج (Cobourg) وصلته اخبار وفاة والده ولقد بكاه بكاء مراً وتألم لفراقه .

وفى يوم ١١ اكتوبر (تشرين الأول) ١٥٣٠ وصل الوفد الانجيلى الى فيتمبرج سالماً[2] وبيدهم اقرار الايمان الذى كتبه ملانكثون والذى يعتبر الآن من أعظم اقرارات الايمان التى تتمسك بها الكنيسة اللوثرية حتى الآن . ولحسن الحظ لم يتمسك الامبراطور بهذا التهديد الذى نطق به عندما أعطى مهلة للاصلاح حتى يوم ١٥ ابريل ١٥٣١ لكى يغير موقفه .

وبالرغم من هذه التهديدات ، كانت الكنيسة تنمو كل يوم . وقد أقام الرب فيها اناسا استطاعوا بالرغم من ضعفاتهم واخطائهم كبشر ان يسيروا بها الى الامام بنعمته ، واستمر لوثر الرجل الذى لا يعرف التعب أو الملل بعد هذا المجمع – الذى لم يحضر فيه الا بالفكر – يعمل بدون هوادة فتراه فى سنة ١٥٣٧ فى طريقه الى الاجتماع الذى دعى اليه امير هس وامير ساكسونيا فى شتاء ١٥٣٧ فى مدينة سمالكالد (Smalkalde) ولقد دعى الأميران لحضور هذا المجمع كل المدن والامراء البروتستانت لعمل معاهدة دفاع مشترك بينهم . على أن لوثر لم يستطع أن يحضر كل جلسات هذا الاجتماع لسبب مرضه واضطر الى الرجوع الى فيتمبرج وواصل المؤتمر عمله بدون المصلح وكانوا حلفا انجيليا للدفاع المشترك ، لكن لوثر كان يعارض كل معاهدة أو تحالف عسكرى للدفاع عن الانجيل . لانه كان يؤمن بان نشر الانجيل لا يكون باستعمال السيف الذى يترك الكراهية والحقد فى القلوب ، بل ينتشر بعمل روح الله الهادى المقنع الذى يعطى سلاما حقيقاً فى القلوب وفى النفوس .

هوامش الفصل الحادى والعشرون

* وصل الملوك والأمراء والوفود من كل المانيا وسار ايضا وفد المصلحين فى طريقه الى اوكسبورج وعند وصول الوفد الى كوبورج (Cobourg) ترك لوثر هناك عند الحدود لانه كان محكوما عليه بالنفى ولم يستطع مغادرة منطقة ساكسونيا كما سبقت الاشارة الى ذلك . فمكث هناك وكان ينتظر فى كل يوم بفارغ الصبر وصول الاخبار من اوكسبورج ليتابع تطور اخبار المناقشة .

1. A. Greiner, P. 181.
2. Singmaster, P. 115-119, Greiner P. 177-182.
D. Hourticq, P. 82- 85, ميرل دوبينياه ، ص ٦٩٠ - ٧٧٥

الفصل الثانى والعشرون

وان مات يتكلم بعد

كان المصلح الالمانى أمينا لله ، فلم تستطع وعود الواعدين أن تغريه أو تضله ، ولا وعيد المهددين أن يثنيه عن عزمه . فقد وضع امام عينيه هدفاً وشعاراً واحداً لله وحده المجد والكرامة كما كان شعلة من النشاط ، كرس حياته لخدمة السيد والكنيسة والناس . كانت حياته حياة ا لبذل والتضحية . عاش سخيا كريما أعطى فاجزل العطاء بلا حساب . احتمل لوثر فى حياته ما لا يستطيع أن يتحمله انسان . عاش طفولة صعبة وعانى صراعات فى المدرسة وناضل فى الجامعة وقاسى من شكوكه فى أمر خلاصه . ثم صارع مع الكنيسة الكاثوليكية والامبراطور والأمراء الكاثوليك . هذا بخلاف جهاده فى تكوين وتطوير الكنيسة على جميع المستويات . وكتاباته العديدة والمجهود الذى بذله فى ترجمة الكتاب المقدس بعهديه . ثم نضاله السياسى الذى زج فيه زجا دون ان يريد ذلك . وحزنه العميق على ابنتيه وخاصة مجدلين ... حمل هذا الرجل كل هذه الأحمال الثقيلة وعانى من بعض الأمراض الجسدية . كل هذا قد اضعف من صحة المصلح وقوته . وبالرغم من كل هذا كان دائماً على استعداد لأن يقوم بخدمة الجميع مهما كان الأمر مكلفاً .

عندما اشتد النزاع بين كونتى Comtes مانسفلد البرت وادجارت . لم يحاول لوثر ان يجد عذرا لعدم الذهاب ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تدخل فيها المصلح لفض النزاع إذ أنه ذهب قبل ذلك مع ملانكثون مرتين الى مانسفلد لحل المشكلة العائلية .

ترك لوثر فيتمبرج فى ٢٣ يناير (كانون الثانى) ١٥٤٦ . لم تكن كاثى سعيدة بهذه الرحلة وخاصة عندما رأت زوجها يغادر البيت فى فصل الشتاء القارس البرد وهى تعرف أن صحته الضعيفة لا تحتمل عناء السفر المضنى المتعب فى الشتاء . ولقد اقترح لوثر على كاثى (كاترين) ان يصطحب معه أولاده معه لكى ينتهزوا هذه الفرصة لزيارة عمهم يعقوب فى مانسفلد . ووافقت زوجته فانطلقوا فى طريقهن الى مسقط رأسه . وبعد رحلة طويلة متعبة شاقة فى فصل الشتاء القارس البرودة وصل الموكب فى ٣١ يناير (كانون الثانى) أيسلبن وهناك قام لوثر يوم الاحد بخدمة الوعظ فى نفس الكنيسة التى عمد فيها من حوالى ٦٢ سنة كما انه وعظ أيضا فى نفس الكنيسة فى يوم ٧ ، ١٤ فبراير (شباط) ثم قام بسيامة خادمين جديدين . وفى يوم ١٤ كتب خطابا رقيقا لكاترين وكان هذا آخر خطاب يكتبه لها .

وفى يوم ١٦ فبراير (شباط) وصل الى حل لمشكلات العائلات المنقسمة بسبب الميراث ووقع الجميع على عقد الاتفاق والصلح وفى نفس اليوم شعر لوثر بحالة ضعف عام فى جسده وعندئذ ذهب الى حجرته لكى يستريح . اخذ ورقة وكتب عليها هذه الكلمات ... « نحن متسولون وهذه الحقيقة »[1] وكانت هذه هى آخر كلمات كتبها المصلح العظيم بيده .

لقد استيقظ فى الليل (يوم ١٧) على آثار آلام شديدة جداً . كان لوثر مازال يعانى من جرح قديم فى ساقه كما أنه كان يشكو من مرض الكلى وبعض الأمراض الأخرى . وفى الظهر تناول طعام الغداء وفى مساء اليوم نفسه بدأ يصلى كعادته بصوت عال أمام النافذة المفتوحة ... وبعد الصلاة فأجأته أزمة سعال حادة . وعندئذ حضر الطبيب مع اصدقائه وأعطى له بعض العقاقير وبدأ يشعر بشىء من الراحة ثم نام قليلا . وعندما استيقظ فى الساعة الواحدة صباحاً ، تكلم مع اصدقائه ، ثم طلب أن يتوكأ على أحدهم لكى يتمشى قليلا ، ثم رجع الى سريره . وكان بالقرب منه ولداه مارتن وبولس اللذان حضرا معه من فيتمبرج وعدد كبير من الاصدقاء مثل القس يونان وكوليوس واوريفاء ، والكونت وزوجته .

كان المصلح يردد من وقت لآخر بعض الصلوات وبعض النصوص الكتابية مثل « هكذا احب الله العالم .. » وغيرها . كان يتلو هذه النصوص بالألمانية واللاتينية وكذلك كرر عدة مرات كلمات السيد « ياأبتاه فى يديك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) وكان بالقرب منه صديقه الحميم والزميل المحبوب القس يونان وهو الذى سجل للاجيال اللحظات الأخيرة من حياة المصلح . ويلاحظ الدارس لحياة لوثر أن هناك عدة نصوص لصلواته الاخيرة ، وان المتخصصين فى اللوثريات يعتقدون بان لوثر قد صلى فعلا عدة مرات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . فمن المحتمل أن لوثر نطق بها كلها .

وبعد أن صلى المصلح العظيم المجاهد واحدة من هذه الصلوات العديدة التى ذكرها الكثيرون بدأ وجهه كمصباح يخفت نوره رويداً رويداً . وعندئذ اقترب منه القس جاست يونان وسأله قائلا : « ايها الاب الموقر هل تريد أن تموت وانت معتمد على يسوع المسيح ومتمسك بالتعاليم التى علمت بها ؟ فبعد أن هدأت انفاسه قال بصوت واضح ومرتفع سمعه الذين كانوا حوله ، نعم وبعد نصف ساعة من هذا الرد الواضح المسموع بدأت تخفت انفاسه وتخمد حركته وقرب الاطباء الشمعة من أنفه عدة مرات فادركوا بأنه قد فارق الحياة .

انطلق الرجل الى المجد فى حوالى الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس الموافق ١٨ فبراير (شباط) ١٥٤٦ فى المدينة التى ولد وتعمد فيها . وهكذا مات لوثر ، ولكنه وان مات يتكلم بعد .

وانتشر خبر وفاة لوثر سريعا إذ قام الاصدقاء بالكتابة الى كاترين والى اخرين . ورفض الملك طلب كونت مانسفلد الذى أراد أن يدفن جسد المصلح فى المدينة التى ولد فيها . وتمسك الملك بدفنه فى فيتمبرج المكان الذى جعل منه لوثر منارة للانجيل .

وسار موكب جنازة المصلح الالمانى الى فيتمبرج ولقد تعالت على طول الطريق دقات اجراس يودعونه الوداع الاخير . ووصل الموكب الى المدينة الساعة التاسعة صباحاً من يوم ٢٢ فبراير (شباط) وفى فيتمبرج اقتربت جثته من باب الكاتدرائية التى علق عليها بنوده الـ ٩٥ والتى هزت قوات ذلك العصر وغيرت الاوضاع فى المانيا وفى بلاد اخرى كثيرة .

لقد خرجت المدينة عن بكرة ابيها شعبا واساتذة والمنتخب وحاشيته لكى يستقبلوا ويودعوا فى نفس الوقت المصلح العظيم . وألقى بوميرانوس (Pomeranus) عظة باللغة الألمانية عن الآيات التى وردت فى الرسالة الأولى الى اهل تسالونيكى (٤ : ٤ - ١٦) ثم القى ملانكثون عظة قصيرة باللغة اللاتينية وملخصها : « اختفت مركبة اسرائيل ، اختفى قائد اسرائيل ، الذى كان يقود الكنيسة التى مرت فى الايام الأخيرة بفترة حزينة . ان اكتشافه لعقيدة غفران الخطايا بالايمان بابن الله لم يكن ثمرة الذكاء والتفكير البشرى ، بل أن الله نفسه الذى أقام لنا هذا الرجل لكى يعلن لنا هذه الحقيقة . فلنحفظ هذه الذكرى ولنحتفظ بهذه العقيدة ... ياابن الله ياعمانوئيل الذى صلب من اجلنا وقام تكرم واحفظ وارع واحم كنيستك » .

وبعد انتهاء الخدمة رجع كل الى منزله وقد ملأ الحزن قلوب الاصدقاء والاحباء على فراق صديق حميم وأخ محب وأب مرشد . اما حزن كاترين واولادها فقد فاق حزن الجميع . لكنهم كانوا ينتظرون جميعا رجاء القيامة حيث لا سلطان للموت فيما بعد . بقيت كاترين مع بعض من أولادها فى الدير الاسود* الذى كانت تسكنه العائلة قبل موت المصلح . وبما أن لوثر لم يترك لهم شيئاً من متاع الدنيا ، كان على الأم الأرملة الفاضلة ان تعمل بيديها لسد حاجات العائلة المادية . ولقد تركت كاترين فيتمبرج فى سنة ١٥٥٢ بسبب وباء الطاعون وماتت ودفنت فى توركو (Torgau) ماتت بعد ست سنوات من وفاة زوجها لوثر .

أما الأولاد الستة : فإن مجدلين واليزابث ماتا فى سن مبكر قبل موت لوثر ومارتن لم يترك اطفالا بعد موته . واما يوحنا فقد ولدت له ابنه وماتت دون ان تترك ذرية . لكن ذرية بولس ومارجريت هى التى بقيت[٢] .

لقد مات لوثر وبكاه أحباؤه بكاء مراً لانه ترك فراغا عظيما فى كنيسته وفى بيته لكنه ترك كنزاً عظيماً من الكتب فهو وان مات يتلكم بعد . ترك ايضا كنيسة تحاول ان تكون أمينة لإلهها فى التمسك بالحق الالهى والمناداه به . لقد امتدت الكنيسة اللوثرية فى كل المانيا وفى

العالم كله تقريبا . والاحصائيات الاخيرة التى اجريت فى سنة ١٩٨٢ تظهر بان الكنيسة اللوثرية فى العالم تضم الآن سبعين ونصف مليون لوثرى . ولقد اتحدت معظم هذه الكنائس وكونت مايدعى بالاتحاد اللوثرى العالمى ومركزه فى جنيف وهو عضو ايضا فى مجلس الكنائس العالمى .

هل كان يعلم البابا ليون العاشر عندما وقع على صك حرمان لوثر فى ٣ يناير ١٥٢١ بانه يوقع فى نفس الوقت على صك خروج مايقرب من ثلث المسيحيين من الكنيسة الكاثوليكية الذين عرفوا فيما بعد بالكنيسة البروتستانتية ؟ .

هوامش الفصل الثانى والعشرون

1. A. Greiner, P. 197.

★ سمى بالدير الاسود لأن الرهبان الاغسطينيين الذين كانوا يسكنون فيه كانوا يلبسون ملابس سوداء .

2. Singmaster P. 132.

الفصل الثالث والعشرون

نماذج من تعاليم لوثر

وان كان المجال لا يسمح بعرض كل التعاليم والنظريات التى نادى بها المصلح لأنها كثيرة ومتشعبة فأننا سنكتفى هنا بأن نقدم نماذج فقط من تعاليمه وحتى فى معالجتنا لهذه النماذج سنضطر الى معالجتها بطريقة موجزة جداً ، ولنبدأ بمفهوم لوثر عن شخص المسيح (Christology) .

مفهوم الكرستولوجى :

يحتل شخص الرب يسوع المسيح مكانة هامة جداً فى تفكير وتعليم المصلح الالمانى . فيسوع هو الذى خلصنا من خطايانا وصالحنا مع الاب الغاضب ولقد تمت المصالحة لا لأن الانسان عمل أعمال بر وعلى رضى الله ، بل لان شخص المسيح يسوع قد مات بدل الانسان الخاطىء . ولا مجال للشك فى ان ميلاد المسيح وموته حادثتان حقيقيتان ولكن لوثر ينبر فى كل كتاباته وعظاته وتعاليمه على ماهو أهم من معرفة أن المسيح يسوع ولد وعاش وعمل بعض المعجزات ومات ودفن وقام فى اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ...

هو أن يعتبر الانسان أن كل هذا قد حدث فعلا ولكنه حدث من أجله شخصيا[١] وعليه أن يقبل هذه الحقيقة بالايمان والسامع والقارىء الانجيل .

وفى كلامه عن الايمان يقدم لنا نوعين من الايمان :

النوع الأول :

الايمان التاريخى : أو ايمان المعرفة العقلية أى أن الانسان الذى يسمع الانجيل ويعرف تاريخ السيد وحياته ، يعرف أن يسوع ولد من مريم العذراء و يعرف أين عاش وكيف عاش وانه مات وقام الخ ... فإذا اكتفى بهذه الحقائق فقط أى المعرفة التاريخية ، فهذه المعرفة التاريخية العامة لاتقوده الى الخلاص . فإن كثيرين من الاشرار يعرفون ذلك وحتى الشياطين يعرفون هذه الحقيقة « فالشياطين يؤمنون ويقشعرون » (يع ٢ : ١٩)[٢] .

النوع الثانى : فهو لا يتوقف فقط على المعرفة التاريخية لكنه يرى يسوع التاريخ حقيقة فى حياتنا ، بمعنى الاعتراف به وقبوله سيداً ومخلصاً شخصياً وهنا يجب عدم الفصل بين المسيح العامل وبين أعماله . فان الاعمال التى قام بها المسيح فى الماضى فى زمن معين وفى مكان معين ، لكنه مازال حاضراً بشخصه ومازالت أعماله مستمرة حتى الآن فالمسيح الذى ولد من عذراء وعاش على الأرض وصلب وقام : عمل كل هذا من أجل الانسان وحباً فيه . فان مجيئه على الأرض لايعنى أنه قام برحلة سياحية أو ترفيهية ، بل جاء لكى يخلص الانسان ، جاء لكى يبذل نفسه فدية عن كثيرين (مز ١٠ : ٤٥) هذا سبب مجيئه[٣] .

ففى نظر لوثر تكمن اهمية ماقام به المسيح فى أنه قام بها من أجلنا – وهذا ما شدد عليه ايضا – كارل بارت .

وفى كلامه عن السيد وعن ضرورة قبوله كالمخلص الشخصى ، حاول أن يعالج مشكلة تعرض لها أهل عصره كما يتعرض لها كثيرون فى العصر الحاضر ، وهى محاولة اقتفاء اثر خطوات يسوع المسيح أو اتخاذه كمثال . ولقد عارض المصلح الالمانى هذه الفكرة فقد حاول الناس فى أيامه أن يتبعوا أثار خطوات السيد بطريقة حرفية فامتنعوا عن الزواج أو تركوا عائلاتهم بل تطورت الفكرة حتى ان البعض كان يجلد نفسه يوم الجمعة الحزينة من كل عام مع أن المسيح لم يجلد نفسه ...

هكذا علم البعض فى عصره بهذه التعاليم ، كما ان كارلستادت علم بانه يجب على الانسان ان يطهر نفسه من الامور العالمية قبل حلول الروح القدس عليه ...

رفض لوثر هذه الافكار وعلم بان يسوع المسيح هو عطية الله . وعندما نقبل هذه العطية بالايمان من يد الله نصير خليقة جديدة ، وعندئذ فقط نستطيع ان نتخذ يسوع مثالا لنا لكى نتبع آثار خطواته . ونلاحظ هنا خوف لوثر المستمر من فكرة التبرير بالاعمال . فهو يخشى ان يعتقد الانسان الذى يريد أن يتمثل بيسوع فى حياته أن قيامه بهذا العمل يعتبر عملا استحقاقياً ينال عن طريقه الخلاص . والمؤمن لا يتبع يسوع لكى يخلص ، بل يتبعه لأنه خلص بالايمان الذى هو عطية الله المجانية .

وبما أننا فى مجال الحديث عن الخلاص يجب ان نسأل هذا السؤال . فهو يقدم لنا صورة لله الغاضب على شر الانسان[٤] . والخطية فى مفهوم لوثر ليست مجرد كسر الناموس أو الوصايا العشر فحسب ، بل ان الخطية هى نسيان الله . فالانسان ينسى الله ويقيم من نفسه الها وهذا هو الشر بعينه الذى يجعل الله يعلن غضبه (رو ١ : ١٨)[٥] .

فالله يعلن غضبه على شر الانسان ، والانسان لا يريد أن يعرف هذا أو حتى يسمعه .

كانت صورة الله فى مخيلة لوثر قبل ان تتعامل معه نعمة الله صورة الإله الديان الذى لا يرى الانسان الا فى خطاياه وآثامه وبعده عنه . ولكن بعد أن افتقدته النعمة اكتشف ان هذا الإله العادل المنتقم هو إله محب ورحيم أيضا . ولذلك كتب يقول : « وعندما رأى الآب الرؤوف أننا متعبون ومرهقون من ثقل الناموس ، ومحروسون تحت لعنته ولا يوجد من يخلصنا من قبضته أرسل ابنه للعالم فحمل كل خطايانا .. وقال له وف انت عدلي .. »[٦] .

فيسوع أخذ مكان الخاطىء ، أى أن البار القدوس والذى بلا خطية جعل خطية والخاطىء الشرير أصبح باراً وهذه عملية المبادلة[٧] كما يقول الرسول بولس (٢ كو ٥ : ٢١) .

ولقد شدد لوثر على ان المبادلة ليست عملية خيالية أو تمثيلية بل هى حقيقة ، فان يسوع وقد صار نائبا عن الانسان الخاطىء تحمل غضب الله وتجرع الكأس حتى الثمالة : فإن المسيح اجتاز فعلا فى كل الآلام وتحمل كل العقاب الذى كان معلنا على كل أثيم خاطىء ، أخذ المسيح مكان الخاطىء .. وقد رأى الله المسيح وقد حمل كل خطايانا فحجب وجهه عنه[٨] .

ويرى لوثر أن الآلام التى مر بها المسيح لم تكن آلاما ، بل كانت آلاماً نفسية أيضا . وعندما يتعرض لشرح المزمور ٢٢ وبخاصة العدد الأول* « إلهى إلهى لماذا تركتنى » فهو لايتفق مع المعلمين الذين يقولون بان المسيح لم يشعر بأن الآب قد تركه حتى يطلب منه بان يرجع اليه بل شعر أنه حرم من العون الإلهى فقط ، يرفض لوثر هذا المفهوم ، لانه يعتقد بان الله قد تركه فعلا وحيداً محتملا كل دينونة خطايانا . لهذا السبب صرخ قائلاً : « إلهى إلهى لماذا تركتنى »[٩] (اش ٥٣ : ١ - ١٢ ، ٢ كو ٥ : ٢١ ، غلا ٣ : ٣) .

فإن كان لوثر يقدم لنا المسيح حاملا خطايا العالم كله ، محتملا غضب الله المعلن على فجور الناس واثمهم ، فانه لايرى يسوع وقد تملكه اليأس والخوف والاضطراب ، وبدأ فى التجديف على الآب الآمر الذى كان يمكن أن يحدث مع أى واحد منا ، على العكس يرى يسوع - رغم ثقل الحمل - واثقاً فى محبة أبيه له وللعالم[١٠] .

لقد تحمل يسوع آلام الخطية والموت ودينونة الله للخطية . على ان الخطية والموت لم يستطيعا أن يسحقا ذاك الذى أرادا أن يكون بديلا عن الانسان : أى يسوع بل العكس هو الصحيح فإن الابن قد استطاع ان يكسر شوكة الموت ويغلب الهاوية (١ كو ١٥ : ٥٤) لابل أمسك بزمام الحياة الأبدية[١١] لكى يعطيها لمن يقبله مخلصا وفاديا . ان عملية الفداء لا تعنى ان المسيح قد منح الانسان الخاطىء التائب والمعترف بالايمان الخلاص فقط ، بل قد اعطاه نفسه أيضا . وبناء عليه فالمسيح صار محرراً لنا وملكا علينا[١٢] وبدلك أتت بنا عملية الخلاص الى علاقة جديدة بين المسيح والانسان وحياة جديدة فى المسيح .

وكما ان لوثر تكلم عن اعمال المسيح، فقد تكلم عن شخص المسيح أيضا. فمن هو يسوع المسيح فى مفهوم لوثر ؟

تمسك لوثر فى كتاباته وتعاليمه بالكتب المقدسة، كما أنه تمسك أيضا بآراء الآباء وبأقوالهم. فلقد اتفق مع الكنيسة الأولى فى عقيدة التجسد. يسوع المسيح هو إله حق وانسان حق : رأى فيه انساناً كاملا.

كان يسوع الناصرى انسانا مثل كل انسان، ولا يجب بأى حال من الأحوال فصله عن الانسان الا فيما يختص بالخطية والنعمة. إذ أنه كان بلا خطية وهو الوحيد الذى استطاع أن يقول : « من منكم يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦) كما انه كان مملوًا نعمة وحقاً (يو ١ : ١٤) ففى طفولته كان طفلا كبقية الأطفال، وبما أنه يوجد أطفال أذكياء ومتوسطي الذكاء واغبياء، فإن يسوع كان طفلا ذكيا[١٤] كان ينمو فى القامة والحكمة (لو ٢ : ٤٢)[١٥] وكان يتصرف فى حياته اليومية كما يتصرف أى طفل آخر. كان يطيع أمه وينفذ أوامرها بمحبة وخضوع[١٦] كان انسانا حقيقياً جاع فأكل عطش فشرب فرح وحزن تألم بما يتألم به الناس، لقد كان فعلا انساناً حقيقياً. على انه كان يعمل كل هذه الأشياء التى تتطلبها حاجات الانسان بحرية[١٧]. ثم يعلم لوثر بأن يسوع كان روحا وجسداً، من لحم ودم مثل ابراهيم[١٨]. وعندما يتكلم لوثر عن الروح فانه يريد بذلك أن الهرطقة التى ظهرت فى القرن الرابع والتى علم بها الأسقف أبو لوناريوس فحواها : ان يسوع المسيح لم تكن له روح بشرية عاقلة مثل كل الجنس البشرى بل ان اللوغوس كان قد حل فيه محل الروح* كان المسيح إذا انسانا وانسانا كاملا على أن يسوع المسيح لم يكن مجرد انسان فقط بل كان الله أيضا. لأنه « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تيمو ٣ : ١٦) ان الانسان يسوع لم يكن أولا انساناً وصار فيما بعد إلها بل ان الله العظيم السامي تنازل وصار انسانا لكي يخدم الانسان بل صار عبداً[٢٠]. ثم رجع لوثر الى الصورة المزدوجة التي استعملها القديس بولس الرسول فى وصف تنازل الابن ورفعته فقد تنازل حتى صار عبداً، وبعد هذا التنازل رفعه الله أو بالمعنى الاصح عاد الى المكان الذى كان فيه سابقا ومنه جاء وهو مكان السمو والمجد (في ٢ : ٥ - ١١)

فان الشخص الذى تألم هو الله نفسه، الذى جاء الى أرضنا ولبس بشريتنا وأصبح واحداً منا[٢١] فانه هو الكلمة الذى كان مع الآب منذ البداية.

« هذا كان فى البدء عند الله، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان .. » (يو ١ : ٢-٣). ان الذى لا يعترف بهذه الحقيقة هالك .. لانه لا حياة بغير المسيح[٢٢] فهو الذى غلب الهاوية والموت والخطية فهو إذاً الله بطبيعته.

وبما أن لوثر تكلم عن لاهوت وناسوت المسيح فقد تكلم عن اتحادهم أيضا . وهو يعتقد أن اتحاد الطبيعتين كان اتحاداً قويا ووثيقاً ، لدرجة أن الواحد كان يشترك فى خواص الآخر . فان الكتاب ينسب ماهو خاص بالواحد الى الآخر ، بسبب هذه الوحدة القوية . فان ماكان يحدث للناسوت كان يشعر به اللاهوت وبالعكس . وان كل طبيعة من الطبيعتين تشترك مع الأخرى فى خواصها وهذا مايسمى فى تاريخ الفكر المسيحى بنظرية (La Communication des Idiomes) ولقد قبل لوثر هذه النظرية : نظرية الاشتراك فى الخواص .

وبما أن اللاهوت والناسوت هما طبيعتان متحدتان معا فى الاقنوم الثانى ، وبما أن الطبيعة البشرية ، الانسان تألم ومات . فيمكن القول أيضا بان الجزء الآخر من الاقنوم الذى هو اللاهوت تألم فاننا نقول جرح ابن الملك مع ان الذى جرح فى ابن الملك هو ساقه فقط[٢٣] وهذا يمكن تطبيقه على اللاهوت والناسوت . فمع أن الذى تألم ومات هو الناسوت وحده فاننا نقول صوابا بأن ابن الله قد صلب ومات[٢٤] كما نقول ان الكلمة ولد فى المذود .. ان الذى خلق كل الأشياء رضع ثديين ونام .

من هذه الأمثلة المذكورة يلاحظ القارىء أن تعليم لوثر تتفق كثيراً وتعاليم الاسكندرية ، إذ أن مدرسة الاسكندرية تكلمت عن موت الله فى الجسد وكذلك عن سيطرة اللاهوت بطريقة تكاد تكون مطلقة على الناسوت وأما مدرسة أنطاكيا فقد رفضت هذا المفهوم ولم تقبل أن تنسب الموت أو الآلام لله بل للانسان يسوع* وهنا قد بدأ الصراع العنيف بين انطاكيا وبين الاسكندرية على المشلكة الكرستولوجية .

العشاء الربانى أو الأفخارستيا :

علمت الكنيسة الكاثوليكية منذ زمن بعيد بعقيدة التحول أو التغيير الكلى . فهى « تؤمن بان الخبز والخمر يتحولان الى جسد المسيح الحقيقى ودمه الحقيقى بعد ان ينطق الكاهن بالصلوات الخاصة بالتغيير . فإن مادة الخبز والخمر تتحول بعد الصلاة التى تدعى الصلاة الجوهرية بطريقة معجزية وسرية الى جسد المسيح (دمه ولحمه) وهذه العملية تسمى بالتحول أو التغيير (Iranssubstanti ation) ويمكن ترجمة هذا الاصطلاح الى العربية بالقول تحول أو تغيير وليس (استحالة) الخبز والخمر الى جسد ودم يسوع المسيح وبدراسة هذا الاصطلاح لغويا يمكننا القول بان مادة الخبز والخمر تحولتا جزئيا الى جسد يسوع . فمع أن الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزاً وخمراً ولا يفقدان أى شىء من خواصهما الطبيعية لا فى الطعم ولا اللون الا نهما تحولا بطريقة معجزية الى دم ولحم يسوع المسيح ... فجسد المسيح حل محل هذا الخبز وهذا الخمر ... »[٢٥] .

هذه هى نظرية التحول أو التغيير الكلى والجزئى للخبز وللخمر . ولكن ظهرت فى بداية

القرن الحادى عشر نظرية أخرى تنادى بالحضور المزدوج . (La, Consubstantiation ou L'impanation) ومن الذين نادوا بهذه النظرية برانجر (Berenger) وكان ظهور هذه النظرية عاملا دفع مجمع روما الذى عقد فى ١٠٧٩ فى وضع بعض التحديدات والتفاصيل العقائدية الخاصة بالتغيير أو التحول فى الافخارستيا . ولقد علمت مدرسة اسكوت بنظرية الحضور المزدوج وهذا التعليم لم ترفضه الكنيسة اجمالا . وربما لهذا السبب نرى (بطرس الآئى) (Pierr d'ailly) ينادى بهذه النظرية فى سنة ١٢١٥ .

ونظرية الحضور المزدوج تعلم بان المسيح يحل فى الخمر وفى الخبز ، بطريقة فعلية وحقيقية وحرفية ، على أن هذا الحلول لا يعتبر حلولا بدليا بل يعتبر حلولا ازدواجياً ، لان حلول المسيح فى هاتين المادتين الخبز والخمر لا يلاشى بأى حال من الأحوال الخبز والخمر . فالخبز مازال خبزاً والخمر مازال خمراً بعد التقديس كما كانا قبله . على ان الكنيسة الكاثوليكية أعلنت فى سنة ١٢١٥ تمسكها بعقيدة التحول الكلى . وكذلك شددت عليه فى مجمع ترانت فى القرن السادس عشر .

وفى ١٣٨١ أى قبل أن يولد لوثر بحوالى مائة سنة تقريباً قام المصلح يوحنا ويكليف (John Wicliffe) فى جامعة اكسفورد بتقديم ١٢ بنداً للمناقشة وهى خاصة بموضوع الافخارستيا . ويحتوى أول بند من هذه القائمة على الجملة الآتية : « ان القربان الذى نراه على المذبح ليس هو المسيح ولا أى جزء منه بل هو عبارة عن علامة منه ، لها تأثيرها »[٢٦] ولقد حكم على هذا المصلح وعلى تعاليمه بالهرطقة .

ولنرجع الآن الى لوثر ومفهومه لهذه العقيدة : يبدو أن المصلح قبل فكرة الحلول المزدوج تدريجيا[٢٧] وبعد ذلك علم بها ودافع عنها . ويمكننا أن نلاحظ هذا بسهولة فى موقفه من المصلح السويسرى زوينكلى وكارلستادت والواعظ الهولندى هونيوس (Honius) فإن هذا الاخير قد جاء الى مقاطعة الالزاس وسويسرا لكى يعلم بنظريته الخاصة بالتفسير الرمزى لكلمات المسيح فى العشاء الربانى . وفى ذلك الوقت لم يكن كارلستادت على وفاق مع لوثر فى بعض تعاليمه الخاصة بالعشاء الربانى كما ان زوينكلى لم يقبل أيضا تعاليم لوثر فى نفس الموضوع وعندما سمع الشعب وعظ كارلستادت وهونيوس بدأ التساؤل . ثم كتب اهل استراسبورج خطابا الى المصلح لكى يوضح لهم هذه المشكلة ، فى رده عليهم فى سنة ١٥٢٤ شرح لهم عقيدته الخاصة بالحلول المزدوج ، على أن موضوع العشاء الربانى لم يشغل باله بطريقة جديدة وعملية الا فى سنة ١٥٢٩ ، عندما حاول حاكم مقاطعة هس فيليب ، توحيد المصلحين لكى يكونوا جبهة واحدة للدفاع المشترك . وقد اراد أيضا توحيدهم عقيدياً ولهذا السبب فقد دعى لعقد مجمع لحل بعض المشاكل السياسية والعقائدية تعمل على تفتيت صفوف الانجيليين انفسهم .

فى هذا المؤتمر اظهر لوثر روح التمسك لا بل روح التعصب الشديد ضد الذين كانوا لا يتفقون معه فى نفس الفكر ، أى بالحضور الحرفى لشخص المسيح فى الخبز وفى الخمر . لقد علم كل من كارلستادت وزوينكلى وهونيوس بأن فريضة العشاء الربانى هى عبارة عن ذكر لموت وقيامة الرب . هو حضور المسيح فى الجماعة المجتمعة حول الخبز والخمر .

فما هو مفهوم لوثر بالضبط فى الافخارستيا ؟ تعرض لوثر لشرح هذه العقيدة فى أماكن كثيرة من كتاباته وعظاته . ولقد سبق أن اشرنا الى كتابه الذى يدعى « أسر الكنيسة البابلى » والذى تكلم فيه عن فريضة العشاء الربانى .

كان لوثر متمسكا تمسكا شديدا بنظرية الحضور المزدوج ويعتقد الكثيرون من العامة بان لوثر كان هو أول من نادى بنظرية الحضور المزدوج . ولكن سبقت الاشارة الى ان هذه النظرية لم تكن من اختراع المصلح ولكنها معروفة فى الكنيسة الكاثوليكية لا بل علم بها بعض القادة الكاثوليك . وانطلاقا من هذه النظرية أراد المصلح الالمانى أن يتخلص من عقيدة التحول أو التغير (Iransuubstantiations) ونادى بعقيدة الحلول المزدوج (Conssuhstantiation) ولكى يثبت عقيدته فى الحضور الحقيقى رجع الى النصوص الكتابية الآتية : (متى ٢٦ : ٢٦ – ٢٩ ، مر ١٤ : ٢٢ – ٢٥ ، لو ٢٢ : ١٥ – ٢٠ ، ١ كو ١١ : ٢٣) .

وبما أنه حاول تفسير هذه النصوص بطريقة حرفية فقد رأى أنها سهلة وبسيطة لدرجة ان طفلا صغيرا يمكنه أن يفهمها بسهولة وبلا عناء . (Greiner 171-172) فقد علم بان المسيح حاضر فعلا وحرفا فى الخبز وفى الخمر . ولقد حاول المصلح ان يعرف حضور الله فهو يؤمن أن الله حاضر فى كل مكان (Omnipresence) فهو الذى يملأ السماء والأرض الا أن هذا الحضور سطحى وبلا فاعلية لأن الذين لا يعرفون الله لا يدركون حضوره . الله حاضر فى المسيح وفى الكنيسة وفى الخدمة وعند اعلان الانجيل يكون المسيح حاضرا لانه يوجد حيث يوجد الله الآب أو أنه يشترك معه فى كل الصفات الإلهية . ولكنه حاضر بصفة خاصة فى الخبز وفى الخمر[٢٨] وقد رفض لوثر تفسير هذا الحضور بطريقة رمزية أو مجازية أو استعارية رفضا باتا ، وقال انه يجب ان نقبل هذه الحقيقة بالايمان وأن نقبلها حرفية ، كما نطق بها يسوع المسيح الذى قال « خذوا كلوا هذا هو جسدى هذا هو دمى » (مر ١٤ : ٢٢ – ٢٦) ويشدد لوثر على فكرة تناول الخبز والخمر : لا الخبز فقط كما هو متبع فى الكنائس الكاثوليكية ، وبما أنه لا يوجد فى الكتاب المقدس ماينص على أن الخبز ليس جسد المسيح يجب علينا إذن أن نقبل كلام السيد بكل بساطة كما نطق هو ، فلا يجب أن نغير الكلام بل نقبل حقيقة ان الخبز هو جسد المسيح وقال لوثر : « .. اننى واثق تماما بان الله لا يكذب ، وبما أن كلمته تعرفنا ان جسد ودم يسوع موجودان فى هذه الفريضة فيجب تصديق هذا

الأمر » ومن هذا النص ومن نصوص أخرى كثيرة يبدو لنا جليا اعتقاد لوثر بوجود المسيح الفعلى والحرفى فى الخبز وفى الخمر .

وهنا قد نتساءل ماالفرق إذنٍ بين مفهوم الكنيسة الكاثوليكية ومفهوم لوثر ؟

سبق أن شرحنا ان الكنيسة الكاثوليكية تعتبر الخبز والخمر غير موجودين بعد عملية التقديس انما الموجود فعليا هو جسد ودم يسوع . أما لوثر فقد علم بان الخبز والخمر موجودان ، والجسد والدم يحلان فيهما وبحسب مفهومه عندما نتناول العشاء الربانى نتناول جسد الرب ودمه فى هذا الخبز الذى مازال خبزاً وهذا الخمر الذى مازال خمراً . فلم يطرأ عليهما أى تغيير . وهذا هو الحضور المزدوج .

ولكى يشرح هذه العقيدة : عقيدة الحضور المزدوج ، رجع لوثر الى مشكلة التجسد لكى يتخذ منها مثالا . فعندما تجسد ابن الله فى يسوع وعندما حل اللوغوس (اللاهوت) فى الناسوت فإن ابن الله لم يتجرد من لاهوته لكى يصير انسانا . وهذا لا يعنى بان الناسوت تغير الى اللاهوت . فلقد احتفظت كل طبيعة من الطبيعتين بخواصها دون أدنى تغيير أو تبديل . لدرجة انه كان من الممكن القول بان هذا هو الله أو هذا الإله هو انسان[٢٩] . هذا هو الافخارستيا بحسب مفهوم لوثر .

وهناك فرق بين مفهوم الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك العصر ومفهوم لوثر . فالكنيسة اعتقدت بان الافخارستيا هو سر (فريضة) من الأسرار التى يمكن للانسان عن طريق ممارسته الحصول على الخلاص .

اما لوثر فاعتقد بان هذه الفريضة ، وممارستها بدون ايمان لا تؤدى الى الخلاص باى حال من ا لاحوال . هنا يحاول لوثر ان يجرد هذه الفريضة من الهالة العظيمة التى كللت بها كنيسة العصور الوسطى فريضة الافخارستيا والتى مازالت بقاياها حتى الآن . ان فاعلية هذه الفريضة لا تكمن فى ممارستها بل تتوقف على ايمان الشخص نفسه الذى يشترك فى هذا العشاء الربانى . فمثلا فى الكنيسة الأولى كان الرسل يعمدون البالغين . وهذا يعنى أن المعمدين لم ينالوا الخلاص عن طريق المعمودية ، بل أن الرسل كانوا يعمدون هؤلاء الذين آمنوا أولا بشخص الرب يسوع المسيح ، وكانوا يعمدونهم على أساس اعترافهم بقبول الرب يسوع كمخلص . فالعماد ، بحسب المفهوم الرسولى ، لم يكن بمنح الخلاص بل كان يجرى ليكون علامة خارجية وظاهرة وملموسة للذين حصلوا على الخلاص بواسطة ايمانهم واعترافهم بيسوع المسيح . وهذا مايمكن تطبيقه أيضا على العشاء الربانى . فكما كانت فاعلية العماد فى العصر الرسولى تتوقف على ايمان المتعمد كذلك أيضا فان فاعلية العشاء الربانى تتوقف على ايمان المشترك فيه وليس على الفريضة نفسها أو على من يقوم بتقديمها . وهنا يلمس لوثر نقطة

فى غاية ا لأهمية وهى أن حضور المسيح فى الخبز وفى الخمر لايتوقف على ممارسة هذه الفريضة ولا على قراءة بعض النصوص الكتابية فقط بل على ايمان الانسان الذى يطلب هذا الحضور بثقة وايمان – أولا – فى قلبه . فالايمان لا الفريضة هو العامل الاساسى[٣٠] فبالايمان ، الذى هو عطية الله ، يصبح الخبز والخمر قناة يمر بها المسيح الى قلوب الناس ، ويقتبس لوثر قول القديس اغسطينوس : « لماذا تعد بطنك واسنانك ؟ آمن فقط فانت قد اشتركت فى الفريضة »[٣١] .

وهذا يقودنا الى نقطة أخرى فى مفهوم لوثر والكنيسة الكاثوليكية . فإن هذه الاخيرة قد اعطت أهمية عظيمة للعناصر ، لأنها طبعا تعتقد بانها تتحول الى جسد ودم المسيح ، لدرجة عبادتها ، حتى بعد القداس . اما لوثر فهو يعتقد بأن اهمية الفريضة قائمة ساعة ممارستها لاعلان الكلمة . لان المسيح حاضر فى كلمته التى نطق بها « لانه إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك اكون فى وسطهم » (مت ١٨ : ٢٠) .

وهناك ملاحظة أخرى ، وهى أن فريضة العشاء الربانى ليست ذبيحة . لان المسيح قدم نفسه مرة واحدة كذبيحة كفارية عن العالم (عب ٩ : ١١ – ١٤) واما الذبيحة التى يجب أن يقدمها المؤمن فهى ذبيحة الحمد والشكر . هذه هى ذبيحة العهد الجديد . التى كاهنها كل مؤمن (كاهنا أم علمانيا) .

ولم يعترف لوثر بشرح حضور المسيح فى الخبز والخمر بطريقة علمية أو منطقية ، ويقر أنه يجب ان نقبلها بالايمان والايمان وحده هو الذى يساعد المؤمن على ادراك حضور المسيح فى الخبز وفى الخمر . ففى العشاء الربانى نجد الشركة المقدسة والرابطة القوية التى تربط اعضاء الجسد الواحد بالرأس الذى هو الرب يسوع المسيح ، رئيس الكهنة العظيم .

ان ماعرضناه هنا لا يعتبر الا عينات موجزة جداً من تعاليم المصلح الالمانى ، لعلها تكون حافزاً للكثيرين لدراسة حياة وتعاليم لوثر . وكم نتمنى أن يتناول عدد من الكتاب والمعلمين (اللاهوتيين) فى بلادنا العربية من كل الطوائف ، كاثوليكية وأرثوذكسية وانجيلية هذا الموضوع والكتابة فيه بطريقة علمية واعية مدروسة ، هادئة وخالية من النقد ، الذى هدفه النقد والتجريح فقط ، بل تقديم النقد الذى للبناء فى المحبة .

وهذا ماقام به كثير من العلماء والمعلمين (اللاهوتيين) الكاثوليك فى أواخر السبعينيات من هذا القرن إذ قدموا عن حياة لوثر وتعاليمه أبحاثا دلت على عمق فى التفكير وجدية ونزاهة فى الاقتباسات واستعمال المراجع ومحايدة صادقة وامينة . وكانت انتقاداتهم تخلو من اللطف والرقة والأدب وقد خلت من الملق الرخيص الزائف . وكان ومازال لهذه الجماعات من العلماء الكاثوليك والمتخصصين فى الدراسات اللوثرية التأثير العميق على الأوساط

الكاثوليكية والبروتستانتية مما أدى الى التطور الملحوظ فى العلاقات المسكونية فقط على مستوى المؤتمرات والحوار العالمى والدولى والمنطقى ، بل أيضا على مستوى علاقات الكنائس المحلية التى تعيش فى مدينة أو فى قرية واحدة لدرجة أن الكاهن الكاثوليكى والقسيس الانجيلى يقومان حاليا بعمل اجراءات لممارسة خدمة الزواج معا للمتزوجين الكاثوليك والانجيليين وكذلك أيضا فيما يخص العماد لطفل من والدين مختلفى الطائفة وكذلك فى ممارسة العشاء الربانى (الافخارستيا) . ونأمل أن هذه الروح ، روح مجد المسيح يسوع وسيادته فوق الطائفية تسيطر على قلوبنا وعلى أفكارنا وحياتنا وعندئذ لا نرى الا يسوع وحده ، لأنه هو وحده الذى يستطيع ان يعطينا النور الذى به نستطيع أن نراه أيضا فى المؤمنين الحقيقيين فى كل كنيسة وطائفة .

هوامش الفصل الثالث والعشرون

1. WA 12, 285, 9.
2. WA 12, 285-6, 9.
3. WA 10, 1, 1, 20, 1
4. WA 10, 111, 127, 5.
5. WA 40, 172, 27.
6. WA 40, 437, 25.
7. WA 40, 438, 1.
8. WA5, 603, 14.

* سبق أن عرفنا بأن لوثر قد وصل بنعمة الله اكتشافه العظيم لعملية التبرير بالايمان عند دراساته للمزامير ورومية . بدأ فى شرح المزامير أولا فى سنة ١٥١٣ - ١٥١٤ .

9. WA5, 621, 40.
10. WA5, 604, 23.
11. AW 10, 1, 2, 221, 26.
12. WA 10, 1, 2, 231.
13. WA 10, 1, 1, 67, 17.
14. WA 44, 5, 16.
15. WA, 10, 10, 1, 599, 1, 1, 446.
16. WA 37, 257. 14-19.
17. WA 17, 11, 249, 6.
18. WA 7, 593. 3.

أنظر كتابنا المجلد الأول الدكتور حنا جرجس الخضرى . « يسوع المسيح عبر الاجيال » ص ٦٦٧ - ٦٧٦ ثم المجلد الثانى الذى سيظهر قريباً .

19. WA 7, 599, 3.
20, WA 11, 148, 14.
21. WA 10, 1, 1, 143, 14.
22. WA 10, 198, 17; WA. 40, 111, 704.
23. WA 26, 320, 21-29.
24. WA 40, 111, 721, 27; 704.

* انظر كتابنا المجلد الثانى الذى سوف يظهر قريبا : « يسوع عبر الاجيال » .

* سبق أن اشرنا بخطأ استعمال كلمة استحالة . ويفضل ان نستعمل كلمة تحويل أو تغيير (انظر صفحة ١٦٩ من هذا الكتاب) .

(٢٥) د . حنا جرجس الخضرى ، تاريخ الفكر المسيحى ، المجلد الأول ، ص ٣٢٦ .

26. Strohl, Sa vie.. 206.
27. D.J. Deane P. 85, 887. Congar P. 86.
28. WA. 30, 223, 388.
29. WA. G. S11; 7. Congar. 89; Vajra, 93.

الفصل الرابع والعشرون

موقف الكنيسة الكاثوليكية والعلماء الكاثوليك من لوثر الآن ؟

لقد أصدر البابا ليون العاشر فى يوم ١٥ يونيو (حزيران) عام ١٥٢٠ صكا يهدد فيه لوثر بالحرمان . وفى يوم ٣ يناير (كانون الثانى) عام ١٥٢١ أصدر فعلا صك الحرمان ضد لوثر وأصبح الراهب لوثر ، من هذا التاريخ محروماً . فما موقف الكنيسة الكاثوليكية حاليا من المصلح لوثر ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال يجدر بنا أن نرجع الى التاريخ الذى سجل لنا ردود الفعل للحركة اللوثرية داخل الكنيسة . ويسجل لنا التاريخ موقفين على الأقل للكنيسة الكاثوليكية إزاء لوثر والاصلاح .

١ – موقف النقد اللاذع والرفض الكامل : فالابتعاد .
٢ – موقف الدارس المحايد والباحث الأمين : فالتقارب .

لقد ظهرت بعض الكتب التى كانت هاجمت لوثر وتعاليمه فى حياته وبعد موته . وأهمها كتاب كتبه كاهن نكاثوليكى المانى يدعى يوحنا كوكلاوس (Jean Cochleaus) وظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٩ أى بعد ثلاث سنوات من موت لوثر . وكان هذا الكاهن من أتباع مذهب « الانسانية » (Humanism) ولقد تعاطف بداية الأمر مع لوثر الا انه سريعا ما انقلب ضده وانضم الى واحد من ألد اعدائه وهو يوحنا آك . وقد لاحظ كوكلاوس أن عددا كبيرا من الكاثوليك كان يؤمن بان لوثر كان رجلا تقيا وصالحا . ولهذا السبب كتب كتابه هذا[1] لكى يعطى صورة أخرى عن المصلح ففى وضعه له استخدم الاسلوب الذى كان يستخدمه أهل عصره أى اسلوب الهجاء اللاذع القاسى غير اللائق أدبياً . فقد قال فيه : « ... ابن شيطان ويسكن فيه ابليس ، وقد امتلأ بالكذب والكبرياء ، كان حقده وغيرته على تنزل هما السبب فى احتجاجاته وثورته ... كان سكيراً وشهوانيا ، كان مجرداً أيضا من الضمير وبناء عليه فقد استخدم كل الوسائل واستحسنها ... فهو رجل كذاب ... مرائى ... جبان ... مشاغب ... وليس فيه نقطة واحدة من الدم الألمانى »[2] .

هذه هى الصورة التى رسمها الكاهن كوكلاوس للراهب الاغسطينى لكى يصحح بها ،

كما اعتقد الافكار غير الصحيحة التى انتشرت فى عصره عن لوثر على أنه رجل تقى وصالح . ولقد استطاع كوكلاوس لا أن يصحح الصورة فى اذهان معاصريه ، بل أن يعطى صورة سوداء مشوهة غير حقيقية قد لصقت فى أذهانهم واذهان الاجيال التالية ضد المصلح الالمانى . كما سنرى ذلك فيما بعد ، والاثر الذى تركه هذا الكتاب على مر العصور والأجيال على الكنيسة الكاثوليكية .

وبما أن الوقت والمكان لا يسمحان لنا بتتبع تطور موقف الكنيسة الكاثوليكية من لوثر منذ عصر الاصلاح الى الآن . فاننا نكتفى بتحليل موقف الكنيسة الكاثوليكية من لوثر فى القرن العشرين .

سبق الاشارة بان كتاب كوكلاوس ترك فى الكنيسة الكاثوليكية تأثيراً عميقا وعداوة مستديمة ضد المصلح الالمانى ، واستمرته هذه العداوة اجيالا طويلة . وهنا يظهر من جديد تلميذ متحمس لكوكلاوس وعدو لدود للوثر وهو هنريش دانيفل (Heinrich Denifle) وهو عالم دومينيكانى كتب مجلداً ضخما (حوالى ٨٦٠ صفحة) ظهر فى مدينة مانيس (Maxence) فى المانيا سنة ١٩٠٤ ثم ترجم الى اللغة الفرنسية سنة (١٩١٠ - ١٩١٣) تحت عنوان (Luther et Le Lutheranisme) لوثر واللوثرية وفى معرض كلامه عن المصلح اتبع نفس الاسلوب الذى نهجه كوكلاوس ويمكننا أن نلخص فى نقطتين الأولى هى أن لوثر شخص مغامر مخاطر والثانية أنه لم يكتشف أى شيء جديد لا فى التعليم ولا فى الاختبار . ثم وصفه بانه « بهلوان » جاهل متكبر .. مضطرب .. نفيسا .. مرائى .. فاسد الأخلاق .. ولم يستطع ان يقوم بواجباته كراهب فترك الدير والقى بنفسه فى هذه المغامرة البائسة . وبهذا جدد دانيفل ثورة كوكلاوس ضد لوثر . ولقد خاطب لوثر قائلا : « لا يوجد فيك أى شيء إلهى .. » ثم حث الشعب الكاثوليكى بالقول : « تخلصوا من لوثر وارجعوا الى الكنيسة » . ولقد ترك هذا الكتاب تأثيراً سيئاً جدا فى الاوساط البروتستانتية .

وجاء بعد دانيفل الدومينيكانى مناضل آخر مضاد للوثر هو هارتمان جريزار (H. Grisar) وهو يسوعى وكان استاذاً فى جامعة ينسبروك بالمانيا من سنة ١٨٧١ حتى ١٨٩٥ والف ثلاثة مجلدات تزيد على ٢٦٠٠ صفحة بعنوان « لوثر » ولم يستعمل الاسلوب الجاف القاسى فى هجومه على لوثر ، بل حاول أن يستخدم اسلوبا معسولا لكن هذا الاسلوب الرقيق كان يخفى سما قاتلا فى داخله فهو يؤيد دانيفل فى نظريته بان لوثر لجأ الى عقيدة التبرير بالايمان لانه لم يستطع أن ينظم حياته بالطريقة التى تتيح له الحصول على هذا البر ، لأنه يعيش حياة الفساد .. ولذلك فقد اختلق عقيدة التبرير بالايمان بعد ان فشل فى تنفيذ نذوره الرهبانية تلاميذ دانيفل وجريزار[٣] .

وجاء بعد دانيفل وجريزار : كريسپانى (Cristiani) الذى جمع أبحاثه عن لوثر فى كتابه دعاه « **لوثر واللوثرية** » كما فعل دانيفل وبعد ثلاث سنوات من ظهور هذا الكتاب اعد رسالة – للحصول على درجة الدكتوراه – بعنوان « **من اللوثرية الى البروتستانتية** » وفى كلاهما يقدم راهب فيتمبرج كشخص ضل السبيل وانقطع عن الصلاة فصار شقيا تعسا فى حياته ، كما أنه كان السبب فى بؤس وشقاء الشعب الالمانى[٤] إذ انه دفع هذا الشعب فى معارك أهلية مريعة مثل حرب الفلاحين . ووصفه بنفس الصفات التى وصفه بها سابقوه وهى التكبر وحب المال والخراب النفسى والكذب والمراءة وقام أيضا تلميذ آخر من تلاميذ دانيفل وهو باكيير (Paquier) ضد لوثر وتعاليمه وهو يعتبر من اكبر المتخصصين فى دراسة عصر الاصلاح فى الكنيسة الكاثوليكية . وهو الذى قام بترجمة المجلد الأول من كتب دانيفل من اللغة الالمانية الى الفرنسية (١٩١٠ – ١٩١٣) وسلك نفس المسلك الذى اتبعه سابقوه فى نقد لوثر وتعاليمه ولم ينتشر تأثير دانيفل فى المانيا وفى فرنسا فحسب بل امتد أيضا الى البلاد التى تتكلم الانجليزية . ولهذا فقد ظهر تأثيره فى بعض الكتب والمقالات الانجليزية[٥] ويصف ف . أ . هار (F.O. Hare) فى كتابه المعنون « **حقائق لوثر** »[٦] يصف لوثر بانه كان يعانى من مرض نفسى منذ صباه ، وقد التحق بالدير دون دعوة حقيقية وانه كان فاسد الأخلاق والايمان ، ويصف هار الفترة التى قضاها فى قلعة الفارتبورج بأنها لم تكن فترة مثمرة بل فترة فراغ وبؤس ومحاربات جنسية وقال ان لوثر كان على اتصال مستمر بالشيطان ، كما أنه اعتبر لوثر وكاترين بورا كآدم وحواء فهو زان ، وبطل كاذب ، نبى كاذب ومصلح كاذب ، يهدم ولايبنى كان مشوها وليس مصلحا (He was a de Former, not a Reformer) فهو يهوذا وهو عدو المسيح وخادم الشيطان ..[٧] وهؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم وآخرين أيضا ينعتون الاصلاح والمصلح بأوصاف مشينة مؤلمة ، ذلك لانهم لم يروا فى لوثر المصلح بل المفسد ، بل ان البعض ذهب ابعد من ذلك ، فأعتقد بأن واجبه ليس محاربة لوثر واتباعه فقط بل ومحاربة حتى الكاثوليك الذين يسعون الى الوحدة . وهذا مانادى به الاسقف « لفقر » الذى قام بمعارضة شديدة اللهجة للبابا بولس السادس[٨] .

من هذا العرض السريع يتضح لنا أن بعض الكتاب الكاثوليك وقفوا وقفة المعارضين والرافضين لكن لحسن الحظ يمكننا القول بان هذه الجماعة لم تكن تمثل الكنيسة الكاثوليكية كلها . وقد تطور الموقف فى الخمسين سنة ا لماضية بشكل غريب وعجيب ، وهنا نأتى الى الموقف الثانى وهو : **موقف الدارس المحايد والباحث الأمين** .

عندما ننظر الى قائمة الذين حاولوا هدم الاصلاح وتعاليمه نتألم ونحزن لموقفهم ولكننا نشكر الله كثيراً فلم تكن هذه الجماعة المعارضة الرافضة كل الكنيسة الكاثوليكية . ففى هذه الكنيسة ومنها قامت جماعة اخرى لا تقبل تعاليم هؤلاء الذين ذكرناهم سابقاً . ويرجع

الفضل فى ذلك الى عمل روح الله أولا : ثم ثانيا الى استاذ العقائد الألمانى كيفل (F.X. Kiefl) وكان استاذ فى جامعة فورتزبورج (Wurtzbourg) فلقد بادر بدعوة الكاثوليك الى تفهم أفضل لشخصية وتعاليم المصلح الالمانى « لوثر » فعندما كانت الكنائس اللوثرية تحتفل بمرور أربعمائة عام على تاريخ تعليق لوثر لاحتجاجاته الخمسة والتسعين كتب استاذ العقائد كيفل مقاله عن مارتن لوثر[9] اعلن فيها بصراحة ووضوح انه لايتفق قط مع دانيفل ولا مع جريزار فى مفهومهما لشخصية وتعاليم لوثر بل يعتقد أن راهب فيتمبرج كان اسيرا فعلا للكتب المقدسة وللقوة الإلهية . كما أنه كان يؤمن بان اكتشافه لعقيدة التبرير بالايمان كان اكتشافا عظيما بحق على عكس ماقاله دانيفل وأتباعه ويقول أنه من الخطأ وصف هذا الراهب بصفات لم تكن فيه ، فقد كان لوثر مسيحيا حقيقيا فهم المسيحية بطريقة عظيمة كما انه كان رجلا متعلما ومتعمقا يتمتع بعبقرية فذة وقد اختاره الله لكى يعلم كنيسته .

وبعد مرور اثنى عشر عاما على هذا المقال جاء الفردفون مارتن (Alfred Von Martin) وطلب من حوالى عشرين استاذا لاهوتيا معاصرا من الكاثوليك والبروتستانت ، طلب منهم أن يكتبوا عن لوثر . ولايمكن بحث كل ماكتبه هؤلاء العلماء ، ولكن نكتفى بان نلقى نظرة سريعة على ماكتبه اثنان من الكاثوليك فى هذا المجال :

١ — سباستيان مركل (Sebastian Merkle)

كان هو ايضا استاذ فى جامعة فورتزبورج من سنة ١٨٩٨ — حتى سنة ١٩٣٣ وقد عرف كمؤرخ وعالم وكان يعتقد أن المؤرخ النزيه هو الشخص الذى يستطيع ان ينظر الى الامور بطريقة موضوعية وعلى هذا فقد طالب المؤرخين بان يعالجوا موضوع الاصلاح بهذه الطريقة وبهذه الموضوعية . فلا يجب التقليل من مكانة لوثر وتحقيره على أسس غير سليمة . ويضيف قائلاً انه من غير الممكن أن نثبت أنه كان واحداً من الاباجيين أو الثوريين . فإن الحركة التى قام بها لم يكن لها أى هدف آخر غير الهدف الدينى[10] .

٢ — اما الدراسة الثانية فقدمها الكاتب **انطون فيشر** الذى رأى أن لوثر رجل مكافح ورأى فيه ايضا انه رجل صلاة وماذا يستطيع لوثر ان يعلمنا كرجل صلاة ؟ انه يعلمنا جميعا ان الله يظهر فى كلمته المكتوبة ، وقد كان يلتهم هذه الكلمة التهاما . ومنها تعلم ويعلمنا ايضا الصلاة . وبناء على هذا فان المصلح يدعونا لدراسة الكتاب بعهديه والتغذى به هذه هى الحقيقة الأولى التى يعلمنا اياها المصلح . اما الحقيقة الثانية فهى الصلاة الربانية التى تعبر عن الواحد ، التى يجب أن نصليها بنفس الروح التى صلى بها القديس اغسطينوس والقديس فرنسيس الاسيزى ومارتن لوثر[11] .

وهناك كاتب آخر ليس من هذه المجموعة التى ذكرنا البعض منها هو هيبرت جيدن

(Hubert Jedin) وكان استاذا فى جامعة بون من ١٩٣٣ - ١٩٤٩ قام هذا الأستاذ بتقديم عرض تاريخى تحليلى لمعظم المؤلفات الكاثوليكية التى ظهرت من ايام جانس (Janssen) فى سنة ١٨٧٦ الى الثلث الأول من القرن العشرين . ثم انتقد كتابات دانيفل وجريزار نقداً لاذعا ونفى وجود أى مؤرخ المانى يشاركهما الرأى فيما ادعياه من فساد وانحطاط اخلاق لوثر . كما أنه أشار بأسف شديد الى التأثير السيء الذى تركه هذان الكاتبان خاصة كتاب دانيفل « لوثر واللوثرية » على العلاقات المسكونية . واخيراً أشار الى أن الكاثوليكى الذى يريد أن يفهم لوثر على حقيقته عليه ان يترك الصورة التى قدمتها كنيسته عنه ويحاول درس شخصيته وتعاليمه بطريقة موضوعية[١٢] محايدة وعلمية .

ان ماذكرناه سابقا من ظهور كيفل (Kiefl) الى جيدن (Jedin) لايعد الا محاولات تفسيرية فبعد كل هذه المجهودات والدراسات ظهر كاتب اخر يعتبر حجة فى التاريخ خاصة فى فترة الاصلاح وهو الاستاذ جوزيف لورتز (J. Lortz) وقد ألف مجلدين (حوالى ٧٥٠ صفحة) ظهرا سنة ١٩٤٠ تحت عنوان « **الاصلاح فى المانيا** »[١٣] . ومع ان البلاد كانت تمر فى هذا الوقت بفترة عصيبة مؤلمة وهى فترة الحرب ، الا ان لورتز استطاع ان يفرض نفسه على الناس فكان تأثيره فى بعض الأوساط أقوى من تأثير الحرب فقد قرىء ونوقش فى الأوساط الكاثوليكية والانجيلية . لقد حث الشعب على الحوار المسكونى . وفى سنة ١٩٤٨ حاول ان يلخص ماقد كتبه سابقا فلخصه فى كتابه اسمه «الاصلاح مشكلة اليوم » (The Reformation: A Problem for To-day) ثم نشر له ٤ محاضرات ، وقد بدأ لورتز بالحديث عن الكنيسة المعاصرة ، وكم هى فى حاجة أيضا الى اصلاح وقال انه إذا كان لوثر قد هجر كنيسة عصره فذلك لانه لم يجد فيها ماكان يحتاج اليه من امور اعتبرها جوهرية ومهمة وخاصة الايمان الحقيقى . كان لوثر رجلا تقياً وظهرت هذه التقوى فى حياته وتعاليمه . ومما لاشك فيه ان الكنيسة حكمت على لوثر بالهرطقة ... رغم أنه كان رجلا تقيا ، مسيحيا حقيقيا ، لقد عاش حياة الايمان العميق فى شخص يسوع المسيح ، معترفا ان يسوع المسيح هو ابن الله المولود من العذراء مريم وصلب ومات وقام لاجل خلاصنا ، وانه كان أيضا فى كل حياته رجل الصلاة والواعظ المتحمس لكلمة الله ولقد حمل لورتز الكنيسة الكاثوليكية جزءاً كبيراً من مسئولية الانشقاق الذى حدث فى القرن السادس عشر[١٤] .

لقد كان لمؤلفات لورتز تأثيراً عميقاً جداً على الأوساط الكاثوليكية والبروتستانتية . لقد عبر بكتاباته هذه عن مفهوم الكثيرين عن لوثر . ويجدر بنا أيضا أن نقول أن لورتز قد انتقد لوثر بالرغم من المدح العظيم الذى مدحه به ، فهو يأخذ على المصلح أنه لم يكن - فى بعض الاحيان - سامعاً ومصغيا لكلمة الله ، كما انه لم يفهم - فى بعض الاحيان ايضا - المكتوب بطريقة صحيحة ولعلنا نشترك جزئيا مع لورتز فى هذا النقد لأن لوثر فعلا قد فهم بعض

الفصول الكتابية بطريقة متأثرة بمفهومه الشخصى لبعض المشاكل العقائدية .

وبعد اربع سنوات من ظهور كتابات لورتز الأولى ، نشر الأستاذ ادولف هرت (Adolf Herte) بحثا فى ثلاثة مجلدات (حوالى ١٠٠٠ صفحة)(١٥) كان مركزاً على الصورة الرديئة التى خلقها وكونها تفسير كوكلاوس للوثر فى الكنيسة الكاثوليكية . واننى شخصيا اعتبر ان هذا البحث من أهم الأبحاث وأعظمها لأنه قدم بطريقة علمية دقيقة وجادة فى اكثر من ٥٠٠ كتاب باللغة الالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والهولندية والبولدنية والانجليزية وقد خرج من بحثه بهذه النتيجة الرائعة وهى ان كل هؤلاء الكتاب الكاثوليك ، الا قلة ضيئلة جداً ، من الذين كتبوا عن لوثر وعن تعاليمه من القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد رجعوا فى كتاباتهم الى الكتاب الذى نشره كوكلاوس فى سنة ١٩٤٩ ولقد سبق أن أشرنا فى بداية الكلام الى ان الكاهن كوكلاوس قد استخدم أولا اسلوب العصر فى وصف المصلح ، بانه شيطان وابن شيطان .. وثانيا لم يكن كوكلاوس محايدا بل كان العضد الايمن لآك وهذا الاخير العدو اللدود والمطارد للوثر .

ان اهمية هذا البحث العظيم الذى قام به العالم « هرت » كامنه فى حقيقة ان المؤلف الكاثوليكى قد استطاع ان ينقب وان يفتش عن جذور هذه العداوة وعن اصل الصورة السيئة السوداء التى طبعت فى اذهان الكثيرين من الاخوة الاحباء الكاثوليك عن المصلح ، فوجد ان السبب كان اعتماد هؤلاء الكتاب فى كل العصور على كتاب كوكلاوس (Cocläus) وهكذا شوهت صورة لوثر وتعاليمه فى الاوساط الكاثوليكية بسبب كوكلاوس ، يالها من مأساة !!! .

وقد انتقد العالم هرت كتابات دانيفل وكتابات جريزار وكذلك كتابات كريستانى وبوكير الذين تأثرا ايضا بكتاب كوكلاوس وطلب من الكنيسة المصلحة اللوثرية والكنائس الانجيلية الاخرى ان تقوم من جانبها بعمل بحث دقيق لاكتشاف بعض الاخطاء التى ارتكبتها فى التطرف فى بعض الاحيان فى حكمها على ظلم الكنيسة الرومانية . ويجب ان يدرس الجانبان الكاثوليك والبروتستانت لوثر وتعاليمه بطريقة علمية تستند على الاحداث التاريخية الموثوق فى صحتها ومحايدتها .

لقد كان ومازال هذا البحث عميقا فى مادته ، قويا فى تأثيره . إذ انه ساعد الكثيرين من الكاثوليك على فهم المشكلة بطريقة افضل كما انه ساعد بعض الانجيليين ايضا على النقد الذاتى المخلص الامين وعدم التطرف فى نقد الكنيسة الكاثوليكية بطريقة غير صحيحة وغير ايجابية .

وبما اننا فى مجال عرض تطور الفكر فى المفهوم الكاثوليكى لشخصية وتعاليم المصلح الالمانى فلا يمكننا ان ننسى الاب لويس بوييه (Louis Boyer) لانه يعتبر من افضل

المتخصصين الذين فهموا بطريقة صحيحة شخصية لوثر وتعاليمه فانه لم ير فى الكنيسة البروتستانتية بدعة . كما وصفها حتى بعض المعتدلين بل بالعكس فقد اعتقد انها حركة روحية تحمل انجيلا صحيحا[١٦] ثم تسآل عن ماذا اكتشف لوثر ؟ وأجاب بالقول : لقد اكتشف المصلح الحقائق الآتية :

١ – الخلاص بالايمان :

أى بنعمة الله العظيمة ولايمكننا ان نعتبر هذا التعليم هرطقة بل انه يتفق وتعاليم الاباء والمجامع فعلى الكاثوليكى اذا تأييد للاباء والمجامع ان ينضم الى عقيدة التبرير بالايمان والمناداة بها . (ص١٥ – ٥٥) .

٢ – الكتب المقدسة :

تمسك لوثر بالكتب المقدسة . وفى تمسكه بها والتشديد على استعمالها واعطائها السلطان اللائق بها فى الكنيسة .

لم يعمل الا ماحاول بعض الاباء القيام به امثال اغسطينوس .. ولايمكن بان تحكم الكنيسة الكاثوليكية على شخص قد تمسك بتعاليم الكتاب المقدس ونادى بها بانه هرطوقى .. !!! .

وفى نفس السنة (١٩٥٥) التى ظهر فيها هذا الكتاب ظهر كتاب آخر للاب أأ . طافارد (Tavard)[١٧] استنكر فيه الاسلوب الهجومى الذى قام به البعض فى وصفهم للمصلح . واعتقد انه من الظلم ان نرجع الى اقوال وكتابات وشتائم اعداء لوثر لكى نحكم على اساسها بهرطقته . فان كثيرين من العظماء والقديسين امثال جيروم والقديس برنارو ، عوملوا بنفس المعاملة التى قابلها لوثر من البعض فى القرن السادس عشر ورأى الاب طافارد فى لوثر راهبا تقيا . كان كل همه الوصول الى الخلاص (١٠٠ – ١٠٤ من كتابه) ويقول الكاتب فبالرغم من بعض الالفاظ الجافة التى استعملها لوثر ، فإن كتاباته تعتبر كتبا مسيحية واعظم ماقام به : هو ترجمة الكتاب المقدس .

واثناء اجتماع مجمع الفاتيكان الثانى ظهر مجلدان للاب فرانسوا بيوث (Francois Boit) بعنوان « **من الجدل الى الحوار** »[١٨] وقدم هذا المؤلف نقدا ذاتيا اتسم بالشجاعة والامانة ، قال فيه ان كثيرين من الكاثوليك فهموا لوثر والاصلاح بطريقة خاطئة ، الأمر الذى يرجع الى الصورة الخاطئة التى قدمها كوكلاوس عنه ومازالت عالقة بالأذهان وفى حقيقة الأمر يعتبر اختبار لوثر الروحى اختبارا دينيا حقيقيا وانه من الخطأ ايضا الحكم عليه بالانفصال ، إذ انه لم يفكر فى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية أو أن يؤسس كنيسة جديدة . لقد كان يسعى جاهداً لا للخروج من الكنيسة بل لاصلاحها .

ولعل عدداً كبيراً جداً من القادة كتبوا فى هذا المجال ولضيق الوقت لايمكننا ان نتعرض لكل كتاباتهم ، على أننا نريد أن نختم هذه القائمة بذكر كاتب هو يوحنا م . تود (Jeah M. Todd) الذى الف كتاب بعنوان « مارتن لوثر » صدر فى لندن (١٩٦٤) كان تود يرى فى لوثر طالبا جاداً وعاملا مجتهدا وراهبا تقيا وذكيا مرهف الحس والشعور تميز بالشجاعة مقدرا ومكرما من رؤسائه . وكان يتمتع بموهبة القائد الناجح ويتفق تود مع بوييه على أن عقيدة التبرير بالايمان لا تناقض العقيدة الكاثوليكية الرسولية .

ومع أن لوثر قد ثار ضد التعاليم المدرسية الا انه ظل متمسكاً بكثير من تعاليم القرون الوسطى . لذلك فانه لم يرد ان يضرب عرض الحائط بالتعاليم القديمة وكان يرى أن التعاليم الجديدة التى اكتشفها فى كلمة الله ستشع فى الكنيسة فتنير لآخرين كما استنار هو أيضا بها ، فان كان قد استنار فانه يريد أن يوصل هذا النور الإلهى الى الانسان المتألم والخاطىء لكى يتبرر بالايمان فى شخص الرب يسوع المسيح .

على أن تود له بعض المآخذ ضد المصلح فانه لم يتفق معه فى افكار ذبيحة القداس وسلطان البابا والمجامع على ان هذا الكاتب لم يترك هذه النقطة الأخيرة دون أن يذكر ان موقف الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر يختلف تماما عن موقفها آنئذ ثم رجع مرة ثانية الى مدح لوثر قائلا : انه لم يكن « رجل ثورات » إذ أنه لم يحاول القيام بحرب أو مقاومة للسلطات القائمة فى عصره كما أنه لم يرد أن ينفصل عن الكنيسة بل أراد أن يقدم تعاليمه للكنيسة وفى الكنيسة ولقد شبه تود لوثر بنبى ، فقال : « مع أنه لم يدع انه نبى الا ان السلطة التى كان يمارسها ، مارسها أنبياء العهد القديم ، وبهذه الروح أراد راهب فيتمبرج أن يكون مصلحا فى كنيسته »[١٩] .

ثم تعرض الرجل الكاثوليكى المتدين لوصف حالة الكنيسة فى ذلك العصر فقال انها كانت منهمكة فى مشاكل سياسية عديدة وأرادت ان تحتفظ بالسلطان الزمنى والروحى معا . لذلك لم تعر فى بداية الأمر الاهتمام اللائق بموضوع هذا الراهب الذى لم يكن مرتدا كما وصفه الكثيرون ... ويواصل الكاتب تعليمه فيقول أن لوثر لم يشك قط فى السلطة البابوية الا بعد ان اتهم بالهرطقة وكان لزاما عليه من الناحية النفسية أن يقف ضد البابا على انه لم يفكر فى تاسيس كنيسة جديدة . ويعتبر هذا الكتاب من أهم ماكتب فى عصره فى هذا الموضوع . فقد كان مثل كتاب « بوييه وهرت » فعمل على تقارب الطوائف وتقديم مفهوم حقيقى على اساس علمى مدروس لشخصية وتعاليم لوثر .

وهنا يظهر السؤال الآتى :

مانتيجةُ هذه المجهودات الضخمة والكتابات العديدة فى عدة بلاد وقارات ولغات ؟ ولعل

الاجابة على هذا السؤال تحتاج الى كتاب آخر ، على اننا سوف نذكر حادثة واحدة كثمرة واحدة من الثمار الكثيرة جداً التى يحاول هؤلاء الذين يطالبون بالسلام والوحدة الحصول عليها : وهى طلب رفع الحرمان عن لوثر : ماهذا الأمر ؟ وماذا تم فيه ؟ .

ففى ربيع سنة ١٩٦٣ قام « اللاهوتى » والقانونى [٢٠] الاستاذ فيلهلم ميكايليس (Wilhelm Michaelis) بتقديم طلب الى رئيس سكرتارية الوحدة المسيحية الكاردينال بيا (Bea) يلتمس من نيافته العمل على تصفية الرواسب التاريخية المتكدسة فى اعماق قلوب ونفوس الشعب الارثوذكسى واللوثرى منذ أجيال طويلة ، وللحصول على هذه النتيجة وللوصول الى السلام والوحدة فى الكنائس اقترح الآتى :

١ – الغاء الحرمان الذى صدر فى يوليو ١٠٥٤ ضد البطريركين المسكونيين فوتيوس (Photius) من القرن التاسع وميخائيل سرولير (Michel Serullaire) .

٢ – كذلك طالب برفع التهديد بالحرم التى أرسلها البابا ليون العاشر فى ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٥٢٠ ضد مارتن لوثر ، وكذلك رفع الحرم الذى اصدره نفس البابا ضد مارتن لوثر فى ٣ يناير (كانون الثانى) عام ١٥٢١ .

وفى يوم ٢٩ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٦٤ وفى مدينة اثينا سلم المؤلف نسخة من هذه الاقتراحات الى : الاستاذ هاميلكاس س . اليفيزاتوس (Hamilkas S. Alivisatos) ونسخة اخرى الى البطريرك المسكونى اثيناغورس . كما سلم نسخا لاكثر من سبعين أبا من الذين اشتركوا فى مجمع الفاتيكان الثانى ، منهم ثلاثة وثلاثون كاردينالاً ، وأربعة عشر خبيراً وبعض الاساتذة . وأرسل عدد كبير من الخطابات والتشجيعات من بعض الكرادلة والاساقفة والآباء معبرين عن رغبتهم فى نجاح هذا المشروع واعدين بالصلاة من أجله .

وفى ٧ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٦٥ تقابل البابا بولس السادس والبطريرك المسكونى أثيناغوراس الأول وأعلنا معا :

١ – أسفهما على الكلمات الجارحة والتوبيخات التى لا اساس لها ، كذلك على الاحكام التى صدرت اثناء الاحداث الماضية .

٢ – رفع جميع أنواع الحرمان التى كانت نتيجة لهذه الأحداث .

٣ – اسفهما على هذه السوابق المحزنة وما نتج عنها من خلق جو من عدم الثقة وعدم التفاهم . الأمر الذى قاد الى الانفصال .

لقد كانت هذه المقابلة حادثاً تاريخيا مفرحا ساهم فيه هؤلاء الذين كتبوا ودافعوا وعملوا كل مايمكن عمله ليتقابل الرجلان .

اما فيما يخص الجزء الثانى من الطلب وهو رفع الحرمان عن لوثر ، فقد واصل الاستاذ المحامى فيلهلم ميكائيليس مجهوداته وسعيه ، فلم يكتف بارسال هذا الطلب الى من ذكروا فقط بل أرسله الى بعض الأساقفة اللوثريين فى المانيا أو السويد والدانمرك والنرويج والنمسا والبرازيل والاتحاد اللوثرى العالمي ... وبدأت المناقشات الطويلة بين الفاتيكان وهذه الاطراف المعينة وكان ملخص الرد النهائى الذى أرسله رئيس سكرتارية الوحدة المسيحية مايأتى :
« يرى قداسة البابا فيما يخص طلبكم بمارتن لوثر أنه من غير الممكن فى الوقت الحاضر التصريح باكثر ماصرح به رئيس منظمة الوحدة المسيحية أمام المجمع العام للاتحاد اللوثرى العلمى فى سنة ١٩٧٠ فقى مدينة افيان ليبان (Evian-Les-Bains)[٢١] وكان الكاردينال فيليبراند (Willebrands) قد أعلن فى هذا المؤتمر باسم الكرسى الرسولى أن لوثر كان شخصية تتمير بالتقوى العميقة والاخلاص وانكار الذات فى البحث عن رسالة الانجيل . هذا ماقد أعلنه الكاردينال فيليبراند ، وهذا ماوصل اليه ايضا الاستاذ المحامى وقد تبدو هذه النتيجة ضئيلة امام الشخص الذى لا يعرف جيداً سوء التفاهم بل اقول أيضا الحروب التى كانت بين الكاثوليك والبروتستانت فى العصور الماضية والتى تركت فى النفوس وفى القلوب أثراً ليس من السهل محوه بسرعة : ان هذه النتيجة عظيمة مع ضآلتها ، عظيمة لأنها تنشر بالأمل والرجاء لمواصلة هذه الجهود التى بذلت من أول هذا القرن . اننا فى أول الطريق ولم نصل بعد الى نهايته .

ان الظروف التى اجتازتها الكنيسة أيام مارتن لوثر ، تختلف اختلافا كبيرا عن الظروف الحالية . فقد كان البابا يجمع بين يديه سلطة روحية ومدنية فى نفس الوقت . وكانت الكنيسة تريد أن تحتفظ بهاتين السلطتين مما جعلها فى بعض الاحيان تتخذ موقفا ملوما . وقبل ظهور لوثر كانت الكنيسة الكاثوليكية تتألم من جراحات الانشقاق الذى حدث بين اساقفتها وادعاء بعضهم البابوية (١٣٧٨ – ١٤١٧) حين ظهر ثلاثة باباوات فى آن واحد . وكان البابا فى صراع مستمر ومميت ضد الانقسام وهذا ماظهر فى مجمع بيز (Pise) سنة ١٥١١ – ١٥١٢ .

كما ان البابا ليون العاشر كان مهددا ليس فقط بالانقسام بل بالموت أيضا . ألم تكتشف فى صيف سنة ١٥١٧ ، أى فى نفس السنة التى كتب فيها لوثر اعتراضاته . اكتشفت مؤامرة دبرت من الكرادلة ضده . فى هذه الفترة ظهر لوثر . وعند ظهوره رأى فيه البابا ويون تهديداً للبابا ولسلطانه . ولهذا وقف ليون العاشر امام لوثر وقفة المعادى والمطارد . ولهذا السبب واسباب اخرى ايضا نستطيع ان نجد نحن ارضية جديدة صالحة للحوار المسكونى فى القرن العشرين . لأن القرن الذى نعيش فيه الآن يختلف تماما عن العصر الذى ظهر فيه لوثر . والكنيسة الكاثوليكية الحالية تختلف عن كنيسة القرن السادس عشر . ونشكر الله من أجل

قادتها وخدامها ، فلقد امتلأ الكثيرون منهم بروح البحث العلمى الصادق والتقوى الحقيقية والرغبة فى خلق جو لحوار مسكونى مخلص امين لتوحيد الكنيسة المنقسمة الممزقة .

وقبل ختام هذا الكتاب يجب أن نلفت نظر القارى الى الحقائق الآتية :

١ – رغم أن العصر الذى نعيش فيه الآن يختلف عن العصر الذى ظهر فيه المصلح الألمانى إلا انه يشبه الى حد كبير الزمن الذى ولد فيه المصلح . فعلى المستوى العلمى : يعرفنا العلماء ان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى وصل اليه الباحثون والعلماء فى الثلاثين سنة الأخيرة يفوق فى اهميته وكميته وفعاليته كل ماكتشف وعرف من علوم على مختلف انواعها وفروعها ، منذ أن بدأت الابحاث والاكتشافات الى سنة ١٩٥٠ .

وهذا يشبه الى حد كبير فترة الاصلاح والفترة التى سبقت ظهوره فقد كانتا فترتى ازدهار وتقدم علمى لم يعرف له العالم نظيراً . والدارس لهاتين الحقبتين من التاريخ يستطيع ان يدرك كما لو كان عدد كبير من العباقرة والعماء كانوا على موعد فى هذا الوقت الذى ظهر فيه كل من : اراسم Erasme ، وبوديه Budè ، ورابليه Rabelais ، باراسلس Paracelse ، دورار Dürer ، ومخائيل انجلو Michel-Angelo ، وفينسي Vinci ، ورافائيل Raphaël ، وبرامانت Bramante ، وكورتز Cortez ، وماجلان Magellan ، وكولومب Colomb ، وكبرنيك Copernic ، وماكيافل Machiavel ، ولويولا Loyola ، وجون كلفن Jean Calvin وآخرون غيرهم .

٢ – لقد تميز ذلك العصر ايضا باختراع الطباعة مما سهل وسوف يسهل فى المستقبل طبع الكتب ونشر الافكار بطريقة سريعة .

٣ – فى ذلك العصر ايضا بدأت الكشوف الجغرافية التى غيرت بل قلبت بعض المفاهيم السياسية والدينية والتجارية .

٤ – ظهور بعض المصلحين قبل لوثر امثال فالدو (Valdo) وويكليف (Wiclef) ، وهوس (Huss) ثم سافونا رولا .

لقد كان ذلك العصر عظيما باختباراته واكتشافاته . **فعندما** حاول الفارس الألمانى أولريتش فون هوتن (Ulrich von Hutten) فى القرن السادس عشر وصفه فلم يجد الا هذه الكلمات : « يالك من عصر جدير بأن نحياه » ولا نريد هنا الإسهاب فى المقارنة بين القرن الذى ولد فيه الاصلاح والقرن السابق له وعصرنا الحاضر ، ولكن نود أن نقول وقد واجه لوثر فى عصره مجتمعا متطوراً ، بل مضطرباً بسبب تطور العلوم

والفنون وقد استطاع ان يقدم رسالة حية مناسبة لهذا العصر المتطور المتقلب : وهذا ماتواجهه كنائسنا فى العصر الحالى وتواجهه بلادنا العربية فى جميع المجالات .

٥ -ملاحظة اخيرة فى غاية الأهمية فيما يخص علاقاتنا المسكونية – هى قول الاب الاستاذ دانيال أوليفييه (Daniel Oliver) الكاثوليكى والمتخصص فى الدراسات اللوثرية ومامعناه : ليس لوثر وتعاليمه ملكا للكنيسة البروتستانتية وحدها ، بل هما ملك للكنيسة الجامعة . ويناشد العالم الكاثوليكى والكنيسة الكاثوليكية بان تدرس تعاليم لوثر . بل انه ذهب أبعد من ذلك ، فقال : « لو وجد لوثر فى عصر البابا يوحنا الثالث والعشرين وليس فى عصر البابا ليون العاشر لاصلحت المسيحية كله » .

معنى هذا أنه لو كان البابا ليون العاشر الذى قاوم لوثر والاصلاح متمتعاً بنفس الروح التى كان يتمتع بها البابا يوحنا الثالث والعشرين من انفتاح فى الفكر واتساع فى الرؤيا وعمق فى المحبة الأخوية – لقبل وقبلت الكنيسة معه الاصلاح الذى نادى به لوثر ، وظل هذا الاخير فى كنيسته لانها قبلت الاصلاح الذى كان يسعى اليه ويتوق الى تحقيقه وقد حث الاب الاستاذ دانيال اوليفييه « الكنيسة الكاثوليكية » بأن تدرس بجد وامانة ، تعاليم لوثر من جديد وبطريقة موضوعية حيادية حتى تعرف حقيقتها مما يقود الى خلق علاقات جديدة لكى نحيا على اختلاف طوائفنا حياة جديدة لمجد المسيح .

فكما نشط هؤلاء الكتاب اقلامهم فى الكتابة معلنين الوحدة المسيحية ، علينا نحن ايضا ان نسير على نهجم .

ان العصر الذى نعيش فيه الآن يحتاج الى وحدة كاملة وترابط قوى وايمان عميق ومحبة صادقة بلا رياء لكى نستطيع معا ان نواجه تحديات المجتمعات المتنوعة من الحاد وكفر ومادية وتعصب .

ان المسيحية فى جميع أرجاء العالم بجميع طوائفها ، تجد الآن نفسها امام هذه التحديات ، رغبت ذلك أو لم ترغب وأسلم طريق للتغلب على تحديات العصر هذه أيا كان لونها أو نوعها ، هو أن ننفذ بطريقة عملية وصادقة وأمينة صلاة الرب الشفاعية « ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الاب فىّ وانا فيك ليكونوا هم أيضا واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتنى » (يو ١٧ : ٢١)

هوامش الفصل الرابع والعشرون

1. Les Commentaria de actis et Scripis Martini Luther;
2. Citè par j. Lortz, **Die Reformation in Deutschland,** Tome 1, P. 193-262.
3. Richard Stauffer, **Les Catholicisme à la dè cooverte de Luther,** Edc. Delachaux et Niestle, P.11-38.
4. R. Stauffer, P. 19-20.
5. **The Catholic Encyclopedia,** Vol 9, N.Y. 1910, P. 438-458.
6. F.O. Hare, **The Facts about Luther,** N.Y. et Cincinnati, 1916.
7. F.O. Hare, P. 9-40.

للتوسع فى هذا الموضوع إدرس أيضا :

H.O. Evennette, **The Reformation,** J. Clayton, **Luther and His work,** P. Hugues, **History of the Church. The Revolt against the Church.**

٨ – الدكتور حنا جرجس الخضرى . صراع بين البابا بولس السادس والاسقف لفقر – مجلة الهدى يونيو ١٩٧٧ .
9. Citè Par R.Stauffer, P. 55.
10. Citè par. R. Stauffer, P. 57.
11. Concilium Revve (14) P. 28, 29.
12. Concilium (14) P. 28, 29.
13. J. Lortz, **Die Reformation in Deutsch Land.**
14. Concilium Revue (14) P. 29-32.

★ ألم يقل عن رسالة يعقوب بانها قش ..

15. A. Herte, **Das Katholisch Lutherbild IM Bann der Luther Kommentare, des Coch Läus.**

١٦ – انظر كتابه ، كتب باللغة الفرنسية والانجليزية :

Louis Boyer, **Du Protestan tisme à L'Eglise, The Spirit and Forms of Protestantism, London, 1956.**

17. **Tavard. A.A, A La rencontre du Protestantisme (Trad. ang): Approach to Protestantism,** N.Y. 1955.
18. Franco is Biot, **De La Polèmique au dialogue,** Vol. 4. et 5, de la Collection «L'Eglise aux cent visages», Paris, 1963.
19. J. Todd 20 285-288.
20. Concilium Re.. (118).
21. Concilium R. (118), D. Olivier, P. 19, 20.

★ Le Christianisme Au 20ème 5, ecle Lundi 23 Mà, 1983 N°. 21.


دار الثقافة
٣,٠٠
١٠١٠٣٩١٦